عبد الحق فاضل

مُغامرات لغويـــة !

(مَلِكة اللغات)

توزيع
دار العِلم للملايين

الحقـــوق محفوظة
للمؤلف

مغامرات لغوية !

نبوأة خطيرة تتحقق

حدّثنا معلم المحفوظات ، عن حافظ ابراهيم ، عن اللغة العربية ، أنها قالت :

أنا البحر .. في احشائــــه الدرُّ كامنٌ
فهـــل سألوا الغوّاص عن صدَفاتي ؟

عربي ، آرامي ، عبري

الشائع ان اللغة الآرامية قبست اسمها هذا من اسم (آرام) خامس أبناء سام بن نوح . ولست اعرف في الحق ما سبب اخذهم بهذا الرأي ، فان التاريخ لا ينبىء ان للآراميين صلة خاصة بآرام بن سام بن نوح أقوى من صلة سواهم به من الساميين ، كالأكديين مثلاً . وانما يبدو لي انهم لما وجدوا اسم (آرام) في التوراة مطابقاً لاسم (الآرامية) قالوا لا بد ان يكون هذا من ذاك . وجدير بالذكر هنا ان اسم الآرامية ورد في المصادر المسمارية بصيغ متعددة ليس بينها واحدة على وزن (آرام) — بفتحة مديدة على الهمزة والراء .

وأود ان أعرض هنا رأياً لي في العلاقة بين اسم العربية والآرامية والعبرية لا يقطع بصحته نص قديم ولا حديث ، وانما هو « نظرية » خطرت لي منذ أعوام ، وما زلت أتحدث بها كلما دعت مناسبة ، فلم أجد حتى الآن عند أحد ما ينقضها .. ولا ما يبرمها . فهي رأي ، مجرد رأي ، لا ألومك اذا رفضته ، لأني لا أملك الدليل الباتر لحملك عليه .

معروف ان اللغات الساميّة الثلاث — العربية والآرامية والعبرانية — من أسرة واحدة ، انحدرت كلها من لغة واحدة كانت أمّاً لهن . ويعتقد بعضهم ان الأرمية — او الآرامية اذا شئت — أقرب الى تلك الأم نسباً وان العربية اكثر بها شبهاً . وليس تأييد ذلك او تفنيده بالمهم هنا [1] . لكن المهم هنا هو ان هاته اللغات الثلاث كنّ لغة واحدة ذات حين ، ثم عملت عوامل الزمن وتنوّع

---

١ — تبين لنا فيما بعد ان العربية هي أم اللغات الآرية بالاضافة الى اللغات الحاميّة والساميّة. وسيأتي برهان ذلك في فصول لاحقة .

الاحوال الاجتماعية والحضارية والجوار عملها في تطويرها حتى توزعت لهجات، ثم أصبحت اللهجات لغات، كما توزعت العربية في عصرنا هذا لهجات ولغات، فأصبحنا نرى من فعل الزمن هاته الفروق بين اللغات الدارجة اليوم من عراقية وشآمية ومصرية ومغربية ويمنية و.. و.. ولولا أن أهلها قد أخذوا جميعاً بالفصحى وأبوا ان يتخذ كل منهم لغته المحلية لغة للكتابة والادب لتعذر التفاهم بينهم بعد بضعة أحقاب، بل انه ليتعذر التفاهم احياناً بين بعضهم وبعضهم اليوم ايضاً، ما لم يلجأوا الى الفصحى.

واذا كانت كل لفظة من اللغة معرّضة لتطور قد يكون بعيد المــــدى في معناها ومبناها، فلمَ لا يخطر لنا ان اسم اللغة نفسه، وهو لفظة من ألفاظها، معرّض كذلك لتطور بعيد المدى او قريبه؟ ان ما بأيدينا من تراث اللغة العربية من شعر ونثر ينبئنا ان القوم كانوا يسمون أنفسهم: العَرَب (كالسبب)، والعُرْب (كالشكر)، والعُرُب (كالمدن)، والأعْرُب (كالأرؤُس).. وربما كانت لهم اسماء أخرى...

ولو سألت أحد الأعاجم، ممن لا ينطقون العين ان يقول (عَرَبي) لقال (أرَبي)، ولو سألته ان يقول (اعرابي) لقال ببساطة (آرابي)! ولا شك ان الفرس والروم وهم كانوا جيران عرب العراق والشآم كانوا يسمون العربي: أربي. وما زال الفرس اليوم يسمون العرب (آراب) ويكتبونها (أعراب).. ويدعون الجامعة العربية (إتّهادِيّهءِ آراب) ويكتبونها (اتحاديّهء أعراب).

ومخرج الباء قريب جداً من مخرج الميم في الفم، فلو سددت أنفك وقلت (ماما) لخرجت من شفتيك (بابا).. أو قلت (أرَمي) لجاءت من فيك (أرَبي)!

فكلمتا عربي وأرمي كلمة واحدة فيما يخيل لي، كانتا رتقاً ففتقهما تطور الحدثان.

إن هما إلاّ حرفان : عين وباء .

والعين سيئة الحظ ، يتعسر ، بل يتعذر اليوم نطقها على معظم ذرّية نوح ، ولا سيا الآريين منهم . حتى العرب المختصون بنطق أعسر الأصوات اللغوية ، كان بعض قبائلهم ينطقها نوناً . وها هم اكثر أهل العراق – وانت على الاغلب احدهم – ما زالوا على هذا المذهب في قولهم (ينطي) بدل (يعطي) [٢] .

وان شئت أمثلة على تناوب العـــين والألف بالذات فإليك بعض النماذج : أربون عربون ، يؤتي يعطي ، استأدَى عليه استعدى عليه ، اسف عسف ، تجزّأ تجزّع ، تأوّق تعوّق . . .

وحريّ بالذكر أن الاكديين لما حلّوا ارض الرافدين وغلبوا السومريين على أمرهم استعملوا الخطّ السومري – المسماري – في كتاباتهم مع ان في لغتهم اصواتاً لا وجود لها في السومرية ومنها حرف العين بذاته فيما يظهر ، فصاروا يكتبونه همزة من باب الضرورة كما نفعل نحن اليوم عند كتابة اسمائنا بالحروف اللاتينية . والكتابة تؤثر احياناً في النطق ، فقد صارت أسماء يعقوب ويوسف وبنيامين تنطق في بعض اللغات الاوروبية : جاكوب وجوزيف وبنجامين ، لأن الجيم في هذه الاسماء يرمز اليه بالحرف (j) الذي كان يدل على صوت الياء وما زال كذلك في بعض اللغات الاوروبية كالالمانية والبولونية ، ثم اصبح في بعضها الآخر يستعمل للدلالة على صوت الجيم كما في الانكليزية والفرنسية. كذلك كان العراقيون ينطقون اسم انكلترا بالجيم (انجلترا) لاعتمادهم يومئذ عـــلى الصحف والكتب المصرية . ويبدو ان هذا سيكون نصيب (كلكامش) ايضاً ،

---

٢ – هكذا كان نص العبارة عند نشر المقال في مجلة « سومر » – بغداد – المجلد ١٤ ، سنة ١٩٥٨ . الا اننا بعد اهتدائنا في البحث اللغوي الى طريقة « الترسيس » التي سيرد ايضاحها في فصل لاحق – تبين لنا ان « ينطي » هي أصل « يعطي » .. وسنتطرق كذلك الى تأصيل كلمة « العطاء » ضمن موضوع « فضل العربية على الحضارات القديمة » .

لان مجلة « سومر » تكتب هـــذا الاسم لأسباب مجهولة لدينا ، على الطريقة المصرية : جلجاميش [٣] .

على ان انحراف النطـــق بسبب انحراف الكتابة لا ينحصر في الاسماء الاجنبية كالذي رأينا في الامثلة السابقة ، وانما هو يتناول في بعض الاحايـــين ألفاظاً من صميم اللغة. وها هم الاكثرون من العرب يقولون (ماءة) بمعنى (مئة) لانهم يكتبونها (مائة) تقليداً لخطأ شائع قديم ، وخلافاً للقاعدة .

يضاف الى هذا ان السومريين الذين نزل فيهم الاكديون قد ساعدوا بنطقهم بالاضافة الى حروفهم ، على تحريف الاكدية ، فيما أظن . ذلـــك بأنهم كانوا لا ينطقـــون بعض الحروف ، ومنها العين ، التي لا وجود لها في لغتهم . فكانوا ينطقون بالهمزة ما كان يعرض لهم في الاكدية من الكلمات التي ترد فيها العين . فاذا صادفوا كلمة مثل (عربي) لفظوها (أربي) . ولعلهم قـــد ساعدوا في خلق نزعة ابدال العـــين همزة في بعض الالفاظ الاكدية لدى بعض الاحياء ، او المـــدن ، او الطوائف الاكدية نفسها . واللغة الآرامية هي بنت الاكدية ، او اختها ، او بنت اختها (الكنعانية) . وهي على كل حال قد ظهرت في ارض الاكديين حوالى القرن الخامس عشر قبل الميلاد على المشهور ، وعايشت الاكدية أمداً طويلاً ، فاحتكت اللغتان وتفاعلتا تفاعلاً شديداً حتى ذابت الاكدية بالتدريج واضمحلت قبيل الميلاد ، لكن بعد ان تركت آثارها العميقة في الأرَميّة .

وما زالت العين تنطق همزة احياناً في سريانية العراق مثلاً ، فيقول أهلها

---

٣ – ورد الاسم في المصادر الانكليزية : Gilgamesh ، ولعل الكاف الفارسي (g) ورد في اللغة البابلية مقابل القاف العربي ، وما زال الامر كذلك في كثير من الالفاظ في العراقيـــة الدارجة وغيرها من الدارجات . لذلك نرجح ان الاصوب كتابة الاسم بالقاف « قلقميش » ، وبهذه الصيغة اوردناه في ترجمتنا المنظومة للملحمة قلقميش .

(أرْبَه) بدلاً من اربعة . وقد كانت تنطق (أربأة) فيما يبدو ثم خففت الهمزة الثانية ، حتى زالت . كذلك هم يقولون (اسره) اي : عشرة .

على ان العين في كلمتي اربعة وعشرة وامثالها ، تنطق عيناً على حالها — لا همزة — في سريانية برّ الشام . وقد يلوح ان هذا ينقض نظريتنا او يضعفها ، اما انا فأرى العكس . ان هذا يؤيد ان ابدال العين همزة أمر محتمل الوقوع فيما بين الناطقين بالعين أنفسهم ، لا عند الاجانب فقط . وهو يدل كذلك على ان هذا قد وقع فعلاً عند بعض المتكلمين بالارمية (السريانية) ، وان هذه النزعة — نزعة ابدال العين همزة — ظلت مستمرة في بعض فروع الأرمية حتى اليوم . وهو اخيراً يرينا بجلاءٍ الطريقَ الذي سلكته كلمة (أعرابي) قبل ان تنسكب في قالب (أرَمي) .

فليس بدعاً اذن ان يكون بعض الساميين القدامى — ممن ينطقون العين همزة كبعض السريانيين اليوم — قد سمّوا انفسهم (آراباً) حين كان سائر العرب يسمون انفسهم (اعرابا) .. كما يجوز ان يكون الساميون قد قلدوا الاجانب كذلك . وليس محالاً ان يقتبس قوم اسمهم او اسم وطنهم من الاجانب . وها هم اخوان لنا في الشآم يسمون انفسهم (سوريين) ويسمون وطنهم (سورية) مجاراة لغلطة الاعاجم — الاغريق — الذين توهموا ان هذا البلد موطن الاشوريين (Assyrians) الذين كانت الشام ضمن امبراطوريتهم قروناً طويلة ، فسموها (سورية — Syria) على اسمهم ، وسارت الدنيا وراءهم في هذه التسمية .

وأما الباء والميم فأخَوان كثيراً ما يتبادلان موضعيهما لقرب مخرجيهما كما قلنا قبل . وقد قالت العرب : كمح بمعنى كبح ، وتراكم بمعنى تراكب ، ولازم بمعنى لازب .. وقد جاء اسم (مكة) في القرآن بصيغة : بكـّة .

قال لي احد القسس اللغويين منكراً عليّ هذه النظرية ان لفظة (عربي)

هي الحدثة لان (عربو) تعني بالسريانية الصحراء ، وان العرب سُمُّوا عرباً لانهم ابناء الصحراء .

الواقع ان مادة (ع ر ب) كانت تعني الجدب في اللغات السامية القديمة ومنها العربية ، لهذا يرى بعضهم ان اسم العرب مشتق من هذا المعنى . لكن هذا مجرد احتمال ، يستند الى الشبه اللفظي وحده ، وليس له برهان يدعمه غير ذلك .

ان مادة (ع ر ب) كانت تدل في العربية عـــلى الجدب حقاً ، لكنها تعني كذلك : الاكل ، ودفع العربون ، وغزارة ماء البئر ، وفساد المعدة ، وما الى ذلك من معان ليس حتماً ان تكون لها صلة بتسمية العرب ، ولا ان تكون منشعبة عن اصل واحد .

واذا سلمنا بوجود الصلة بين اسم الصحراء والعروبة فانه يجوز ان تكون الصحراء هي التي اشتـُق اسمها من اسم العرب باعتبارهم سكانها ، كما سميت جرمانية نسبة الى الجرمان ، وفرنسة نسبة الى قبائل الفرنك ، وانكلند نسبة الى الانكل . وربما كان الامر كذلك في تسمية سومر ، و اكد ، و كلدة – وهي بلد واحد في ارض واحـــدة سمي حيناً باسم السومريين وحيناً باسم الاكديين وحيناً ثالثاً باسم الكلدانيين .

فاذا أصرّ قوم ، بعد هذا كله ، على ان اسم العرب مشتق من اسم الصحراء (عربو) بدليل الشبه اللفظي ، أجبناهم مداعبين ، اننا نستطيع كذلك ان ندّعي بأن (الآراميين) انما سُمُّوا بذلك نسبة الى (الآرام) – جمع رئم وهو الظبي الابيض – لانهم كانوا في سالف العهـــود يعيشون على اقتناص الظباء البيض ، يقتاتون بها !

ويصرّ بعضهم على ان الارمية اقدم عهداً من العربية ، اي اقرب نسبة الى اللغة الأم . لكن هذا لا يدل على كل حال على ان اسم الأرمية اقدم من اسم العربية . وحتى لو افترضنا انه اقدم عهداً فهذا لا ينقض نظريتنا ، وانما يكون الحكم عندئذ ان كلمة (أرمي) هي الاصل الذي اشتقت منه كلمة (عربي) . وكلا الأمرين عندنا سيّان ، فالذي يهمنا كون الكلمتين كلمة واحدة في الاصل، ولتكن اية منها أقدم من الاخرى .

وما دامت هناك نزعة لنطق العين همزة فالظاهر انه كانت توجد لقاءها نزعة معاكسة لردّ الهمزة الى اصلها ، وقد تؤدي هذه النزعة الى قلب الهمزة الاصيلة في بعض الالفاظ عيناً . ولعل العرب او غيرهم من بعض الساميين كانوا ينطقون بالعين كل همزة يتلقـّونها عمن لا ينطقون العين فقالوا (عربي) حين قيل لهم أرمي . وطالما فعلت العرب ذلك ، فقد أوهمها عجز الاعاجم عن نطق الطاء والصاد والقاف مثلاً واستبدالهم بها التاء والسين والكاف .. ان كل واحد من هذه الطائفة الثانية يجيء في كلمة اعجمية مقـــلوب عن نظيره من الطائفة الاولى فلهذا يجب عليهم ان يردّوه الى اصله . وعلى هذا الاساس قالوا : سقراط واقريطش (جزيرة كريد) وصقلية .. وهكذا . وقومٌ هذا شأنهم لا يستبعد منهم ان يقولوا (عربي) بدلاً من (ارمي) .

ونحن نرى اليوم لقاء نزعة ابدال الذال زاياً والقاف همزة في بعض الاقطار العربية نزعة معاكسة لردّ كل زاي وقاف الى الذال والهمزة . من ذلك ما نقرؤه احياناً في بعض مطبوعاتهم من (المبلغ الذهيد) بدلاً من (الزهيد) ، و (المدة الوجيذة) بدلاً من (الوجيزة) . وقد ابرق بعضهم الى احد الزعماء السياسيين في دمشق يقول : « نقيـّدكم من كل قلوبنا » .. يريد ان يقول : (نؤيدكم) !

والايرانيون الذين ينشأون من طفولتهم في بـــلد عربي ـ كربلاء مثلاً ـ

ويتعلمون النطق العربي يجدون اهلهم يعجزون عن نطق العين ، فهل تدري ما يصنعون ؟ انهم يُرجِعون كل همزة يجدونها في الفارسية نفسها الى العـــين ، فيقولون (عاب) بدلاً من (آب) اي ماء ، و (عنكور) بدلاً من (انكور) اي عنب ، و (عنجير) بدلاً من (أنجير) اي تين !

بل ها نحن أولاء نجد حتى المتأخرين من العرب يقلبـــون الهمزة في بعض الكلمات الاعجمية عيناً ، فيقولون (عافرم) بدلاً من : آفرين !

والقرويون في العراق سواء منهم اعراب الشمال والجنوب ، ميّـــالون الى العنعنة في الالفاظ الاعجمية والعربية جميعاً ، وقد سمعت قبل مدة حارساً في اطلال (نمرود) – قرب الموصل – يسمي الآشوريين : عاشوريين ! وأما عرب الجنوب فقديمـــاً عبّروا عن السؤال بالسعال ، وعـن الـ (سى آي دي – C. I. D.)[٤] – دائرة التحقيقات الجنائية – بقولهم (السعيدي) ، وعن (چيريو – cheerio) الانكليزية التي تقال عنـــد شرب النخب بقولهم : چَرْعُوا (= إكرعوا) !

وقد سمعت احدهم قبل يومين في بغداد – ولهجته تنبىء انه اعرابي جنوبي – يقول لرفيقه : « هالمسعلة ما تخلص قبل ما تجتمع الهيعة » ! ومعلوم ان الكثيرين من عامتنا وعامة الاقطار العربية الاخرى يسمون القرآن (القرعان) .

فما الذي تتوقع من أمثال هؤلاء اذا انت ائتمنتهم على كلمة مهموزة مثل (أرمي) ؟

---

٤ – الاسم انكليزي من مخلفات عهد الاحتلال البريطاني وهو اختزال من :
Criminal Investigation Department.

ان أقدم المصادر التي جاءنا فيها ذكر (العرب) بهذا الاسم هو مسلة شلمنصر الثالث (في منتصف القرن التاسع قبـــل الميلاد) وقد ورد اسمهم فيها بصيغ متنوعة تقارب الصيغ العربية التي ذكرناها آنفاً، مما يدل على ان استعداد الكلمة للتطور والتحريف كان عريقاً . واشهر هـــذه الصيغ التي وردت في المصادر المسمارية منذ عهد شلمنصر الثالث هي : عَرَبي – Arabi ، وعَرْبي – Arbi، و عُرْبي – Urbi ، و عَرِبي – Aribi ، و عَرُبي – Arubi . ووردت الصفة منها : عَرَبيا – Arabaia ، و عَرَبايَوْ – Arabaaiau ٥ .

وينبغي هنا ان نذكر ان الكتابة المسمارية لا عين فيها ، كالذي قلنا آنفاً ، أعني ان هذه الصيغ قد وردت فيها بالهمزة ، كما هي خليقة ان تكتب باللاتينية وغيرها من اللغات ذات الحروف الاعجمية . ويبدو من العجب ان يخـــترع السومريون الكتابة المسمارية برمتها ، ثم يخلُفهم عليها الاكديون فالبابليون (وهم متأخرو الاكديين) فالآشوريون فالكلدانيون (وهم متأخرو البابليين) ، ويأتون بأفانين المخترعات إتماماً للحضارة السومرية ولكنهم يعجزون عن إتمام كتابتهم باختراع حروف قليلة يرسمون بها العين وغيرها من الاصوات المعدومة في السومرية . لكن يزول العجب اذا تذكرنا ان المسمارية ليست حروفاً بـــل كلمات لكل منها شكل مخصوص ، معقد على الاغلب ، يستعمل في كلتا اللغتين السومرية والاكدية ، وفي لغات اخرى في الشرق الاوسط ، فكان تبديلها او تعديلها جديراً بأن يُولـّد مشكلة اكبر من التي يراد حلها . ولا يَعْزب عن البال في هذا المقام ان الكثيرين من الاوربيين يعانون اليوم كذلك مشكلة كتابة ألفاظ في لغاتهم على خلاف ما ينطقونها ، ويشكـُون من أنفسهم نفس العجز عن معالجة الحال .

---

٥ – طه باقر – «علاقات بلاد الرافدين بجزيرة العرب» – مجلة « سومر » – الجزء : ٢، المجلد : ٥ – ١٩٤٩ . وقد أورد هذه الصيغ بالحروف اللاتينية فقط . امـــا نطقها بالعربية فاضافة من قبلنا .

اما « الأرَمي » فقد ورد اسمه في المصادر المسمارية بصيغ كثيرة متباينة ايضاً ، منها : أرَمه – Arame ، و أرْما – Arma ، و أرُمُو – Arumu ، و أرِمي – Arimi ، و أرَمُو – Aramu .. وليس بينها (آرام) – بفتحة مديدة على الهمزة والراء – كما قلنا في مستهلّ الكلام . ووردت النسبة اليها : أرَميا – Aramaia ، و أرمايا Aramaaia [٦] .

والشبه بين صيغ الأرمي هذه و العربي آنفاً أوضح وأدعى الى العجب من ان نلفت النظر اليها . وان أية واحدة من هذه الصيغ في احدى اللغتين تصلح لان نشتقّ منها نظيرتها في اللغة الاخرى . ولئن كان الأشوريون يكتبون جميع هذه الصيغ العربية والأرَمية المتشابهة بالهمزة وينطقون العربية منها بالعين فقد كان الاجانب يكتبونها وينطقونها كلها بالهمزة . وعلى كلتا الحالتين لا فرق بين الطائفتين في الكتابة سوى حرف واحد : الباء او الميم ، وهما الحرفان الأخَوان اللذان سبق الحديث عن الشبه بينهما وسهولة ابدالهما ببعضهما بعضاً . والواقع انه ليس عجيباً ان يختلط الامر على القارىء والسامع في هذه الملابسات الشاذة فيقع الابدال بين هذين الحرفين ، وانما العجب كل العجب ألا يختلط ويلتبس . وطالما تغيرت ألفاظ وارتـُكِبت اغلاط في قديم الاحقاب وحديثها، في ظروف لغوية أيسر من هذه الظروف .

وقد ذكر سترابون في جغرافيته (حوالى ٦٦ ق م – حوالى ٢٤ ب م) ان العربي كان يسمى (أرِمبي – Erimbi). بل انه ذكر ما هو اغرب . ذكر ان « الارمنين والآرامين والارمبين » ثلاث أمم تنحدر من أصل واحد ولهـــذا تشابهت اسماؤهم [٧] .

---

٦ – Reallexikon der Assyriology - Erich Ebling und Bruno Meissner.

ونشكر للاستاذ فؤاد سفر أن أرشدنا الى هذا المرجع .

٧ – « بلاد العرب من جغرافية سترابون » – ترجمة : جبرا ابراهيم جبرا . « مجلة المجمع العلمي العراقي » . المجلد : ٢ ، ص ٢٦٨ – سنة ١٩٥٢ .

ولقد كان يسعنا ان نأخذ بحجة سترابون المتعة هذه ولو بشيء من التحفظ لولا انه أقحم الأرمن اقحاماً، فمعلوم انهم من الآريين[8] . لكن الذي يعنيني هنا، ويشغل ذهني ، هو كلمة (الارمبي) هذه فانها تلوح لي الحلقة المفقودة بين الأرمي والأربي (اي العربي كما يكتبها ويلفظها الاعاجم ومنهم سترابون نفسه) . انها منحوته من (عَربي – Aribi) او (أرمي – Arimi) او كليهما فيما يظهر. وقد اجتمعت فيها باء الاولى وميم الثانية. والعادة عند ابدال الحروف في الالفاظ ان يختفي القديم ليحل محله الجديد . اما ان يجتمعا في الكلمة فحدث طريف لعله نادر المثال .

كثيراً ما نصادف حارساً يخفر مكاناً ، فهذا شيء مألوف . لكن ثمة برهة قصيرة نرى فيها حارسين ، هي فترة تسليم الحراسة حين يلتقي الحارس الجديد الذي جاء يتسلم نوبته من الحارس القديم الذي انتهت نوبته . في تلك اللحظة لا نستطيع ان نعرف ايهما السلَف وأيهما الخلَف حتى ينصرف احدهما . كذلك شأن الباء والميم في (الارمبي) . ولو عرفنا ايهما السابق وايهما اللاحق لعرفنا بطبيعة الحال اية واحدة من لفظتي العربي والارمي اصل الاخرى .

وثمة ظاهرة تسترعي النظر ، هي ان العربي كان يسمى عند الاغريق (اوربي) ايضاً بالاضافة الى تسميته (ارمبي) كما يتضح من نص سترابون . وربما كانت لديهم صيغ اخرى من هذا الاسم ، شأن الآشوريين . والظاهر ان (ارمبي) بعد أن انبثقت من اللفظتين (عربي وأرمي) او من احداهما ، لبثت تعايشهما معاً بصفتها حلقة غير مفقودة ، الى ان اندثرت وانفقدت . بل لعل بعض الساميين كانوا يسمون العربي : عرمبياً ..

ان اشتقاق الآرام من الاعراب – او العكس – مجرد نظرية على كل حال . وربما يؤيدها بعض الشيء – حتى ليكاد يقنعني مع القراء انا ايضاً بصحتها – ان عرب العراق والشآم كان الكثيرون منهم ، ولا سيما اهل الحضر يتكلمون

٨ – بعد ان اكتشفنا أن الآريين أصلهم من العرب أصبحت نظرية سترابون جديرة بالتأمل .

الارمية قبل الفتح الاسلامي ، ولم يَحُل ذلك دون تسميتهم عند الاغراب ، وعند انفسهم ، بالعرب . وقد كان اهل مدينة (الحَضْر) التي نبش المنقبون العراقيون عن اسرارها اخيراً ، يتكلمون الأرمية . ولعل معرفتهم بالعربية ما كانت تزيد على معرفتهم بالفارسية او اللاتينية .. مع انهم عرب من غير ريب ، وقـــد ذكرهم الرومانيون في مدوّناتهم وقالوا انهم عرب . (كذلك كان العبرانيون على عهد المسيح يتكلمون الارمية دون ان يشك احد في كونهم عبرانيين) .

ومن الممتع ان التوراة تذكر (الآرام) في بعض الاحايين كاسم جمع (لا مفرد له) يدل على القوم لا على الارض . (صموئيل الثاني — ١٠ : ٦ و ٩ و ١٤ و ١٥).

ويلاحظ الى جانب هذا ان (الأعراب) ايضاً اسم يدل عـــلى القوم وانه ليس جمعاً بذاته ، اي لا مفرد له ، وان كانت صيغته تشبه بعض الجموع العربية كالأصداء والايام والاتراك . وانما يأتي المفرد من (الاعراب) باضافة ياء النسبة فيقال أعرابي ، كما يأتي المفرد من (آرام) : آرامي .

* * *

لنعد الى استعراض الصيغ التي كانت تطلق على العربي مثل : عُرْبي ، يعربي ، أعرابي .. الخ . ولنأخذ من بينها (عُرْبي) بضم فسكون ، (وهي قد وردت في المسمارية ايضاً كما رأينا) وجمعها عُرْب (بضم العين) وعُربان . فاذا قدمنا الباء على الراء وكسرنا العين في نطقها جاء بيدنا اسم اللغة الساميّة الثالثة : العبرانية .

ومثل هذا القلب في العربية وغيرها من اللغات كثير . ويبدو ان بعض القبائل العربية اكثر مساهمة في هذا من بعض . واليوم ربما يمثل المكثرين من العرب في هذا القلب اهل الشآم ، فانهم يقولون مثلاً (مُجْعِز) بدلاً من مزعج،

و (تصطفل) بدلاً من تفتصل (كما ينطقها اهل الموصل من العراقيين) بمعنى : انت وشأنك . بل ان السوريين لا يكتفون بالقلب البسيط وانما يشفعونه احياناً بالابدال فيقولون (إجري) بمعنى رِجْلي . هنا لم يكتفوا بوضع كل من الراء واللام موضع الآخر بل صيّروا اللام همزة ايضاً . وما اكثر ما صنعت العرب ذلك من أقدم عهودها فقرنت القلب بالابدال في مثل (ماعزة) التي جعلوها (مِعزاة) اولاً ثم قلبوها ، ثم جعلوا ميمها نوناً ، فصارت (عنزة) ، وعندئذ كفّوا عنها [٩] .

ما عليك اليوم الا ان تعطي كلمة (عربي) الى اخوان لنا في الشآم وتنتظرهم بضعة قرون ليعيدوها اليك وهي : برعي ، او رعبي .. او عبري ! ولعلهم هم الذين فعلوها . ولعلهم هم الذين تناولوا (العربان) فجعلوا المفرد منها عربانياً ، ثم نحتوا منها (العبراني) .

وما اقول هذا معابثةً فان العبرانيين في الاصل عراقيون (ابوهم ابراهيم ، من اور ، على رواية التوراة) ، وانما صاروا قوماً خاصاً لهم لغتهم الخاصة في ارض الشآم ، بين ظهراني اهلها عرب الشآم : الكنعانيين .

يقولون ان (العبرية) مشتقة من العبور ، ويروون لذلك قصة ، كما يفعلون ابداً حين يعوزهم الدليل المحسوس .

ان اوضح مثل يسير في خط يوازي خط اشتقاق العبري من العربي بطريق القلب يتجلى فيما يلي : قال العرب « أعربَ فلانٌ ، وعَرُبَ » بمعنى أفصح

---

٩ – قدمنا ذكر الماعزة على المعزاة لاننا نظن الكلمة صوتية ، اي محاكاةً لصوت هـذه الدابة حين تقول : ماع . واما النطق للرجل « إجر » فيبدو لنا الآن والكتاب ماثل للطبع انه الاصل ، وأن « الرِجل » هي الصيغة المحدثة .

وأبان ، مشتقين ذلك من (العربي) لانهم يفهمون عنه اذا تكلم ، كما قالوا : « أعجم فلان » اذا أبهم كلامه لانهم لا يفقهون لغة الأعاجم . ثم هم قلبوا (عَرّب تعريباً) فقالوا : (عبّر تعبيراً) بنفس المعنى ، اي الإفصاح والإبانة . فالتعبير من التعريب لا من العبور .. كما ان العبري من العربي فيما يبدو ، لا من العبور .

ان الالفاظ ولا سيما أسماء الاعلام ، عرضة للتحوير ولا سيما اذا تغربت . وقد ساعد الشعر العربي حتى على تحريف غير المتغرب منها ، وكثيراً ما كان الشعراء يلوون الاسماء ويعيدون سبكها فيصبّونها في بعض قوالب العروض ليستقيم لهم الوزن . ومن ذلك مثلاً اسم (عَرَبة) — من وزن سَمَكة — وهي مكة ، اضطُرّ الشاعر الى تسكين رائها ليتمكن من تضمينها شعره فقال في مدح النبي :

وعَرْبة ارض ما يُحلّ حرامَها
من الناس إلا اللوذعيُّ الحُلاحلُ

ان (اوروك) سماها العرب الوركاء والورقاء، و (حاسو) سموها الاحساء.. ويوحنا ذهب اسمه في الارض فصار يدعى : يحيى، ويوهان ، وأوهانيس، وجون ، وجوهان ، وجوفانـّي .. في مدى نحوٍ من ألفي عام .

فلا غرابة ان يُشتقّ آرامي من أعرابي (أو : ارمي من عربي) ، وعبري من عُربي (او عبراني من عرباني) .. في مدى ألوف لا نعرف عددها من الاعوام .

تصفـّح اي معجم عربي ، وستجد العجب العجاب . ستجـــد الكثير من الالفاظ ترفل في عدة أزياء . ولن أطيل عليك ، فلهذا البحث مقام آخر ، ولنجتزىء بلفظة واحدة ، ولتكن (اللـّوث) . فهي : لـَوْث ، ولـَوْخ ،

ولوذ (ولـَوَاذ ، بفتح اللام .. ولِواذ ، بكسره .. ولـُواذ ، بضمه .. ولِياذ، بكسره ايضاً) ، ولـَوْص ، ولـَوْط ، ولـَيْط ، ولـَوْق ، ولـَيْق ! واكبر الظن ان هذه الالفاظ كلها لفظة واحدة في الاصل تناولتها ألسنة القبائل في أمكنة مختلفة وأزمنة مختلفة ، فصنعت منها هذا الصنيع . ولا تزال معاني هذه الالفاظ كلها متقاربة تعبّر عن اللصوق والاختلاط . فهل رأيت اغرب من هذا اللـّوْص ؟

وأهون من هذا وأقرب الى المعقول كما ترى اشتقاق عربي وأرمي وعبري من كلمة واحدة ، خصوصاً وانها كلها تدل على لغات كانت في الاصل لغة واحدة . ولا بدع ان تخرج ثلاث كلمات من كلمة بعد ان خرجت ثلاث لغات من لغة انسلخ أهلوها بعضهم عن بعض وبعدت الشقة بينهم وتباينت ظروفهم اللغوية ، ولا سيما ان لفظة العربي نفسها قد تحرفت بين العرب انفسهم كالذي رأينا قبل .

يا صديقي القارىء . لعلك مثلي لم تقتنع بعد بصحة هذه النظرية .. فلا بأس عليك . حسبنا ما عَرَض لنا في أطواء الحديث من هذه الشؤون اللغوية العجيبة .

لغة الجيل

تلقيت -- حين كنت في القاهرة عام ١٩٥٢ – رسالة من الفاضـــل اسامة فهمي ابو العطا علمت من فحواها ان كاتبها طالب ، ربما في الآداب . وقد ذكر فيها ان والده أهداه نسخة من كتابي « ثورة الخيـــام » فقرأه ووجد فيه بعض مآخذ ، فأجبته بما يلي : وها أنا أنشره لابناء الجيل لعله يجديهم نفعاً.

... أعجبني من رسالتك انها جاءتني من امرىء لا اعرفه إلا من رسالته ولا يعرفني إلا من كتابي . وصلة فكرية كهذه اعُدّها من اجمـــل الصلات . واعجبني انها جاءتني من طالب ، فقلـّما يُعنى الناس اليوم بشؤون الفكر ، ولا سيما الطلاب الذين اذا اخذوا انفسهم بشيء من الجد انصرفوا الى دروسهم وحسب . اما من كان مثلك مَعنِياً بقراءة الادب بالاضافة الى دروسه فخليق بالتقدير والفلاح . وأعجبني كذلك انك تفكر فيما تقرأ وتنقده ، ومن فكـّر – ولا عليه ان يخطىء ويصيب – كان واعداً بالتفوق والابتكار .

ولا بد قبل الاجابة على نقدك – من أن ازجي اليك خالص الشكر لما اغدقتَ على كتابي من ثناء كثير أخشى ألا يستحق منه الا القليل .

اخذت عليّ في رسالتك استعمالي لفظة التنبؤ بمعنى التكهن على حين انها تعني في المعاجم ادعاء النبوّة . وجوابي على هذا يا صديقي انها كانت تعني ذلك في

عصور خلت ، يوم كانت هنالك نبوّات ، اما اليوم فهي تعني بالاضافة الى ذلك الإنباء بالمستقبل . وللناس في هذه الامور مذهبان : احدهما التمسك بالقديم والوقوف عنده ، وهو مذهب والدك الفاضل فيما يبدو .. والثاني التكلم بلغة العصر الذي يعيش المرء فيه ، وهو مذهبي .

كل شيء يصطنعه الانسان ويتخذه وسيلة لقضاء حاجاته يتطور بتطور الانسان . ألا ترى الى هذه الثياب والمساكن والمطايا وأدوات الراحة والزينة كيف تطورت تطوراً حثيثاً ، وما زالت تتطور تطوراً أحثّ ؟ بل ان اللغة ألصق من كل اولئك بالانسان ، لانها لا تعيش خارجه – في المعاجم والكتب – فحسب، وانما هي تعيش معه ايضاً ، بل تعيش فيه .. في خوالج عقله وهواجس نفسه . فهي لهذا لا تسبق الانسان في التطور كما سبقته الآلة ، ولا تتخلف عنه كما تخلفت التقاليد والاخلاق ، وانما تسير اللغة معه جنباً الى جنب .. خطوة بخطوة .

ما من حدث في التاريخ الا وقد استجدّ حدثاً في اللغة . وحسبك بالاسلام حين ظهر .. كم استجدّ من ألفاظ ومصطلحات ، وبدّل من معاني كلمات ، وطوّر من اساليب شعر ونثر . كذلك شأن كل ثورة ، او تطور اجتماعي ، او نهضة في العلم او الفن .. لا بد ان تلبس لبوسها من ثورة او تطور او نهضة في اللغة .

أما اذا أردت ان تعصم لغة من لغات الناس من كل تبديل وتطور فأمامك طريقة واحدة ، لا ثانية لها : إمحق أهلها من الوجود .. وأنا أضمن لك ان يتم لك ما تشتهي لها من بقاء على حالها . حينئذ تكون ألفاظاً «مجمّدة» في المعاجم، كالنقود المجمدة في المصارف – لا عمل لها، ولا خير فيها . وان كنت لا استطيع ان أحقق لك ذلك بالفعل لأبرهن لك على صحة مُدّعاي ، فاني مستطيع ان آتيك بالشواهد من التاريخ . فها هي لُغَى الفراعين والبابليين والفنيقيين لما اندثر أهلها وبطل استعمالها سلمت من كل تطور وتبديل ، فأصبحت ألفاظاً

مجمدة في الطروس والاحجار ، لا تعني شيئاً الا عند المنقبين ، كالاموال المخبأة في الخزائن لا تعني شيئاً الا عند المفتشين والحاسبين .

وهل من شك في ان هذه اللغات لو قـُدّر لأهلها ان يعودوا الى الحياة لعادت لغاتهم سيرَتَها الاولى من التطور ؟

ان هذا موضوع يطول ، ولعلي سأعود اليه فأعالجه في مجال خاص لما له من خطورة ، ولا سيما في عهدنا هذا الذي نحاول فيه ان نجري مع العصر الذي يطير كالسحاب ونحن ندبُّ كالنـّمَال مثقلين بأنواع شتى من القيود ، ومنهـــا قيود اللغة .

وما أنا من الداعين الى التفريط في اللغة والجنوح الى كل مهلهل ركيك من الاساليب ، ولكني أومن بسنـّة التطور ، وأتخذ من اللغة خادماً للافصاح عن أفكاري لا سيداً تخدمه أفكاري .. وأعدُّها واسطة للتعلم ، لا علماً مقدساً قائماً بنفسه كعلم اللاهوت تعوم فيه الافهام أبداً ولا تنتهي الى ساحل. ولئن كنت قد أطلتُ عليك في هذا فلأني أخشى عليك ان تغلبك اللغة على أمرك فتظل قابضاً عليها كالجوهرة فتفلت من يدك جوهرة الفكر والادب .

ولنعد الى (التنبـُّؤ) . ان (النبوّة) مشتقة من النبأ، ولا عكس . فالنبأ هو الاصل ، والنبوّة فرع . ولا نخرج على قواعد العربية اذا نحن اشتققنا من هذا الاصل فرعاً آخر هو الإنباء بالغيب او المستقبل . ولقد خرج الفرع الاول عن أصله قليلاً حين حذفت همزته فقيل (نبيّ) واندثرت (نبيء) . ألا ترى ان (النبوأة) ما زالت تعني التكهن (او الكهن اذا شئت ، وهي مهجورة) في حين ان النبوّة تعني وحي السماء ؟ فلم لا نجري مع القيـــاس فنقول عمن يدعي النبوة (تنبـّى تنبـّياً) بحذف الهمزة ونقصر (تنبأ تنبـُّؤاً) على من تكهن بالغيب؟ ولمَ نقبل النبوأة بمعنى الإنباء بالغيب ولا نقبل الاشتقاق منهـــا كأنما هي كلمة جامدة لا تصريف لها ؟

وان كان ابوك المفضال لا يرضى بهذا ، فلنقلب المسألة على وجه آخر . إن التنبّؤ بمعنى ادعاء النبوة مصدر فعلٍ لازم لا يتعدى الى غيره ، والتنبُّؤ بمعنى الإنباء متعدٍّ بالباء . فان قلنا (تنبأ فلان) كان المعنى انه ادعى النبوة ، وان قلنا (تنبأ بالأمر) كان المعنى : أخبَرَ به . فالفرق بيّنٌ بين التنبُّؤَين . وان للباء وأمثالها من الحروف في العربية لأفاعيل . . .

واذا اردتني ان اصارحك بما في نفسي قلت غير متردد انني لا احفل هذه التأويلات كلها . فما دام ابناء هذا الجيل ، وفيهم كبار الكتّاب ، يستعملون (التنبؤ) بهذا المعنى فاني أبيح لنفسي استعمالها مثلهم ولا أبالي بعد ذلك بما كان يقول الشنفَرَى ، او يزعم بدوي جاهل يستشهد به سيبويه .

وان قلت لي ان كبار الكتّاب هؤلاء يخطئون قلت لك ان هذا حجة لي ، لا عليّ . فما دام اللغويون يخطّئون الكسائيّ والمتنبيَ وامثالهما من جهابذة اللغة فاني لا آمل ان اعرف من العربية اكثر مما عرف هذان الجهبذان منها ... ولا يسمح لي عصري الذي اعيش فيه ان اطرّح سائر فروع المعرفة لأفني حياتي في تعلم لغة لم يستطع احد أن يتعلمها .. كاللاهوت !

ولو فرضنا المستحيل وتعلمتُها لما أجدتْني فتيلا بل لضرّتني أيّما ضرر . لانني ما قرأت كلاماً للغويٍ فيه طلاوة او فنّ ! وانما هي الفاظ فصيحة في عبارات صحيحة في اسلوب غث فاتر لا طعم فيه . وان تراثاً قيماً خلّفه المتنبي لأنفع للعربية وأدبها من كل معرفة باللغة ظفر بها الذين خطّؤُوه .

فحذار يا صديقي من التورط في تقدير اللغة فوق قدرها . وحذار ان تتوهم انك تخدم اللغة بتجميدها .. حذار .

واما الامر الثاني الذي ناقشتني فيه وهو بكاء السمرقندي على ضريح الخيام

فأمر ليس بذي خطر . فان قولي : « .. على شريطة ألا يكون بكاؤه من باب الخشوع لتوهمه حدوث المعجزة » [1] يدلك على اني لم اجزم بأن سبب بكائه كان توهمه حدوث المعجزة ، ولا يهمني الآن ان اجزم فيه وان كنت لا أزال ارى ان القول بأن العروضي السمرقندي قد استشفّ التجديف من كلام الخيام بعيد عن صدد بحثنا [2] ، ولم تؤيده رواية احد لان الخبر لم يورده غير السمرقندي وهو لم ينوّه بتجديف . ولكن الامر المهم ، الذي يــدور عليه الحديث هو أن السمرقندي حمل كلمة الخيام محمل الخبر وانا احملها محمل الإنشاء .

ولكني وجدت في رسالتك اشياء ارجو ان تلتفت اليها وتقلع عنها في المستقبل . منها قولك : « ولماذا وُضعتْ اذن الفاظ الذكاء ، وبعد النظر ، وصدق الفراسة ، ودقة التعبير ، والاستنباط الخ ... فكيف عمر الخيام ... الفلكي العظيم ... الخ » .

فاسمح لي ان استغرب منك هذا الكلام كثيراً .. لاني لم اسمع بعد ان الذكاء وبعد النظر وصدق الفراسة .. اعانت احداً على التنبؤ بانه سيدفن في « مكان تنثر الشمال فيه الزهر على ثراه » . فإيّاك ان تسوق مثل هذا البرهان الواهن اذا انت ناقشت غيري ، فانه خيط ينبتُ بيدك قبل خيط العنكبوت..

---

١ – « ثورة الخيام » – ص ٩٧ : ط ١ . (ص ١٣٢ : ط ٢) .

٢ – ذكر العروضي السمرقندي في كتابه « جهار مقاله » انه سمع الخيام يقول : « يكون قبري في موضع تنثر الشمال عليّ فيه الزهر كل ربيع » وقد ترجمها المترجمون : « سيكون قبري في موضع .. الخ » . لكننا رأينا ان الترجمة الصحيحة حسب مقتضى قواعد اللغــة الفارسية نفسها : « فليكن قبري .. » . وقال السمرقندي معقباً على كلمة الخيام هذه : « فبدا لي كلامه هذا محالاً وعلمت ان مثله لا يقول جزافاً » .. ويرى السيد اسامة الذي نجيب هنا على رسالته ان السمرقندي رأى في قول الخيام تجديفاً فقال من اجل ذلك : ان مثل الخيام لا يقول جزافاً . وقد روينا الحكاية مع تعليلها في « ثورة الخيام » الآنف الذكر ، ص ٩١ – ط ١ (ص ١٢٦ – ط ٢) .

وعندها ياخذ خصمك بخناقك أخذةً لا تقل من بعدها . واما انا فلا بأس عليك مني ، لأني صديق احب لك الخير .

ومنها هذه المترادفات الكثيرة في عبارتك الاخيرة هذه ، فحبذا لو اكتفيت منها بواحدة او اثنتين . قد اكون مخطئاً، ولكني لا احب الاكثار من المترادفات عند القراءة ولا عند الكتابة . ويسرني لو قبلتها نصيحة من اخيك فاقتصدت في استعمالها . وان تكن ثروتك منها طائلة فاستعمل أنسب واحدة منها في انسب مكان لها ، ودع الباقي في « خزانة التوفير » تصرفه عند الحاجة . وسل أباك الفاضل ، فاني أتوقع أن يؤيد لك ذلك .

ترى ، هل اقتنعتَ بما اوردتُ لك من رأي ؟ ان كنت لا توافقني فيما ذهبت اليه فأرجو ان تحتفظ بهذه الرسالة عندك تتصفحها مرة كل عام او عامين، عسى ان تغيّر رأيك ذات يوم . واما إن كنت اقتنعت برأيي فذلك ما احب لك .. وعندها تكون رسالتي هذه قد أدّت رسالتها ، ولا داعي لبقائها . فمزقها وألقها في مهب الريح ...

القاهرة : ١٩٥٢/٣/٢١ .

التطور الحي

في اللغـــة العربيـــة

١ – آثار حيوانية

في اللغـــة

حين أقلّب النظر في المعجم لا أتخيله مقبرة لألفاظ ميتة او متحفاً لأنصاب منحوتة جامدة .. وانما هو عندي غابة ، او حَيْر (وزان طـــير = حديقة حيوان) يعجّ بالمخلوقات الحية ، تضطرب فيه وتتصارع ، وتتوالد وتنمو ، وتتطور ، وقد تموت . والميت منها محفوظ على هيأته الطبيعية متحجراً او محنّطاً ، ومعه أحياناً فذلكة من سيرة حياته وفعالياته — في متحف التاريخ الطبيعي الذي تجده في بعض الحيور . وبعضها مندثر لم يبقَ منه إلا أثارة تدل على ماض من سيرة وفعاليات .

وكثيراً ما يطيب لي ان أزور الحـــير في بعض البلدان أراقب حيواناته الكثيرة المختلفة ، وأقضي برهة في متحفه للتاريخ الطبيعي ، كما يطيب لي أن أراقب المفردات اللغوية في المعجم أدرس تطورها في حياتها ، وتنقّلها من معنىً الى معنى ، وارتفاع مكانتها الاجتماعية الى العلى حيناً ، وسفولها الى الحضيض حيناً ، وموتها واندراسها حيناً . وسأعرض للقارىء الكريم في هذا الفصل طرفاً من بعض ما رأيت .

إن كنتَ قد دخلت دار فلاح يعيش مع بهائمه تحت سقف واحد فقد لحظت أشياء منها الرائحة الحيوانية التي لا تطيب لك . لكن الفلاح نفسه ، صاحب البيت .. لا يكرهها ، ولا يلحظها ، لأنه نشأ عليها وألِفها مع الزمن . بل انه ليفتقدها اذا فارقها أمداً ويشتهيها .

فذلك شأن « الآثار الحيوانية » في لغتنـــا العربية . فان أجدادنا الذين خلـّفوا لنا هذه اللغة الرائعة كانوا قوماً بداةً خالطوا الناقة والفرس والشاة كما نخالط نحن اليوم السيارة والمذياع والثلاجة والمكنسة الكهربائية وغيرها من البهائم العصرية . ونحن بين حيواناتنا الآلية هذه نتوهم اننا بمنجاة من معايشة الحيوانات الطبيعية تلك ، لأننا لا نجدها تساكننا في بيوتنا ولا نشم رائحتها من حولنا .

اننا لا نعيش مع حيواناتنا الطبيعية حقـّاً لكننا نعيش مـــع حيوانات أجدادنا . بل اننا لا نشعر الى اي حـــدٍّ تعايشنا تلك البهائم والدواب ، وتخالطنا، وتتنفس معنا ، وتتغلغل في صميم حياتنا العقلية والفنية والاجتماعية — عن طريق اللغة . ولا بد ان الاعاجم الذين يتعلمون لغتنا يلحظون ما لا نلحظ من كل ذلك ، لأننا نحن قد ألِفنا من طفولتنا كل ذلك .

على ان بعض مفردات اللغة قد ابتعدت كثيراً عن أصلها الحيواني وبدّلت زيّها فلا يكاد يميزها حتى الغريب .

وسأذكر فيما يلي طائفة من المفردات الحيوانية في لغتنا — على سبيل المثال لا الحصر — مبتدئاً بالبسيط القريب المأخذ الصريح الدلالة ، ومتـــدرجاً الى المعقـّد الذي لا يتأتى ردّه الى أصله ومتابعته في تطوره الا بشيء من الرويّة وإعمال الفكر .

والذي اعتمدت عليه في هذا البحث هو أن للكثير من الألفاظ العربية معاني مختلفة حاولت ان أرتبها ترتيباً زمنياً ، اي بحسب تاريخ نشوئها ، وان أعلل كيفية نشوئها وتطورها ، مستعيناً على ذلك بالاستنتاج وقرائن الحال .

وسيرى القارىء ان لبعض المفردات اللغوية قيمة آثارية كبيرة تساعدنا على تعرف بعض احوال العرب الغابرين وتفهّم شؤونهم المعاشية والاقتصادية والاجتماعية ، مما أفلت من ذاكرة التاريخ . وهذا يجعل هذه الالفاظ أشبه باللـُّقى التي يحتفرها المنقبون ويستنطقونها . وسيرى ان بعض الالفاظ القاموسية

أنطق من بعض اللقى الآثارية ، وأن المنقبين الآثاريين ربما كانوا أجدر بالاهتمام بها من الباحثين اللغويين .

النّير (وزان العيد) :

يقال نير الذل ، ونير العبودية ، ونير الاستعمار . وقلّ من القراء من يعرف ما عسى ان يكون هـــذا النير الذي اقترن بكل معنى مكروه . انه الخشبة المنحنية التي توضع على رقبة الثور حين يشدّونه الى محراث او عجلة . فالتشبيه كما ترى مناسب تماماً .

الكَرّة (وزان الجرّة) :

يقال أعاد عليه الكرة ، اي راجعه ثانية . وأصلها من رجعة الحصان في المبارزة بعد فراره . ومنه قيل (الكَرّ والفَرّ) اي الهجوم والهرب . ومنه قول امرىء القيس في جواده يصفه بالمرونة والقدرة على المزاوغة (المناورة) :

مِكَرٍّ مِفَرٍّ ، مقبـــلٍ مدبرٍ معاً كجلمود صخرٍ حطّه السيلُ من علِ !

ويُروى عن عليّ بن أبي طالب — عليه التحية — انهم سألوه في احـــدى الحروب ان يعطوه جواداً كريماً بدلاً من بغلته فقال لهم : « أنا لا أكرّ على من فرّ ، ولا أفرّ ممن كرّ ، فبغلتي تكفيني ! » .

يحدوه الى الأمر :

نقولها بمعنى يدفعه او يحفزه اليه . وما اكثر ما قيل يحدوني الامل .. وأصل الكلمة من (الحُداء) — وزان الفؤاد — وهو غناء الراعي (الجمّال) حين يستحث إبله على السير . ثم قالتها العرب بمعنى الحث للانسان ايضاً . وما

أكثر ما استعاروا للانسان من صفات الحيوان ولا سيما الابل والخيل . وقد قال الشاعر راثياً يخاطب الفقيد :

ماذا حدا بك فاعتزمت رحيلا ؟

قصب السبق :

يقال « فلان أحرز قصب السبق بين اقرانه » اي فاقهم . والأصل ان العرب كانوا يعيّنون لشوط سباق الخيل نهاية بعيدة لا تُرى من مكان الانطلاق، وكانوا يركزون في تلك النهاية قصبة خاصة ، فاذا انطلقت الخيل بالمتسابقين وقف المشاهدون ينتظرون حتى تغيب الخيل عن العيان ، فمن سبق اقتلع القصبة وعاد بها ليعرفوا انه السابق .

وصرنا نقول اليوم : أحرز قصب السبق في الكيمياء مثلاً او الشعر ، او الانتخابات .. وليس هناك سباق ولا قصب .

الشكيمة (وِزان العزيمة) :

يقال: فلان « قوي الشكيمة » اي صعب المراس لا ينقاد – تشبيهاً له بالدابة التي تتأبى على الشكيمة فلا يسلس قيادها .

والشكيمة هي الحديدة في اللجام تعترض فم الحيوان . وما سمعت ان احداً غضب لتشبيهه بالدابة المتأبية على هذا النحو ، وانما العادة ان يُزْهَى الرجل اذا وُصِف بقوة الشكيمة ، لأنها من صفات المديح للانسان ، وان كانت في الحقيقة من عيوب الخيل .

الكبح (وِزان الذبح) :

يقال : « كبحت جماحه »، اي صددت اندفاعه ووقفته عند حده . وأصل استعمال الكلمة للفرس الجموح حين يسيطر عليه راكبه باللجام فيقلل من سرعته

او يقف ركضه . فاذا خطر لك أن تقول ذلك عن شخص بعد الآن فلا تذكـّره بالخيل ، لأن جماح الفرس لا يكبحه الا راكبه ، وأنت لم تقصد ان الشخص المـَعْنِيّ يصلح للركوب ، او انه لا يصلح للركوب الا باللجام .

وقد اختارت المجامـــع اللغوية كلمة (المِكْبَح) بمعنى (فرام) الفرنسية و (بريك) الانكليزية ، وهي الآلة التي بها تكبح سرعة السيارة او يوقف سيرها .

الزّمام (وِزان النظام) :

يقال « زمام الامور » ، اي مقاليدها . وجمع الزمام الأزمّة (وِزان الأحبة) .

أصل (الزَّمّ) ربط فم القربة او الكيس . ومنه قالوا (زم الرجل شفتيه) بمعنى ضمها وجمعها . ثم انتقل المعنى من ربط الفم — فم القربة ثم الانسان — الى ربط الأنف حيث قالوا (زمّوا البعيرَ) بمعنى ربطوه من أنفه ليسهل قياده، وسُمّيَ الحبل الذي يقاد به (الزمام) . وقد قال امرؤ القيس يروي لنا ما جرى له مع « احداهن » حين كان ممتطياً معها سنام بعيرها :

تقول وقـــد مال الغَبِيط بنا معاً
عقرتَ بعيري يا امرأ القيس ، فانزلِ
فقلت لهـــا : سيري وأرخي زمامه
ولا تبعديني عن جنـــاك المعللِ ! ..

وقد استعير الزمام للمعنويات كما رأينا ، فقيل : أخـــذ بزمام الحديث ، وتقلـّدوا أزمّة الأمور ، وصرّفوا أزمّة السياسة ..

العِنان (وزان الزمام) :

يقال : « أطلق لغضبه العِنان » ، والمعنى معروف . والعِنان رَسَن الدابة،

أو هو سَيْر لجامها . وقبيل بدء السباق مثلاً يكبح الراكب جماح فرسه المتحفز بسحب عنانه ، فاذا أُعطِيَتْ اشارة الانطلاق أرخى الراكب له العنان فيندفع يسابق الريح ، او يسابق الأفراس الأخرى على الأصح .

ومعلوم انه لا يطلق او يرخي عنان الدابة إلا راكبها ، كما هي الحال في كبح جماحها . فاذا أحببت ان تستعير هذا التعبير لشخص فالأفضل ان تدعو الله ألا يفطن لأصل المعنى !

وقديماً استعارت العرب العنان لمعانٍ أخرى ، فقالوا (طويل العنان) اي السَرِيُّ الشريف . وقالوا « هما يجريان في عنان » بمعنى انهما صنوان في المكرمة . وما زلنا نستعمل (الأعنّة) بمعنى الأزمّة للأمور والسياسة .

الحبل والغارب :

يقال : « ألقى حبله على غاربه » ، أي تركه يفعل ما يشاء . والغارب هو الكاهل . فاذا أريد تسريح الدابة لأمرٍ ما أُلقِيَ رسنها على كاهلها لكيلا يعوقها في السير ، فتسرح وترعى على رِسلها . فأصل المراد بإلقاء حبل الرجل على غاربه هو تشبيهه بالدابة المسرّحة .

المضمار (وِزان المسمار) :

هو الميدان والمجال . يقال : فلان « لا نظير له في هذا المضمار » . ويقال : مضمار العلم ، ومضمار الادب ، وغير ذلك .

و (المضمار) في الاصل ميدان الخيل . ومعلوم ان من أشرف صفات الخيل (الضُّمُور) ، فكانوا من أجل ذلك (يضمّرون) أفراسهم بالترويض ، أي يركضونها . وقد سموا الارض البراح التي يضمّرون الخيل فيها (المضمار) ، ثم أطلقوا المضمار على كل مكان تركض فيه الخيل ، لغرض الترويض او لأي غرض آخر ، ثم استعاروا الكلمة للمعنويات .

المجال (وزان المنام) :

هو الفسحة والمكان . يقال : « **لا مجال للمناقشة فيه** » ، اي لا متّسع لها . وصار يقال : **المجالات العلمية** ، **والمجال الحيوي** وما الى ذلك .

أصلها من (**الجَوْل**) — وزان القول — وهو الجماعة من الأنعام والخيل ، ثم أصبح بالخيل أخصّ . وبسبب كثرة (**جَوَلان**) الخيل بالقياس الى غيرها من الحيوان انتقل معنى (الجَوَلان) الى **المكان** الذي (تجول) فيه الخيل ، وهو الميدان او المضمار .

ويقال : (**يصول ويجول**) لاقتران (الصَوْل) وهو الهجوم على القِرْن المبارز ، بالجول اي (المجاولة) من كرّ وفرّ ، حتى يتمكّن أحد المتبارزَيْن من قريعه .

والغريب ان (**الجَوْل**) ما زالت تعني لدى أهل الموصل : الجماعة من الماشية ، اي قطعان البلدة او القرية تخرج الى مرعى واحد .

الغبار (وزان الفؤاد) :

يقال : شاعر « **لا يُشَقّ له غبار** » ، اي قدير لا يجارَى ، او لا يُبارَى . والمجاراة من الجري ، والمباراة من بَرْيِ السهام .. والمعنى انه لا يُسابَق في الجري او بري السهام .

والمقصود من (شقّ الغبار) تشبيه الممدوح بالفرس السريع يثير عنـــد ركضه غباراً يبلغ من كثرته وكثافته ان يعجز سواه عن أن يشقه ليلحق به . فيا له من شاعر !

الغُرّة (وزان الدُرّة) :

يقال : « **يوم أغَرّ** » اي حافل او مبارك . وأصل (**الغُرّة**) بياض في

جبهة الفرس ، ثم استعيرت لمطلع كل شيء . وقد كادت الكلمة تختص في عصرنا هذا بالصحف ، فقالوا : الجريدة الغراء والمجلة الغراء .

وقالت العرب : فلان «غرّة القوم» بمعنى شريفهم . وقالوا : غرة الشهر ، بمعنى الليالي الثلاث الاولى منه . وما زال كُتّاب يقولون : « ان هذا اليوم غرة في جبين الدهر » .. تشبيهاً للدهر بالفرس الآنف ذكره .

النتيجة :

المفهوم الشائع من (النتيجة) أنها العاقبة او الخاتمة او الحاصل . ومنها (الاستنتاج) بمعنى استنباط النتيجة من المقدمة او استخراج المجهـــول من المعلوم . و (المقدمة والنتيجة) من مصطلحات المنطق ، ومعناهما معروف . وقد صاغ المحدثون كلمة (الانتاج) فقالوا : الانتاج الفني ، او العلمي ، او الصناعي .. كما قالوا : انتاج الاديب ، او العامل . كذلك قالوا : النتـــاج والمنتجات والمنتوجات .

أصل معنى (الناتج) عند العرب هو مولـّد البهيمة ، اي ان الناتج من البهيمة كالقابلة من المرأة . و (النتيجة) هي الولد الذي تلده البهيمة . امـــا البهيمة المولـّدة الوالدة نفسها فكانوا يسمونها (المنتوجة) . وأما (النِتاج) فهو حملها ، قبل الولادة او بعدها .

الحَلْبة (وزان الوثبة) :

هي بفتح الحاء ، والاكثرون ينطقونها بضمّها غلطاً . وهي تعني الباحة والساحة ، مثل: حَلْبة المسرح ، وحلبة الملاكمة ، وحلبة المباراة . ويقال من باب المجاز : حلبة السياسة ، وحلبة الجد ، وحلبة الادب .

أصل (الحَلْبة) هو المرة الواحدة من (حَلَب) الشاة او النـــاقة . والظاهر ان العرب ما فتئوا يستعملونها بهذا المعنى حتى استعاروها بعد ذلك

لأمور أخرى من حياتهم البدوية بمعنى الوجبة الواحدة او الشوط الواحد ، من كل شيء . ومن ثم استعملوا كلمة الحلبة بمعنى « الدفعة او الركضة الواحدة من الخيل في الرهان خاصة » .

وقالوا للذمّ : فلان يركض في كل حلبة ، اي يحشر نفسه في كل مقام ، او للمدح : انه يجري في كل حلبة من حَلَبات المجد .

ومن كثرة استعمالها بمعنى الركضة الواحدة من الخيل استقرّ في أفهام الاجيال اللاحقة ان الحَلْبة هي المكان الذي تجري فيه الخيل ، فصارت تعني الميدان ، شأنها في ذلك شأن المجال والمضمار .

اما (الحُلبة) – وزان الهدنة ، بضم الحاء – فهي الحَبّ المعروف .

الدَّرّ (وزان الشر) :

يقال : هـذا مشروع يدرّ أرباحاً طائلة . ويقال : انه يستدرّ عطف حبيبته .. والمعنى معروف . وأصـل الكلمة من (دَرّ اللبن) اي كثرته وغزارته . وقديماً قالوا من باب الاعجاب (لله درّه) اي مـا أحسن لبنه ! والظاهر انهم يقصدون اللبن الذي ارضعته إياه أمه ، لا اللبن الذي تدرّه نعاجه. وقالوا من باب الدعاء بالشر : (لا درّ درُّه) .. وقصدهم هذه المرة لـبن ماشيته ، يتمنون له انقطاع الرزق .

التسنُّم (وزان التنعُّم) :

يقال : تسنم كرسيّ الوزارة ، وتسنم ذُرَى المجد .

وأصل (التسنُّم) هو تبوُّء (سنام البعير) ، اي ركوبه . وقد شبهوا المجد والوزارة وأمثالها من مقامات العُلى بالأباعر المعنوية يمتطون سنامها .

الرُّمّة (وزان الأمّة) :

يقال أخذ الشيء برُمته ، وقرأ الكتاب برمته ، اي بأجمعه . و (الرُّمّة)

هي القطعة من الحبل البالي . وأحسب أصل المعنى كان قولهم (أخــذ الدابة برمتها) او (باعها برمتها) – اي مع حبلها الذي كانت مربوطة به . وواضح ان المقصود ذم الدابة والزراية بها لان الحبل البالي لا تُربط به كرائم الدواب .

وصرنا نقول اليوم : (وافق اعضاء اللجنة على الاقتراح برمتهم) دون ان نقصد أنهم مربوطون بحبلٍ بالٍ او جديد ، او يخطر لنا ان للأمر علاقة بالحبال او الدواب أصلاً .

النهل (وزان السهل) :

هو السقية الاولى للابل ، فاذا سقوها ثانية فذلك العَلَل (وزان الطلل) .

والدنيا حظوظ ، فقد بقيت (العَلَل) تعني الشرب والسقي وان كانت قد ارتقت من شرب الابل الماءَ الى شرب الندامى الراح . أما (النهل) فقــد ارتفع شأنها فصار أبناؤنا (ينهلون) من أفاويق العلم ، وأحياناً من ينابيع الغرام . وصارت المدارس (مناهل) العلم والادب . ولولا الحظ ما رأينا مثل هذا التفاوت المجحف بين السقية الاولى والسقية الثانية .

المرحلة (وزان المكتبة) :

هي الفترة او الطبقة او الدرجة .. كالمرحلة التاريخية ، والمرحلة الحضارية، والمرحلة التطورية ، والفكرية . وأصل (المرحلة) عند العرب المسافة يقطعها المسافر في يوم . وهي مشتقة من (الرَّحْل) – وزان الفحل – وهو ما يوضع كالسَّرج على البعير ، وجمعه الرِّحال – وزان البغال .

وقالوا: فلان (يَرْحَل) البعيرَ – وزان يرحمه – بمعنى يشدّ عليه الرَّحْل. ولما كان (شَدُّ الرَّحْل) يعني التهيُّؤ للسفر ، فقد صار بمرور الزمن يعني السفر نفسه ، فقيل (رَحَلوا) بمعنى : سافروا . ومـــا زلنا نقول (شَدَّ الرحال) بمعنى سافر ، مع ان الرحال وشدّها لم يعد لها وجود في بيئتنا .

واشتقوا **الرحيل** ، **الارتحال** ، **الترحال** ، **الترحُّل** .. بمعنى السفر والنُّقْلة .

و (**الرَحّال**) – وزان الطيّار : صانع الرِحال ، أو المترحّل الكثير التنقل .

الاحتلال والحلول (وِزان النزول) :

يقال : **احتلّ الرجلُ المكانَ** ، بمعنى أقام فيه وشغَلَه . وكانت العرب تقول قديماً : (احتل الرجل بالمكان) ايضاً بنفس المعنى . وكلمة (**الاحتلال**) كانت تطلق في العراق على (**الاحتلال البريطاني**) ، وما زال تعبير (**عهد الاحتلال**) يكفي للدلالة على ذلك العهد .

وقالت العرب : (حَلُّوا المكان ، او : حلُّوا فيه) بمعنى نزلوه او نزلوا فيه . وأصل المعنى من (**حلّ الرِحال**) عن الابل عند التوقف عن السفر . وواضح ان (حلّ الرحال) عند النزول نقيض (شد الرحال) **تأهباً** للسير .

و (**المحَلّ**) هو المكان بوجه عام ، وأصله مكان (**مَحلّ الرحال**) ، اي مكان نزول المسافر ، وهي ضد (**المرتَحَل**) – بفتح الحاء .

و (**الحلَّة**) – بفتح الحاء او كسرها – هي (**المحلّة**) اي مجتمع الناس ، والاصل هو المكان (**يحلّ**) فيه الناس . ومن ذلـــك اسم بلدة (**الحلّة**) في العراق . وقد اشتق العرب كذلك (**الحليل والحليلة**) بمعنى الزوج والزوجة ، وأصل معنى (**الحليل**) مَنْ يحل معك في دار ، شبه قولك الجليس بمعنى من يجلس معك .

وقد صيغ (**الحُلول**) من الفعل (حلّ) بمعنى الاقامة . ومنه (**حلول الروح**) في الجسم مثلاً بمعنى وجودها او نزولها فيه . ومنها (**حلّت البركة**) يقولها العراقيون بمعنى الترحيب او تلبية الطلب بسرور ، كمثل قول العرب « ونـَعَام عين »، ومنها ايضاً (**مذهب الحلول**) الصوفي بمعنى وجود ذات الله في كل شيء .

ولو كان التطور اللغوي يجري على قياس لقيل (الشّدّ ، والاشتداد ، والشُدُود) بمعنى (شدّ الرحال) كما قيل (الحَل والاحتلال والحلول) بمعنى (حلّ الرحال) ، ولكنهما الحظ والمصادفة لهما شأنهما في تقرير مصائر الالفاظ والناس .

الغنيمة (وزان الحبيبة) :

هي الكسب بلا مقابل . وكانت تطلق على المنهوب في غارة او قتال ، وما زلنا نقول (غنائم الحرب) جرياً على المذهب البدوي في حق المنتصر في النهب .

ومنها (الغُنْم) – وزان البؤس ، و (المَغْنم) – وزان المطعم . و (غنِمت الشيءَ) فزت به . و (اغتنمت الامرَ) انتهزته ومن ذلك (اغتنام الفرصة) .

وأظن هذا كله من (الغَنَم) – وزان العمل ، فقديماً قالت العرب : (تغنّم) بمعنى اتخذ لنفسه غَنَماً ، مثلما قالت (تأبّل) بمعنى اتخذ إبلاً . كذلك قالوا : (تغنّم) بمعنى انتهز وافترص ، ومثلها : اغتنم واستغنم .

ويبدو ان الغنم كانت أكثر شيء تعرضاً للنهب ، او بالاحرى أسهل شيء على اللص ان ينهبه ، فما يخلو أعرابي او أعرابية من شاة ، على حين ان الابل مثلاً او الخيل لا يملكها إلا ذو ثراء .

وما دامت (الغنائم) في الاصل هي المنهوبات فالظاهر انهم قالوا أول الامر ان فلاناً – اللصّ – ذهب يتغنّم ، او يغتنم ، او يستغنم .. بمعنى يتصيّد الغنم ، اي يسرقها . فلما ثبت هذا المعنى صاروا يطلقون (الاغتنام) على كل نهب ولو كان فيه ابل او غير ذلك من نَعَمٍ ومتاع ، او لم يكن فيه غَنَم أصلاً . حتى لقد صرنا (نغتنم الفرص) اليوم دون ان يخطر لنا اننا بذلك نتهم أنفسنا بسرقة الغنم .

الرّعاية (وزان الحماية) :

يراد بها العناية غالباً والحفظ او الحرمة أحياناً. ومن ذلك (**رعاية الاطفال**) اي العناية بهم و (**رعاية العهود**) اي حفظها ، و (**رعاية القوانين** ، او **مراعاتها**) اي احترامها والالتزام بأحكامها . ويقال : أقيمت الحفلة (**تحت** رعاية) فلان ، والاصح : **برعايته** . كذلك اشتقوا من هذه المادة (**استرعى نظره**) اي استلفته . و (**الرعيّة**) – وزان القضية : كل شيء مَرْعِيّ – بصيغة اسم المفعول . و (**الرعيّة**) من البشر تعني المواطن او المواطنين ، وكانت تطلق على المفرد والجمع ، لكن المتأخرين جمعوها على (**رعايا**) .

والاصل هو (**الرعي**) اي سياسة الماشية وأخذها الى (المرعَى) والمحافظة عليها . والعرب أمة بداوة تقوم معيشتها على الماشية فلا جَرَم ان يكون للرعي عندها شأن في حياتها . ومن أهميته عندهم وما فيه من المسئولية الخطيرة وما يتطلبه من حسن القيام على شؤون الرعية .. قال الرسول يذكّرهم بمسؤولية المرء عن ذويه : « **كلكم راع ، وكل راع مسؤول عن رعيته** » .

ومن الرعي اشتُقت (**المراعاة**) بمعنى المراقبة ، لان الراعي يراقب ماشيته حماية لها من الاخطار . فالرعي يقوم على ركنين : المراقبة والحماية . ثم ضَعُف معنى المراقبة في بعض التعابير مثل (**رعي الذّمام**) فالمقصود هنا هو الحفاظ بالدرجة الاولى لا المراقبة . وانعدم معنى الحماية في تعابير أخرى مثل قول الشعراء المدلّهين انهم (**يرعون النجوم**) فالمقصود هنا المراقبة ، لا الحماية ..

الفقرة (وِزان الشعرة) :

هي العبارة او الجملة من الكلام . واذا كان الكلام مؤلفاً من أجزاء مرقّمة سُمّيَ كل منها فقرة ، فيقال : (**الفقرة الثالثة**) من الموضوع . وكثيراً ما تقسم المادة من القانون او المعاهدة فقرات : (**الفقرة ب**) من المادة الخامسة مثلاً .

وأصل (**الفقرة**) عظم خرزة الظهر من (**العمود الفقري**) . وكان العرب يطلقون (**الفقرة**) على أجود بيت في القصيدة . وأحسبهم كانوا اول أمرهم يسمون كل بيت من القصيدة فقرة ، لان القصيدة تتألف من الابيات كما يتألف صلب الظهر من الفقرات ، ثم خصّوا الفقرة بأجود بيت . ثم انهم أطلقوها على المختار من كل كلام . وصارت في عهدنا تطلق على نبذة ما من كل كلام ، سواء أكانت أحسنه أم أسوأه .

و (**الفاقرة**) هي الداهية الشديدة ، كأنها تقصم فقرات الظهر ، ولعل أصل (**الفقير**) هو المفقور اي الذي اصابته فاقرة سلبته ما يملك ، فكأنما كسرت فقرات ظهره .

المَتْن (وزان البطن) :

هو النصّ من الكلام ، اي ما يبقى من الكتاب اذا حذفت الحواشي والشروح .

وأصل (المتن) من الحيوان : ظهره . واشتقت العرب فعل (مَتُنَ يمتُن) – من باب كَرُم يكرُم – بمعنى (صَلُبَ) اي صار قوياً كفقار المتن . ويبدو أن منشأ هذا هو ان الظهر أصلب شيء تمسّه اليد من جسم الشاة عند جسّها لمعرفة سمنها من هزالها ، فاتخذوه مثالاً للشدة والقوة . يدل على هذا اشتقاقهم الصلابة من (الصُّلب) – وزان البؤس – وهو الظهر ايضاً .

وبعد أن رسخ معنى القوة والشدة للمتن اشتقوا منه (**المتانة**) فقالوا : حبل متين ، وثوب متين ، ورأي متين . وقال المحدثون : خُلُق متين ، ايضاً .

وللظهر صفة أخرى غير الصلابة هي تحدُّب شكله ونتوؤه ، وقد سمّت العرب ما ارتفع من الارض (متن الارض) . و (**المتنة**) ما صَلُبَ من الارض وارتفع . و (المتن) جبل مشهور بلبنان ، وفيه قرية (**مُتَينة**) – بصيغة التصغير – سُمّيت على اسمه كما سميت (جُبَيل) بلبنان ايضاً على اسم (الجبل) الذي تقع على سفحه . وربما كان من هذا فعل mount بالانكليزية و monter

بالفرنسية بمعنى الركوب او التركيب ، اي اعتلاء المتن كما أن الامتطاء يعني تبوّء ظهر المطية والتسنم اعتلاء السنام . ومن المَتْن والمُتَيْن – بصيغة التصغير – فيما يخيّل لي جـاء اسم (ماونتين – mountain) بالانكليزية ، و (مونتاين – montagne) بالفرنسية ، و (montis) باللاتينية .

الفريصة (وزان الحقيقة) :

يقال ارتعدت فرائصه رعباً . والمعنى واضح ، سوى ان الكثيرين الذين يقرؤونها او يكتبونها لا يعرفون ما الفريصة . انها اللحمة بين الجنب والكتف. ويظهر ان المعنى مستعار من فريصة الفرس خاصة . والذين عاشروا الخيل لحظوا ان جلدةً في جنب الفرس ترتعد فجأة في بعض الاحيان ارتعاداً شديداً ثم تقف . وقد استعارتها العرب لرعدة الخوف لانها أبين رعدة للعين وأقواها .

الزّميل (وِزان الزئير) :

هو الرصيف ورفيق المهنة ، كما هو معروف . ومنه الزّمالة والمزاملة . ويتندر بعضهم – في العراق – فيسمُّون الزميل (الزّمال) اي الحمار بالعامية ، وما دروا ان الزميل والزمال من مادة لغوية واحدة حقاً .

وأصل الكلمة من (زَمَلَت الدابة) اي مشت مسرعة كأنها تضلع من نشاطها ، ثم صارت (الزاملة) تطلق – من باب المديح فيما يظهر – على الدابة من الابل وغيرها يُحمَل عليها . واشتقّ العرب منذ القدم (المزاملة) بين الشخصين فقالوا (تزاملا) بمعنى تعادلا على دابة واحدة ، اي ان كلاً منهما ركب على جانب من المحمل . فزميلك في الاصل من ركب معك على بعير واحد ، من الجانب الآخر .

ومن الطريف أن الحمار يدعى في الايطالية Somaro ، وهي مقتبسة من العربية – العراقية – في أكبر الظن .

و (الزَمْلة) – وزان النملة – كانت تعني عند قدامى العرب الجماعة والرفقة . وما زال أهل الموصل يستعملون (الزملة) ولكنهم لا يطلقونها على الجماعة بل على الزاد الذي تأخذه الجماعة معها الى النزهة خارج المدينة ، ويبدو انها تحريف من (الزاملة) بنفس المعنى . وقد قرأت في (الأغاني) ان أبا العتاهية كان يحمل (زاملة المخنثين) !

القِياد (وِزان العناد) :

يقال : فلان **سهل القياد** ، أو **سلس القياد** ، والمعنى واضح . وهو عكس قوي الشكيمة . ويقال : أسلم القومُ قيادهم الى رئيسهم ، أي تابعوه وطاوعوه . و (**القِياد**) و (**المِقْوَد**) – وزان المبرد : رسن الدابة (تقاد) به . وما سمعنا أن أحداً غضب إذ قيل له (سهل القياد) ، لأنه لا يخطر له انه يُشبَّه بالدابة المطاوعة .

وأصل (**القيادة**) و (**القَوْد**) وزان القول : سَوْق الدابة أخذاً بزمامها من أمام ، أما السياقة والسَّوْق فاستحثاثها من ورائها على السير . وقد سُمّي (قائد السيارة) سائقاً مع انه لا يحثها من ورائها ولا من أمامها ، وإنما هو يدبّر أمرها من داخلها . ولا أحسبه سُمّي سائقاً لأن السيارة كانت في الاصل عربة تجرها الخيل وكان هو يسوقها ، لأنه كان عندئذ يسمّى الحوذي . والظاهر أننا تابعنا الانكليز في هذه التسمية ترجمةً عن كلمة (driver) مع ان الحوذي كان في الانكليزية أيضاً له اسمه الخاص : (cabman) .

ومن (القَوْد) اشتقوا (**القيد**) يوضع في رجل الدابة أو الأسير ، ونظن أصل معناه رسناً تقاد به الدابة . ومنه (**القيد**) بمعنى السجلّ ، وهو من وضع المتأخرين . ومنه (**الانقياد**) اي المجاراة أو الاستسلام . ومنه (**القَوّاد**) الذي (يقود) الى الفاحشة .

العظيم (وزان الفظيع) :

يقولون : اذا رأوا (متعاظماً) قد ذهب بنفسه : (العظمة لله) ! ومـــا أكثر المتعاظمين ، في هذا الزمان . فهذا سياسي عظيم ، وهذا أديب عظيم ..

وقد اقتصرت بعض الصيغ على استعمالات خاصة ، فقيل : الأمير ، أو الملك (المعظَّم) . و (العَظَمة) لقب السلاطين ، فيقال : عظمة السلطان فلان . و (الامام الاعظم) يعني عند العراقيين أبا حنيفة ، ومن هنا سُمّيت (الاعظمية) وهي من ضواحي بغداد كانت في الاصل قرية قرب ضريح الإمام أبي حنيفة ، والعامة تسميها (المعظّم) ، وتبعاً لهذا سمّوا أحد أحياء بغداد (باب المعظّم) ، وهو الحيّ الذي كان فيه باب السور المفضي الى الاعظمية .

وأصل هذا كله فيما أظن هو (العَظْم) — وزان الفحم — وهـــو المادة الصلبة في جسم الحيوان . فقد قالت العرب من غابر عصورها (لحيم) بمعنى كثير اللحم ، و (شحيم) بمعنى كثير الشحم ، و (بدين) بمعنى كبير البدن . ولا بدّ انهم قالوا (عظيم) بمعنى كبير العظام في أول الأمر ، ثم تحوّل المعنى من الكبر المادي الى الكبر المعنوي ، مثل (الجليل) التي كان أصل معناها (الضخم) ثم صارت تعني المحترم . وقد ظل العرب يقولون (العظيم) بمعنى الكبير حجماً الى عهود متأخرة ، بـــل الى اليوم .. كقولهم : عظيم الجثة ، وعظيم الهامة .

الفحل (وزان الوحل) :

(فحول الرجال) هم ذوو المقدرة والتفوق منهم . وقديماً قالوا : (فحول الشعراء) بمعنى الجيدين المبدعين منهم ، ولا سيما ذوي السلاطة والاقذاع من الهجّائين. وأصل (الفحل) الذكَر من كل حيوان . وأكثر ما استعمله العرب لفحل الإبل، فاذا هم أطلقوا كلمة (الفحل) أرادوا بها البعير الذكر . والفحل الكريم أجلُّ شيء عند الاعرابي ، لهذا استعاروا الكثير من صفاته الحسنى

لكرام الرجال . وبالرغم من ان فحول الإبل مهما نَجُبت فكرُمَت صفاتها وسَمَت سجاياها لم تعرف بتفكير أو إبداع ، وإنما عرفت بقوّتها وجلادتها ، فان العرب لم يصفوا بالفحولة قادتهم وشجعانهم ، وذوي البأس والصولة فيهم ، وإنما وصفوا بها أهل الفكر والمنطق ، فلم يقولوا فحول القادة وفحول الفرسان، وفحول العدّائين والأكـّالين .. ولكن قالوا : فحول الشعراء ، وفحول الكتـّاب ، وفحول العلماء ، وفحول الفقهاء .. مع أن صفة (**الفحولة**) لم تكن من أبرز مزايا هذه الفئة من الناس ، في يوم من الايام . ولعل هذا من آيات تقديرهم لمزايا العقل وترجيحهم لها على مزايا القوة !

وقد اشتقوا من الفحولة (**الاستفحال**) فقالوا : (**استفحل الامر**) أي تفاقم فلم يُقدَر على إصلاحه ، كفحل الإبل اذا هاج فلم يُقدَر عليه .

وأما (**الفحلة**) من النساء فهي في عرف الأقدمين المرأة المسترجلة ، لا بقوّتها وجدارتها ولكن بسلاطة لسانها وسوء أدبها ، فاستفحالها في لغتهم كاستفحال الكوارث يعني التفاقم والسوء . وما زال أهل الموصل يقصدون نفس هذا المعنى إذا أطلقوا لفظة (**الفحل**) على البنت . ولكنهم لا يطلقونها على الكهلات والعجائز مهما ساء أدبهن . أما اذا أرادوا — العرب الأقدمون — وصف المرأة بالفحولة من باب المديح لبراعتها في خوض حرب أو تدبير أمر ، وصفوها بالتفحّل فقالوا انها (**تفحلت**) .

الارغاء والازباد (وزان الاحسان) :

يقال : فلان **أرْغى وأزْبد** ، أي غضب وزمجر . وهي من قولهم (رَغا البعير رغواً) او (**أرغى إرغاءاً**) أي صاح ، و (**أزبد إزباداً**) أي أخرج من شدقه (**الزَبَد**) — وزان البلد .

والذي نظنه ان (**الرغو**) كان يعني الزَبَد في قديم الاحقاب . ولما كان صياح البعير يصحبه الزبد فقد وقع في الأوهام ان القول (**أرغى البعير وأزبد**) يعني انه (**صاح وأزبد**) . وهكذا اكتسبت كلمة الارغاء معنى الصياح مع

احتفاظها بمعناها القديم اي الازباد ، ومن ذلك اننا ما زلنا نقول (رغـــوة الصابون) .

الزبدة (وزان العقدة) :

يقال : (زبدة الموضوع) أي خلاصتـــه ، و (زبدة الاصدقاء) أي صفوتهم .. وهي من الزُبْدة والزُبْد – وزان الخبزة والخبز – وأصل المعنى خلاصة اللبن أي دهنه . ومن ذلك اسم (زبيدة) زوجة الرشيد ، سماها به جدّها المنصور في طفولتها لبياض بشرتها .

وقد خلط العرب بين اسم الزَبَد (بفتحتين) والزُبْد (بالضم) لأن كلاً منهما ينجم من مخض اللبن (أي : خضّه) . يـــدل على هذا انهم استعملوا (التزبيد) لكلا المعنيين فقالوا – بتشديد الباء : (زَبَّد اللبنُ) بمعنى علـتـه الزبدة ، و (زَبَّد البعير) بمعنى أخرج من شدقه الزَبَد – بفتحتين .

الحقيبة (وزان الحبيبة) :

أول ما يخطر على البال عند سماع الكلمة (حقيبة المسافر) وهي الصندوق الذي يُودِعـــه ثيابه . ثم (حقيبة السيدات) لا تفارق أيديهن في غدوٍّ ولا رواح ، يودعنها ما لذّ وطاب من أدوات الزينة والاناقة . وكذلك حقيبـــة الطبيب والمحامي ، وغيرهم ..

و (الحـَقـَب) – وزان العصب – له أكثر من معنى . ويظهر أن أصل معانيه هو (الحزام) الذي يلي (حـَقـْوَ) البعير . ويغلب على وهمي أن (الحـَقـَب) متطور من (الحـَقـْو) لتقاربهما لفظاً ومكاناً من جسم البعـــير ولاتـّصالهما معنى . وما أكثر ما اشتقـّت العرب من أسماءٍ وصفاتٍ وأفعال من أسمـــاء الأعضاء . ولعلهم قالوا أول الأمر (حـَقـَوْت البعير) ثم أبدلوا الواو باءاً ، فنشأت صيغة (الحـَقـَب) أي الحزام الذي قلنا انه يلي (حقو)

البعير . ومن ذلك أيضاً اشتقوا (الحِقاب) — وزان النقاب — لهذا النطاق الذي تشدُّه المرأة على حَقـْوَيها تعلـّق به الحلى . وأظن حقاب المرأة هذا هو الذي أعطى الكلمة معنى الجمع والضم أيضاً ، لأنها كانت تودعه ما غلا ثمنه وصغر حجمه من أعلاقها ولوازمها عند السفر ، ومن هنا صار (الاحتقاب) يعني جمع الأشياء أو ادّخارها . ولأمرٍ ما صار (الاحتقاب) يعني الإرداف — وِزان الإحسان — أيضاً بمعنى ان يضع المرءُ الشيءَ وراء ردفه على الدابة . وربما كانت المرأة هي المسؤولة عن هذا أيضاً ، لأنها اذا أكثرت من جمع الاشياء وحشرها في حقابها الصغير حتى جاوزت الحد — وهي كثيراً ما تفعل ذلك — لم يعد في إمكانها أن تشدّ على حَقـْوَيْها هذا (الحقاب) وقد أصبح ثقيلاً ضخماً فتردفه وراء ظهرها على المطية . فاذا أنت قلت (احتقبت المتاع) كان المعنى انك جمعته أو أردفته خلفك على مطيتك ، أما إذا قالت المرأة ذلك فالأغلب انها تقصد كلا المعنيين .

ومن هنا اشتقّ العرب (الحقيبة) بمعنى ما يحمله الراكب خلفه على الفرس من زاد أو متاع . وما أبسط ذلك الزاد أو المتاع اذا قيس بما تضمّ حقائب النساء والرجال اليوم من كل طريف وغريب من مرآة وحمرة وملقط وغيرها من أسلحة الحرب — الحرب على الرجل بواسطة التجمل والتأنق في حقيبة المرأة .. أو الحرب على الخصوم والغرماء في حقيبة المحامي .. أو أدوات الفتك بالمرض أو المريض في حقيبة الطبيب .

الوارد والصادر :

يقال : أحصت عصابة اللصوص (وارداتها وصادراتها) أي أرباحها المسروقة ونفقاتها من رِشى يدفعونها الى أولي الأمر ، وما شابه ذلك . وتقوم الميزانيات — ميزانيات الدول والافراد — على معادلة الصادرات والواردات ، أي الدخل والخرج . وثمة (سجلات الواردة والصادرة) وهي الدفاتر تُدَوَّن فيها عناوين الرسائل القادمة والذاهبة ، مع أرقامها وتواريخها . واشتُقّ من

فعل الصدور والورود كذلك (التصدير والتوريد او الاستيراد)، و (المصدّر والمستورد) في عالم التجارة .

وقيل : (أوْرَد) في كلامه العبارة الفلانية ، أي أدخلها . وقال الحقوقيون : هذا اعتراض (غير وارد) بمعنى لا محل له فهو غير مقبول . وقالوا : صدرت الصحف ، او القوانين ، بمعنى ظهرت . والايرانيون يستعملون كلمة (ورود) بمعنى الدخول ، و (مَصْدَر) البضاعة ، بمعنى البلد الذي صدرت عنه . وبالمناسبة، انهم يقولون (مقصد) البضاعة بمعنى البلد الذي تؤول اليه . واحسب أننا نستطيع أن نسميه بالعربية (المآل) مقابل : destination .

واشتقّ العرب (المصادرة) بمعنى الاستيلاء على المال من قبل الحكومة ، وكان الأقدمون يعبّرون عن ذلك باستصفاء المال .

ومرجع هذا كله الى قول العرب الأقدمين (وَرَدَت الدابة الماءَ) أي ذهبت إليه للشرب .. و (صَدَرَتْ عنه) اذا انصرفت بعد الشرب . ومن ذلك قولهم : فلان يورد ولا يُصْدِر ، بمعنى أنه يحسن الولوج في الأمور ثم لا يخرج او لا يحسن الخروج منها .

ويبدو أن أصل صدور الدابة عن الماء هو (الصَدْر) كالبدر — لأن الراعي يرى صدرها وهي عائدة اليه بعد شربها الماء . لهذا وقع في أوهام الأجيال اللاحقة ان ورود الدابة يعني انها أدارت الى الراعي دبرها ، عكس صدورها إذا أقبلت عليه بصدرها . ونعتقد ان (الدُبْر) — وزان الكفر — متطورة من (الوِرْد) — كالفكر — بقلب وإبدال وتغيير حركة .

الاذالة (وزان الإقامة) :

يقال : أذال حرمته ، أي انتهكها .. و أذاله إذالةً : أهانه . ولعل منها : أذلّه إذلالاً . وهذا المعنى قد جاء فيما يظهر من (ذيل الحيوان) أي : ذَنَبه. وكان العرب يذكرون (الذيل) بمعناه الأصلي طبعاً أول الأمر ، ثم اشتقّوا

منه مع الزمن اشتقاقات . قالوا : (تذيّل الفرسُ) إذا حرّك ذنبه من فرط النشاط . وقالوا (ذالت الناقةُ) اذا نشرت ذيلها على فخذيها . ومن ذلك استعاروا المعنى للنساء فقالوا : (ذالت الجارية ، او : تذيّلت) اذا سحبت ذيلها اختيالاً ، والمقصود ذيل ثوبها طبعاً ، لأنها لا ذيل لها كما هو معلوم لدى الجميع . وكثيراً ما كان ولا يزال يقال (فلان طاهر الذيل) أي بريء نقيّ السيرة من الدنس .. والمقصود ذيل ثوبه أيضاً .

أما اشتقاق معنى الاهانة من (الاذالة) فهو من (الذيل) كذلك ولعله من ذيل الفرس خاصة .

فكيف كان ذلك ؟ وما علاقة الذيل بالاهانة ؟

كانت (الاذالة) تعني إطالة الذيل، أي تركه يطول . قالوا : (أذال ثوبه) أي جعل له ذيلا ، أو أطال ذيله . ثم قالوا : (اذال فرسَه) بمعنى انه لم يحسن القيام عليه . ونستنتج من هذا انه كان من عادتهم في زمان ما أن يقصّوا ذيل الفرس الكريم أو يشذبوه ، لذلك صارت إطالة ذيله تدل عندهم على إهماله أو سوء القيام عليه . بل انهم صاروا يقولون (اذال فلانٌ الفرسَ) اذا أدّى إهماله الى هزاله ، ولو لم تكن للأمر علاقة بذيله .

ومن هنا أصبحت الاذالة ، وهي إطالة الذيل ، تعني الاهمال وقلة العناية بوجه عام . وانتقل المعنى الى البشر فصاروا يقولون ان الأب (اذال غلامه) اذا لم يحسن القيام عليه ، مع انهم لا يقصدون بطبيعة الحال ان الأب أطال ذيل غلامه أو أنه لم يحسن تشذيبه لأنه هو الآخر لا ذيل له . ومن هنا أيضاً جاء قولهم (اذال الرجلُ مالَه) اذا « أهانه بالانفاق » على حد تعبير المعاجم . ثم جاء قولهم (اذال فلاناً) اذا أهانه بوجه من الوجوه .

أما (ذيل الكتاب) فملحق يضاف إليه ، و (ذيل الرسالة) إضافة أو حاشية تُدْرَج في آخرها بعد ختامها . وكثيراً ما تقرأ في آخر الكتاب تعقيباً أو خاتمة تحت عنوان (تذييل) .

ولكن للذيل معنى عراقياً مستحدثاً لا تذكره المعاجم ولا تعرفه العرب

في غير العراق ، وهو الطرد من الوظيفة . قالوا : (**ذيّلَتْه الحكومة**) بمعنى عزلته من وظيفته ، و (**هو مذيَّل**) أي معزول أو مطرود ، و (**اصابه الذيل**) أو (**لفّه الذيل**) أي شمله العزل .

وستحار الأجيال القادمة من غير ريب في فهم العلاقة بين ذيل الحيوان والاخراج من وظائف الدولة ، وسيخترع اللغويون قصصاً ممتعة اخترع أسلافهم أمثالاً لها في تأويل الكثير من الالفاظ والامثال . وتنويراً للأجيال القادمة نذكر لهم الحقيقة هنا – إن كانت شؤون اللغة ستبقى جديرة بالاهتمام والبحث لديهم – وهي ان الحكومة العراقية كانت قد أصدرت قانوناً لتطهير جهاز الدولة من الموظفين الفاسدين أسمته « قانون ذيل **قانون** انضباط موظفي الدولة رقم (٤١) لسنة ١٩٢٩ ، رقم (٢٠) لسنة ١٩٣١ » .. فقيل « **قانون الذيل** » اختصاراً لهذا الاسم الطويل . ثم كان ما كان ، مما تعرفونه .

الضالّة المنشودة (وزان المادة المجهولة) :

يقال : « **فلان ينشد ضالّته** » .. ويفهمها أبناء جيلنا انه يسعى وراء لبانته او أمنيته . و (**الضالّة**) عند عرب الجاهلية الناقة المفقودة ينشدها صاحبها ، أي يسأل عنها هنا وهناك . وما زال أهل الموصل يقولون (**ينشد**) بمعنى يسأل . وقد صرنا اليوم نستعمل (نِشدان الضالة) للتعبير عن كل أمنية يتوق المرء الى الفوز بها ، وأكثرنا يجهل أصلها البعيري .

ولكثرة حدوث ضياع الناقة ونشدانها بين الاحياء والمضارب تطور المعنى على العادة وتشعّب . والظاهر من خط سير اللفظة انه كانت لنشدان الضالة عند العرب حرمة خاصة ، إذ كان على الناس ان يَصْدُقوا الناشدَ ، او النَشّاد ، ويمحضوه النصيحة ويعينوه على بلواه في البحث عن كنزه المفقود ، اي ناقته .. فصار (**النِشدان**) – وزان العصيان – وأصل معناه مجرد السؤال ، صار يعني أكثر من السؤال .. اي الترجّي والاستحلاف ، فقالوا : « ناشده ان يفعل

الامر ، بمعنى ترجّاه أن يفعله . ومن ذلك ظهرت (ناشدتك الله) اي استحلفك بالله .. ومثلها (نشَـدتك الله) .

وقد نشأت فئة من الناس يسمّون (النشّادين) وهم الذين احترفوا نِشدان الضَوالّ ، فتخصّصوا في المهنة وحذقوها ، ولعلّ بعضهم كان يجني منها أرباحاً طيبة .

ونشأت فيما يظهر فئة أخرى من المجرمين ، سمّوهم (الناشدين) فهؤلاء يغتنمون مصائب الناس فما يسمعون بضلال ناقة حتى يطلبوها ، وهكذا احترفوا طلب الضوالّ تطوّعاً دون ان يكلفهم أحد ، ولكنهم كانوا يحتجزونها لأنفسهم اذا وجـدوها . أما لماذا سمّى العربُ الصادقين منهم (نشّادين) والكاذبين (ناشدين) فلأنهم فيما يظهر اعتبروا الاوّلين ذوي حرفة معترف بها فاستعملوا صيغة المبالغة من اسم الفاعل المستعملة لذوي الحرف ، وأما المجرمون منهم فلم يعترفوا لهم بحرفتهم . هذا اذا جرينا على القياس . وقد يكون الامر محض مصادفة كما هو الاغلب في مثل هذه الاحوال .

ولعلّ بعض أولئك (الناشدين) الغشّاشين كانوا يدفعون الناقة الضالة الى صاحبها اذا هو افتداها . ولعلّ طائفة اخرى من الجناة كانوا يسرقون الابل ويخفونها فاذا طلبها صاحبها زعموا له انهم سينشدونها له اذا جعل لهم أجراً ، فاذا فعل اخرجوها اليه كأنهم وجدوها بعد نِشدان .

الانشاد (وزان الانشاء) :

ويظهر ان النشّادين والناشدين كانوا يذيعون بلاغاتهم على الناس كافة ، بدلاً من سؤال الناس واحداً واحداً ، لان ذلك أسهل وأعم . فكانوا كالمنادين قبل عهد الاذاعات والصحف ، في المدن سابقاً وفي الارياف حتى اليوم ، يرفعون أصواتهم بالسؤال وتعداد أوصاف الضالة وشياتها ..

ويبدو ايضاً انهم كانوا يرتلون ذلك ترتيلاً منغوماً . والبدوي كما هو معلوم مغرم بالغناء ، فهو يغني اذا حدا بعيراً ، ويغني اذا تلا شعراً ، ويغني اذا لم يجد

شيئاً يفعله . وقد كان البنّاؤون يغنّون – وما زالوا في بعض المدن يفعلون – عند مزاولة عملهم .

وواضح ان ترتيل النشادين في طلب النوق هو الذي أعطى الكلمة معناها الغنائي ، فشمل مع الزمن ترتيل الشعراء قصائدهم فقالوا : (انشد القصيدة) بمعنى غنّاها ، لأنهم كانوا يرتلون الشعر عند تلاوته ترتيلاً . وقد سمعت بعضهم ، ممّن لا تزال فيهم بعض سجايا البداوة يتلون الشعر إنشاداً في نغم رتيب . أما المحدثون فصاروا يستعملون تعبير (انشاد الشعر) بمعنى مجرد قراءته وهم لا يعلمون ان الاقدمين كانوا يغنّونه عند تلاوته ، وانهم ما كانوا يفهمون قولك : « أنشدت الشعر » إلا بمعنى انك غنّيته حقاً .

وربما كان فعل (شدا) مخففاً من (أنشد) على ما هو مألوف في اللغة من تخفيف وتحريف .

الاناقة (وزان الحلاقة او الحماقة) :

(أناقة النساء) تكبد الرجال ما تكبدهم من مال وتعوضهم ما تعوضهم من لذة وجمال . وهي أشهر من أن نتحدث عن مناقبها وأفضالها ، فهي شغل الحضارة الشاغل ومتاعها المفضّل ، تُنفَق في انتاجها الملايين من الأموال ويكدح في مصانعها الملايين من النساء والرجال .

ولا يفزَعنّ القارىء مما سأقول . ان أصل الكلمة من (الناقة) ! وقد انتقل المعنى من تلك البهيمة الصحراوية الغليظة الى الكواعب الغيد المعطرات في حواضر الدنيا المترفة . اما إذا أردنا ان نعرف كيف تمّ هذا الانقلاب الهائل فلنتابع الكلمة في خط سيرها التطوري على النحو التالي :

قالت العرب : (نوّقتَ البعير) بمعنى ذلّلته وأحسنت رياضته ، فكأنما قصدوا انك أنّثته وذهبت بفحولته وخشونته فصيّرته مطواعاً وديعاً رقيقاً .. كالناقة !

ودرجت العرب على هذا المعنى حقبة ، ثم تدرّجت مرحلة فقالت قياساً على ترويض البعير وترقيق طبعه (نوّقت الشيءَ !) بمعنى صفـّقته وهندمته .

وجاء يوم فصارت (النّوْقة) – وزان الصفقة – تعني الحذق في كل شيء .

وجاء يوم آخر فصاروا يقولون بنفس المعنى : تنوّق الرجل في ملبسه ، او رياش بيته ، او سبــك قصيدته . ثم قلبوا الكلمة فقالوا (التأنـّق) بدل (التنـوّق) ، وذلك شبيه بقولهم (آماق) بدلاً من (أمواق) . وإن شئت مثالاً من اسم الناقة نفسها فقد قالوا (الأيْنُق ، والأنـيُق ، والنـّوق) بمعنى واحد . وقد بقي (التنوّق) مستعملاً بمعنى التنطع والتكلـّف في زينة أو كلام .

وهكذا عرفت الناقةُ البدوية كيف تتسلل بهذه الطريقة البارعة الى صميم الحضارة في مخادع الحسان ومحاريب الفن ومصانع الأزياء والتجميل . وهكذا خلـّدت الناقة نفسها ، على حين أخذ أكثر الحيوانات حتى ما كان منها يعايش أهل الحضر ينسلّ شيئاً فشيئاً من حياتنا لاستغنائنا عنه وحلول الآلة محله ، كالحمار مثلاً كان له شأن وأي شأن في الركوب والحمل جميعاً إلا أنه كاد يغدو الآن نسياً منسياً ، ولو أنه يذكر كثيراً للسبّ ، اي انه بقي لدينا من الحمير البشرُ المسبوبون .

الجمال (وزان الكمال) :

ومعناه معروف ولو أن تعريفه من أعوص المشكلات . وهو مهوَى الافئدة وفتنة الشعراء والفنانين – وغيرهم – ورسمال المرأة . وما من اطراء أوقع في نفس المرأة من أن تقول لها انها « جميلة » .. ولا سيما اذا كنت كاذباً .

ومن الجمال (التجمـّل) و (التجميل) اي التزيّن والتزيين . وقد توسع المعنى في عصرنا هذا فصار أبعد مدى من مجرد التزيين اي التجميل السطحي الذي يزول بغسل الوجه ، أو خلع الثوب ، أو نزع الأجفان الصناعية والحواجب المخطوطة والخال المـُلصَق . ذلك بأن العمليات الجراحية أصبح في إمكانها

صنع (**الجمال**) او إزالة القبح على الأقل بواسطة مبضع الجراح . ولهذا الجمال الجراحي دوام الجمال الطبيعي في كثير من الأحوال .

ومن هذه الكلمة أيضاً (**المجاملة**) اي معاملة الناس بالجميل .

ولا يفزعنّ القارىء الكريم ممّا سأقول هنا ايضاً . فان الناقة قد تبعها بعلها الى صميم حياتنا . نعم ، ان (**الجمال**) مشتقّ من (**الجَمَل**) اي البعير !

كان العرب قد عرفوا للجمل فضيلة الصبر .. الصبر على الجوع والعطش ، والصبر على حرّ الهجير وشتى أنواع المشاقّ .. فلا يبدو عليه جزع أو تخاذل عند معاناتها . لهذا شبّهوا به الرجل الجَلْد الصابر . وأعتقد انهم قالوا أولاً (**تجمّل فلان**) بمعنى صَبَرَ صَبْر الجمل ، اي أشبهه او تشبّه به في أبرز صفاته ، ومثل ذلك قولهم (تنمّر) بمعنى أشبه النمر في أبرز صفاته اي الشراسة . وظل (التجمّل) يعني التجلّد أحقاباً طوالاً عند العرب كما يتضح مما وصلنا من قديم شعرهم ونثرهم .

وكان التجمّل ، أي التصبّر ، من الشيم المستحبة في المثالية العربية ، وكان من شرائطه ان يكظم المحزون حزنه عند الثكل والفجائع تجلداً وتفادياً من شماتة الاعداء ، وأن يخفي الفقيرُ فقره تعففاً وأنفة . وكان من جملة مظاهر هذا التجمل ان يلبس الفقير أحسن ما عنده من ثياب في المجامع ، وأن يخلع المحزون الثاكل عنه ثوب الحداد ويرتدي ثياب الزينة تجلداً للشامتين يريهم انه لريب الدهر لا يتضعضع . وعن طريق هذه الثياب التجلدية انتقل معنى التجمّل من التصبّر الى التزيّن والظهور بأحسن مظهر .

ولا بد أن هذا (**التجمّل**) قد صحبه في بعض الاحيان التطيّب وكَحْل العينين وتشذيب اللحية . ولا بدّ انه حين انتقل الى عالم النساء حُذف منه تشذيب اللحية وزيد عليه تحمير الخدود والشفاه ولبس الغلائل والخواتم والأساور والحجول .. غلوّاً في إظهار التصبّر ، او تذرّعاً به لإظهار الزينة والتبرج . فلا بدع اذا سمع المرء كلمة (التجمّل) بعد كل هذا ان يتوهّم أنها تعني التزيّن نفسه .

ولما كانت صيغة التفعّل تعني التصنّع او التشبّه فقد ظنوا أن أصل الفعل المجرد هو (جَمُل يَجمُل) – مثل كَرُم يَكرُم – بمعنى حَسُن يَحسُن .. وما دروا أن الأجيال السالفة التي بدأت المشروع لم تفهم من التجمّل سوى التشبّه بالجمل في الصبر والاحتمال . ثم انهم اشتقّوا (الجمال) – وزان الكمال . وقد كان أصل الكلمة (الجَمَالة) – كالسعادة – ثم حذفت التاء لغير سبب معروف فصارت (الجمال) . وبديهي أن اللغويين المحترفين سيقولون ان تاء (الجمالة) حذفت للتخفيف على عادتهم ، ناسين ان (الاناقة) بقيت أناقة ، وكان من حقها هي أيضاً أن تخفف لو كان ثمة ما يدعو الى التخفيف – فتصبح (الاناق) قياساً على الجمال .

والواقع ان القاعدة الأساسية في تكوين اللغة هي (التثقيل) لا (التخفيف) لأن أصـــول الأفعال كانت ثنائية ثم زيد الحرف الثالث . وفي بعض الحالات الرابع أيضاً ، مثل (بث ، بثر ، بعثر ..) ، وقد يزاد على الحرف الرابع .. ولهذا البحث مجال آخر . على أني لا أريد هنا أن أنكر التخفيف حين أذكّر بالتثقيل ، وإنما أريد أن كلاً منهما سماعيّ – أي اعتباطي – لا قياسيّ .

وهكذا يستحوذ الجمل على (أجمل) كلمة في القاموس !..

وقد ظهر من معنى الصبر أو الجمال ، أو كليهما ، معنى (المجاملة) أي معاملة الناس بالحسنى كالذي قلنا . وكانت المجاملة من قديم الأوان تعني عند العرب كما تعني عندنا اليوم : النفاق المهذب . ومن أجل ذلك قالوا ان المجاملة أن تعامل المرء بالجميل « دون أن تصفيَه الاخاء » ! وواضح ان بعض الناس لا يستحقون ان تصفيهم الاخاء ولكن الرجل المهذب مضطر الى معاملتهم بالجميل احتراماً لنفسه واعتصاماً بأدبه .

على ان تطور معنى التجمل الى الزينة لم يقضِ على معناها البدوي الأول : التصبُّر . فقد تعايش المعنيان ، القديم والحديث ، أجيالاً غير قليلة ، أي في العصر الجاهـــلي ، ثم العصر الأموي ، ثم العباسي . وطالما قالوا في التعزية : « جمالَك في أبيك » – بفتح لام الجمال – اي عزاءَك فيه . وأصل المعنى صبراً

فيه . ومن ذلك قول شوقي في مسرحية (مجنون ليلى) : جمالَك يا أبا ليلى ..

وقد اقترن معنى الصبر بالجمال في القرآن كما في الآية : « صبرٌ جميلٌ ، والله المستعان على ما تصفون » . وأصل المقصود هنا : صبر (جمليٌ) ، لا صبرٌ فائق الحسن . وبالرغم مما في (الصبر) من (جمليّة) وابتعاد شعوري وادراكي شاسع عن دنيا (الجمال) فان في تعبير (الصبر الجميل) ظلالاً فنية متداخلة الألوان تبعث في النفس حساً بالجمال والعزاء . ولعل هذا هو الخطوة الاولى الى تعبير « واهجرهم هجراً جميلاً » ..

ومهما يكن فان الكلمة انسلـّت أخيراً ولا سيما في عصرنا الحاضر من معناها البدوي – التصبّر والتبعـّر – وتبرّأت من أصلها البهيمي ، فشمخت بأنفها الى عنان سماء الفن والشعر وعمليات التجميل . وبتعبير آخر ان هذه الكلمة البدوية تحضرت بكل ما في كلمة الحضارة من معان .

وبهذه المهارة التطورية الغريبة انسلّ (الجمل) مع شريكة بيدائه وأحماله ، عقيلته (الناقة) ، الى مكان الصدارة من حياتنا العصرية ، و (تسنـّما) معاً ذروة الفن والذوق .. بالضبط كما انسلّ الأعاريب البداة أنفسهم من مفازاتهم المحرقة عند الفتح الاسلامي الى مراكز الحضارة العالمية على عهدهم ، فتحضّروا بتلك السرعة الشاذة ، وارتفعوا الى مستوى تلك المراكز الحضارية ورفعوا مستواها درجات ، حتى جعلوا البلاد التي انتشروا فيها من السند الى الاطلسي ، موطن المدنية والعلم والرخاء في العالم .

٢ - أربطة البهائم

— في لغتنا الثقافية

محاضرة ألقيت بعنوان «التطور الحيّ في اللغة العربية» في كلية الآداب بالرباط، يوم ١٣/٥/١٩٦٥، وفي قاعة الحفلات بالدار البيضاء يوم ٢١/٥/١٩٦٥ — استجابةً لدعوة اللجنة الثقافية في كل من المدينتين.

إن كان في الناس اليوم مَن يجد سبيلاً الى إنكار تطور الانسان وصعوده في سلم الارتقاء من حيوان أدنى يسير على أربع قوائم الى حيوان أعلى يسير على أربع عجلات، فلست أرى لأحد سبيلاً الى إنكار تطور اللغات من البسيط الى المركب، ومن دور البدائية والبداوة الى دور الحضارة والثقافة. ذلك اننا نرى بأعيننا تطور اللغة في جيلنا هذا في كل قطر من أقطارنا العربية، كما رأى أبناء كل جيل في كل بلد من بلاد الناس كيف ارتقت لغتهم بارتقائهم أو تردّت

بترديهم . وما من حدث اجتماعي او نهضة علمية او سياسية إلا ويصحبها تطور في اللغة .. في المباني أو في المعاني ، أو في كليهما جميعاً ، أعني في إحداث ألفاظ جديدة لبعض المعاني أو إحداث معان جديدة لبعض الألفاظ ، او في ذلك كله. وما من أحد على شيء من الإلمام بتاريخ العرب وآدابهم يجهل ما أحدث الاسلام مثلاً من ثورة لغوية الى جانب الثورة الدينية والاجتماعية والفكرية ، وما أجدّ من مصطلحات وغيّر من مفاهيم تصرفات وكلمات . وحسبنا أن نلاحظ ما طرأ على هذه العربية في مختلف أقطارها من تطور الى الأسوأ في عهود الحكم الأجنب والى الأحسن منذ بدأت عهود الاستقلال في كل منها .

وأود الآن أن أتحدث إليكم ، أيها الاخوان والاخوات ، عن جانب صغير من جوانب التطور الحركي الحيّ الذي عاشته اللغة العربية ، وهي فيما يظهر أعظم أداة تعبيرية أبدعها العقل البشري . سننظر الى هـذا التطور من زاوية واحدة ضيقة ، بل سنفتح كوّة صغيرة نطلُّ منها على قطاع محدود نراقب فيه حركة هذا التطور ، لندرس نماذج منها من خلال أربطة البهائم العربية في لغتنا الثقافية . وأستميحكم صفحاً ان كانت البهائم وأربطتها لا تروق لكم مـادةً للحديث . ان الذي يهوّن المشكلة علينا – أعني عليكم – هو أننا سنتناول في حديثنا الجانب الثقافي على الأغلب من هـذه الاربطة البهيمية ، فان لها يشهد الحق لجانباً ثقافياً شديد الغرابة كثير المتعة والطرافة ، كالذي سنرى بعد قليل . فعسى أن تكون في هذا ترضية لكم وتعويض من خيبة الأمـل التي لعلكم أحسستم بها عند سماعكم نبأ الاربطة والبهائم .. اذا كنتم قد أمّلتم أن أتحدث إليكم عما هو أبهج من هذا وأجلّ شأناً . والواقع أن البهائم وأربطتها موجودة ضمناً في عنوان حديثنا .. إذ كيف يمكن البحث في التطور دون البدء بالخسيس من الاشياء ؟ وكما ان الكلام على تطور الانسان لا بد ان يجرّ الى ذكر القرود وأشباهها من بني الحيوان لا بد أن يدعو الكلام على تطور اللغة الى ذكر البسيط وربما التافه المزدرَى من البدايات .. من الأشياء المتصلة ببني الانسان . ولئن كانت هذه الاشياء تافهة مزدراة عندنا اليوم فما كانت كذلك عند آبائنا

الذين تطورنا نحن منهم كما تطورت لغتنا من لغتهم ، وتبدلت بيوتنا من خيامهم ، وسيارتنا من بعيرهم ..

اننا نعلم ان الدواب من خيل وماشية وإبل كانت أهمّ ما يملك الاعرابي من ثروة ، فمن الطبيعي ان يكون لأسمائها وصفاتها وحالاتها ومـا يتصل بها من هَنات وأدوات أثر كبير في لغته ، وأن يستعير الألفاظ والمعاني المتصلة بهذه الاشياء والدواب لصنع ألفاظ ومعانٍ أخرى يتسع مداها فيشمل بني الانسان..

وان من أهم الادوات الملازمة للدواب هي (القيود) التي توثـّق بها فتمنعها من التسيب والشرود . وقـد استرعى انتباهي احتفاء القوم بهذه (القيود والأربطة والحبال) وكثرة اشتقاقهم الأوصاف والمعاني منها ، ولا سيما المعاني والأوصاف الراقية عامة والثقافية خاصة !

المعقولات :

ومعروف ان الناقة كانت عند الاعرابي أثمن شيء في متاعه وأنفعه قط . لذلك كان ضياعها كارثة اذا نزلت بساحته أثـّرت في معظم مناحي حياته .. لا يعود يشرب لبنها اذا جاع أو ظمىء ، ولا يمتطي سنامها اذا قطع مفازة لعمل او سفر ، ولا يحمل متاعه على صهوتها اذا ظعن انتجاعاً لكلأ او إباءاً على ضيم . وان كانت عبادة البقرة تبررها للهنود فوائد تغدقها عليهم فان فوائـد الناقة للأعراب ومناقبها لا يكاد يحصيها من يعددها . فالناقة أولى بالعبادة عند العرب اذن من البقرة عند إخوانهم الهنود ، لو كانت فوائد الحيوان تبرر عبادته .

لهذا كانت المحافظة على الناقة من أول واجبات البدوي .. وكانت أيسر طريقة لإضاعتها هي أن يتركها هَمَلاً وينصرف عنها .. يدخل خيمته أو يمضي في شأن له . وما هي إلا هنيهة حتى يناغيها بعـير الجيران فتقبل عليه ، أو يجذبها مرأى نبتة شائكة من بعيد ، او يستهويها منظر البيداء فتلقي بنفسها في عبابها رغبةً في التمشّي او بحثاً عن المغامرات . واذا بصاحبها البدوي يعود فلا يجدها .

وأسهل طريقة للتفادي من هذه النكبة هي ان ينيخ ناقته الغالية فاذا هي بركت وانثنت ركبتها ، رَبَطَها — ساقاً الى عضد — بقطعة حبل .

وكان هذا العمل البسيط — ربط الناقة — يُعَدّ عند العرب آية الفطنة وحدة الذكاء .. لسبب معقول ، هو ان إهماله دليل الحمق والجهالة الفارطة ، حتى صاروا يعدّون الربط هو الحكمة بعينها ، من باب الحقيقة لا الاستعارة والمجاز . ولعلّهم قالوا اول الامر : « فلان أحمق لا يربط ناقته » ، ثم قالوا : « علان حازم ، يربط ناقته » . وإنما قدّمت ذكر إهمال الربط لأنه أدلّ على فرط الغباء من عمل الربط على فرط الذكاء . ثم كان منهم أن أسقطوا ذكر الناقة استغناءاً عنه لشهرتها ورسوخها في الاذهان ، فقالوا : « فلان أحمق لا يربط ، وعلان حازم يربط » . وصاروا بعد ذلك اذا أرادوا أن يعرفوا مبلغ ما أُوتي أحدهم من عقل تساءلوا « هل يربط » ؟ وان قالوا « ان الغلام يربط » فلقد بلغ عندهم مبلغ الرجال تدبيراً وفهماً . واذا أرادوا الثناء على الرجل وسداد رأيه قالوا « انه رابط » !

وكأني بكم تستغربون مني هذا المقال ولا تريدون ان تصدقوه . وما أنا بحاجة للبرهنة عليه الى الكثير من الايضاح ، فان مجرد ذكر اللفظة التي استعملها العرب الاقدمون لربط ركبة الناقة يكفي لاقناعكم بصحة ادّعائي ، لأنهم في الحقيقة لم يستعملوا لفظة (الربط) وإنما كانوا يستعملون لهذا الغرض لفظة (**يعقل**) من وزن (يربط) ومعناها . وكانوا يسمون قطعة الحبل التي يقيّدون بها الناقة (**العِقال**) من وزن (الرباط) ومعناه ايضاً ، والفعل هو (**العقل**) . فان تساءلوا عن مبلغ ما أوتي الرجل من سداد الرأي كانوا يقولون : **هل يعقل ؟** (اي : هل يربط) ؟ وان أرادوا الثناء على حزمه وجودة فهمه قالوا : انه عاقل .

وبعد ان ثبت هذا المعنى على مرّ العصور اشتقوا منه : **التعقّل** و **المعقول** ، و علوم **المعقولات** ، اي المربوطات !

أفرأيتم كيف تطور ذلك العقال ، ذلك الحبل الحقير ، الذي أحسبه أثار

اشمئزازكم أول الأمر ، بل كيف قفز هذه القفزة الجنونية الهائلة .. من صميم البداوة الى قدس أقداس الحضارة من ثقافة وفلسفة ؟.. وكيف أصبح الربط يعني (العقل) الذي هو أروع شيء أنجبته الحياة على هذا الكوكب ؟ ان ذلك الحبل .. الحُبَيْل .. قد فعل كل هذا بقفزة تبدو للنظرة العابرة يسيرة .. من رِجل الناقة الى رأس الانسان ، ولكنها في الحقيقة مسافة أعظم من المسافة بين الناقة والطيارة ، بل الصاروخ .

ان المواضيع اللغوية جافة في العادة يصدف عنها القراء ، بل ينفرون منها . ولكن فيها مع ذلك جوانب ممتعة مسلية جداً ومفيدة جـــداً ، اذا أُحسِن عرضها أقبـــل عليها المثقفون ، وحتى أنصاف المثقفين ، إقبالهم على قصص الجرائم والغراميات . ولشدّ ما أتمنى لو أستطيع أن أحمل نفراً من أبناء الجيل الجديد على الاهتمام بهذه اللغة العربية التي صارت تتكشّف لي كأنها قارة شاسعة الابعاد كثيرة المجاهل ، تنتظر فريقاً من الروّاد الجدُد المتحمسين يجوبون أقطارها المترامية ويستخرجون كنوزها الكثيرة ، ليجدوا أنها بحقٍّ أعجوبة اللغات .

الكتابـة :

ومن أسمى ابداعات العقل البشري ، ان لم تكن أسماها طرّاً (الكتابة) ، وهي العمود الفقري لكل تراث الانسان من علوم وآداب وأفكار وفلسفات . فهل تعلمون ما أصل معنى كلمة (الكتابة) ؟

يظهر أن العرب ما كانوا يعدّون القيد متاعاً جليل الخطر في (عقل الناقة) وحسب، بل في مختلف مناحي حياتهم الاجتماعية المشتّتة ، فعمدوا الى الاربطة الاخرى فابتكروا منها معاني أخرى . ولم يكتفوا بربط الإبل وغيرها مـــن الدواب بل ربطوا المعاني أيضاً خوفاً عليها من الشرود ، ومن ثمّ الضياع .

وها هي (الكتابة) كان معناها (التقييد) . واذا أردنا الدقة فهو تقييد اليدين مع الكتفين . ويظهر من هذا ان أصل الكلمة هو (الكتف) ، اي ان

قولهم (كتبتُ الرجل) كان متطوراً من قولهم (كتفته) . والواقع ان بعض ضروب الكتابة يشبه التقييد ، فان تدوين المذكرات مثلاً ليس إلا (تقييداً) من طراز خاص . وما التصوير الشمسي الا طراز آخر من التقييد .. تقييد الاضواء والظلال ، ولو بغير كتاف أو عقال .

ومن طريف ما جاء في هذا وفسّر تطوّر معنى التقييد الى معنى الكتابة أوضح تفسير ، حديث رواه السيوطي في « المزهر » هو : « قيّدوا العلم بالكتابة » ! ولو أعدنا معنى الكتابة الى أصله اللغوي الاول لصار معنى الحديث : قيّدوا العلم بالتقييد . فهو توكيد لمعنى التقييد ، كالذي ترون .

ولئن كانت بعض القيود مما ذكرنا أو سنذكر ، ما زالت تحتفظ بمعانيها الربطية الاصيلة بالاضافة الى معانيها الثقافية او الاجتماعية المكتسبة ، فان الكتابة قد فقدت معنى الربط ولم يعد أحد يستعملها إلا بمعنى التدوين .. حتى ان اكثر المعاجم ، ولا سيما الموجزة منها ، لا تذكر الكتابة إلا بهذا المعنى الاخير المتحضر .

والذي يظهر من تقييد الكتفين ان الكتاب والكتاف من قيود الانسان خاصة ، وقد عمموه على الحيوان ايضاً من باب المجاز كما عمّموا الكثير من أشياء الحيوان على الانسان . ولكن حتى لو افترضنا انه لم يستعمل إلا للانسان ، فلا نراه مع ذلك يخرج عن نطاق بحثنا الخاصّ بأربطة البهائم ، لانه — اي الكتاف ، او الكتاب — يكون عندئذ من أربطة البهيمة الناطقة .

ومن مادة (**الكتابة**) بمعنى التدوين اشتقوا : **الكتاب** ، و **الكتّاب** ، و **الكاتب** ، و **المكتبة** ، و **الاستكتاب** ، و **المكتوب** ..

وأود هنا أن أضيف صيغة جديدة أرانا بحاجة إليها هي (**الاكتوبة**) وجمعها (**الاكاتيب**) ، على غرار الاكذوبة والاكاذيب . وأقترح ان نستعملها بمعنى (المكتوبات) الايضاحية او الاعلانية التي تصدرها الشركات عن بضائعها او الاحزاب عن توجيهاتها ، او ما هو بسبيل ذلك مما يسمى بالانكليزية والفرنسية literature أي (الادب) . وقد (تقيّد) مترجمونا المُلَهْوِجون

بهذا التعبير الأوربي المحرّف عن موضعه فترجموه (أدبيات) . وصرنا نراهم يقولون (أدبيات الشركة) مثلاً . ولكم ساءني في القراءة هذا التشويه لكلمة (الادب) ، ولا سيما ان لها في العربية معناها السامي الايحائي الذي (يربط) الفن بالاخلاق في وثاق معنوي نبيل . وإذا بقوم يهبطون بهذه الكلمة الرائعة الى مستوى الاعلان التجاري . وإنما اقترحت كلمة (الاكتوبة) لأنها محايدة لا محاباة فيها ولا تحامل ، تعني (الشيء المكتوب) دون مدح له او قدح فيه . وعسى ان يشايعني السامعون الكرام في استعمال (الاكتوبة) بهذا المعنى ونحوه تضامناً منا جميعاً لانقاذ كلمة (الادب) من الوهدة التي أوقعت فيها .

ان كلمة literature الانكليزية مقتبسة من الفرنسية ، وأصلها من litera أو littera اللاتينية وتعني الحرف الهجائي ، فاقتبسها الفرنسيون بصيغة lettre بمعنى الحرف الهجائي او الرسالة المكتوبة ، ثم صاغوا منها literature بمعنى الادب .

ولعل مما لا بأس بذكره هو ان الفرنسيين يسمون (الاديب) homme de lettres ، والانكليز يسمونه man of letters ، اي (رجل الحروف) في كلتا اللغتين . ولو أطلق هذا التعبير في العربية ، او أية لغة ، دون معرفة معناه الاصطلاحي ، اظن السامع ان المقصود هو (منضّد الحروف) اي العامل الذي يصفّ الحروف المطبعية ! ولما كانت كلمة (letter , lettre) تعني الرسالة ايضاً بالاضافة الى الحرف ، ففي أحسن الاحتمالات يظن السامع ان المقصود (رجل الرسائل) . وهذا ايضاً لا يدل على (الاديب) وانما يوهم ان المراد هو موزع البريد ، او ربما (العرضحالي) الذي يكتب الرسائل للقرويين والأميين !

وما نورد هذا تبجّحاً بلغتنا ، ولكن بعض الأوربيين من أمثال العلامة اللغوي الفرنسي (رينان) قالوا بتخلف العقلية الساميّة عن الآرية مستشهدين ببعض المظاهر اللغوية ، وشايعهم على ذلك حتى بعض العرب . فهذا الذي ذكرناه لا يؤيد هذا المزعم . ومن الطبيعي اننا لا نتخذه ولا نتخذ حتى تخلف

الأوربيين في التحضّر قروناً طويلة عن إخوانهم الساميّين – دليلاً على تخلّف العقلية الآرية . وكيف يحق لي أن أنتقد اشتقاقهم معنى (الأدب) من كلمة (الحرف) وأنا أتحـــدث عن اشتقاق العرب معنى (العقل) من (العقال) و (الكتابة) من (الكِتاف) ؟

القَـيْد (وزان الصيد) :

وما كفّ العربُ عن استعمال القيود بمعنى الكتابة ، بل عادوا إليها فأخذ المتأخرون منهم كلمة (**القيد**) نفسها واستعملوها بمعنى الكتابة أيضاً فقالوا (**قيّد الاسماء**) أي سجلها ، و (**قيد الحساب**) اي رقمه . واستعملوا (**القيد**) بمعنى السجلّ وجمعوه على (**قيود**) اي سجـــلات . و (**القيد الاحترازي**) يعرفه الحقوقيون ، ولكنه خارج عن معنى الكتابة التي نحن بصددها .

الاثبات (وزان الاحسان) :

وانظروا ، أيها الاخوان والأخوات ، الى (**الشِّبات**) – كالفئات – وهو السَّيْر يُشَدّ به الرَّحل على البعير . فهل تعلمون ماذا جرى له على ألسنة العرب؟ لقد اشتقوا منه ايضاً معاني ثقافية لها خطورتها كما سنرى . اشتقوا منـــه (**الاثبات**) بمعنى التدوين اي الكتابة ايضاً كما جاء في الآية : « يمحو الله ما يشاء و **يثبت** ، وعنده أمّ الكتاب » . كذلك استعملوه بمعنى البرهنة على النظرية او الرأي . ويقال : هذا **ثابت بالدليل** . ثم اشتقوا (**الثَّبَت**) بمعنى الحجـــة والبرهان ، او بمعنى الشخص الثقة يُحتَجّ بكلامه في علم او رواية ، او بمعنى السجل ، او الوثيقة . وفي إيران يسمّون تصديق الوثائق عند الكاتب العدل (**ثَبْتِ أسناد**) اي توثيـــق المستندات ، ولكنهم ينطقون الثاء سيناً على طريقتهم فيقولون (سبتِ أسناد) .

و (**التثبُّت**) يعني التأكد ، و (**الثابت**) الوكيد . و (**المثبَت**) ضد

المنفي . وهذا كله من (ثِبات الدابة) .. فما أجل خطره . وللكلمة معانٍ أخرى لا تدخل في بحثنا المقتصر على الألفاظ الثقافية .

الشكل (كالشّمل) :

ومضى زمان .. وتطورت الكتابة العربية ، وخالــط العرب الأعاجم فضعفت ألسنتهم واضطربت عليهم قراءة القرآن ، فأرادوا ضبط الكتابة بحيث لا يخطىء قارىء في قراءتها على وجهها الصحيح ، فوضعوا لها علامات تدل على الفتح والكسر والضم والجزم ، والتمسوا كلمة يسمّون بها هذه العلامات الكتابية الضابطة . فنثروا كنانتهم بين يديهم واستعرضوا مفردات القيــود والأربطة الباقية لديهم فاختاروا من بينها (**الشّكل**) – وزان العقل – وهو رباط الدابة أيضاً يشدّون به قوائمها ، فقالوا : (**شَكَلْتُ الكتابة**) بالعلامات فهي (**مشكولة**) بمعنى ضبطتها فهي مضبوطة ، كمثل قولهم : (**شكَلْتُ الدابة**) بالقيد ، فهي (**مشكولة**) . واذا أعدنا الكتابة ثانية الى معناها الأصليّ كان قولنا (شكلت الكتابة) يعني (قيّدت التقييد) .

وغريب ان نجد في الانكليزية نفس الكلمة تستعمل بنفس معناها العربي (shackle) اي القيد . وهي في عقيدتي مقتبسة من العربية . ولكن المسكينة لم تتثقف في الانكليزية ولم تتحضر او تتطور ، بل لبثت قابعة في حضيض معناها البدائي الاول ، اي قيد الدابة .. على حين ارتفعت عنــد العرب الى الاوج الثقافي الذي رأينا [1] .

الوثاق (وزان الوفاء ، او النفاق) :

وأعاد العربي النظر الى كنانته المنثورة بين يديه فأعجبته من بين القيــود

---

١ – كون العربية أمّ اللغات الآرية لا الحاميّة والساميّة فقط سيأتي بحثــه وبراهينه في فصول لاحقة ، كالذي نوهنا به آنفاً .

كلمة (الوثاق) ، وهو كذلك قطعة حبل او نحوه ، لربط الدابة ، فصنع منه طـُرَفاً ثقافية أخرى . اشتق منها مثلاً (الثقة) وأحد معانيها الجزم بالرأي واليقين فيه . وثانيها الاعتماد على الشيء او الشخص ، والاطمئنان اليه . وثالثها الرجل المتخصص في علم يُعتَبَر كلامه حجة فيه ، كمثل قولهم : (فلان ثقة في التاريخ) اي ثـَبَتٌ فيه .

واشتقوا منها كذلك (الوثيقة) و (الميثاق) اي العهد — او المعاهدة باصطلاح اليوم — ومنها (المواثيق) السياسية .

العنوان (وزان الثعبان) :

عنوان الكتاب : اسمه . ويقال : (عَنْوَنْت الكتاب) بمعنى سميته . ونحن نقصد اليوم بعنوان الشخص محل إقامته . وتقول (عَنْوَنْت الرسالة) بمعنى كتبت عليها عنوان المرء المرسلة إليه .

ويظهر ان أصل العنوان من (العِنان) — وزان الحصان — وهو الرَّسَن ، بدليل انهم قالوا (عَنّن اللجامَ) بمعنى جعـــل له عناناً ، كما قالوا (عَنَّن الكتابَ) بمعنى جعل له عنواناً .

الحُنكة (وزان العقدة) :

هي الحكمة والتمرّس بالتجارب . و (المحنّك) الحكيم المجرب . فهـــل تدرون من أين جاءت هذه الكلمة الخطيرة ؟ انها من (الحَنَك) — زنة الامل — وهو الذقَن ، ولكنه ذَقَن الدابة لا الانسان . ومنه اشتقوا (الحِناك) — وزان الحصان — وهـــو الزِناق ، من نفس الوزن ، اي رباط (الحنَك) يوضع في فم الدابة . فالفرس المربوط بالحِناك أقوم سيراً وآمن عاقبة لسيطرة الراكب عليه . وغدا (التحنيك) وسيـــلة لتدريب الدابة وتقويم سيرها ، فأصبحت (الدابة المحنّكة) — اي المدرّبة على الحناك — أفضل من الدابة المهملة

الهوجاء . ومن هذا اكتسب (التحنيك) معنى التهذيب ، فنقـــلوه الى العالم البشري . وقديماً قالت العرب : (حنّكت الصبيّ) بمعنى هذّبته ، دون وضع زناق في حنكه طبعاً . ثم انتقل المعنى من الصغار الى الكبار ، ثم صار اكثر استعمال الكلمة لرجال الادارة والحكم ، فقيل : السياسيّ المحنّك .

الحكمـة :

وإليكم نموذجاً من التطور الحيّ أغرب من هذا وأرقى درجة . (الحكمة) كلمة ثقافية جليلة ، معانيها معروفة . فهذه أيضاً كلمة عصامية نشأت وارتفعت من أصل متواضع ، كأخواتها السابقات . أصلها من أربطة الدواب التي أخذتم ولا شك تقيمون لها وزنها العادل الآن . ان (الحكمة) جاءت من (الحـَكـَمـَة) – وزان الحركة – وهي جزء من لجام الفرس .. الجزء الذي يحيط بالحـَنـَك من اللجام . قالوا – العرب الاقـــدمون – (حـَكـَمت الفرس ، او : أحكمته) – من باب ضربته وأدّبته – بمعنى وضعت الحـَكـَمة َ في فمـــه . ووضعك الحـَكـَمة في فم الفرس يعني – كالتحنيك – سيطرتك عليه . ومن هنا صار (الاحكام) – وزان الإحسان – يعني التوثيق والاتقان ، وصار (الحـُكم) – وزان اللـُّطف – يعني السيطرة ، و (الحاكم) يعني المسيطر والآمر والسلطان. ثم اشتـُقّ من هذه المادة (التحكـّم) وهو تكلف الحكم والتعسّف فيه . وبعد أن ثبت هذا المعنى للحاكم اشتقوا منه (المحاكمة) فقالوا : (حـــاكمت الرجل) بمعنى خاصمته الى الحاكم ، و (تحاكم الرجلان اليه) بمعنى تخاصما اليه ، (فحكم بينهما) اي أصدر (حـُكمه) فيهما . ومن هنا صار (الحكم) يعني القضاء اي الفصل بين (المتحاكمين) أيضاً . ومن هنا اشتـُقـّت (المحكمة) وهي دار (الحـُكم) أو (المحاكمة) أو (التحاكم) أو (الاحتكام) ، وصار الحاكم يعني القاضي . والقاضي – غير القاضي الشرعي – يسمى في العراق (الحاكم) والجمع (الحـُكـّام) .

وبعد أن أخذت الكلمة معنى القضاء أصبح من السهل اشتقاق (**الحَكَم**) – وزان القلم – و (**التحكيم**) منها . كذلك أصبح للتحكيم نفس المعنيين ، اي التسليط وطلب الرأي ، فقالوا مثلاً : (**حكّم الرجلُ عاطفته ، او عقله** في المسألة) بمعنى سلط عاطفته عليها ، او عرضها على عقله للوصول الى رأي فيها .. وقالوا : (**حكّمناه في الخلاف**) بمعنى طلبنا حكمه فيه او جعلناه حكَماً فيه . واستعمل العرب (**الحكومة**) بمعنى (حُكم الحَكَم) فقال شاعرهم :

ما أنت بالحَكَم التُرضَى حكومتُه

ولكننا لا نستعمل (**الحكومة**) الآن إلا بمعناها السياسيّ المعروف .

ولما كان الناس إنما (يحتكمون) الى ذي عقل وفطنة فقد اصطبغ (الحُكم) – وزان الشكر – بهاتين الخصلتين ، أي العقل والفطنة بالاضافة الى معنييه السابقين : الامرة والقضاء . وقد جاء في القرآن : « وآتيناه الحُكم صبياً » – أي آتيناه الحكمة ..

ومن (الحُكم) بمعنى الحكمة اشتقوا (الحكيم) . وبسبب ازدحام المعاني على كلمة (الحُكم) اختصت لفظة (الحكيم) بمعنى الحكمة ، وبقيت (الحاكم) تعني الآمر او القاضي ولا تعني الحكيم .. خلافاً للآمر والأمير ، والفاضل والفضيل ، والجاهل والجهول .. التي تشترك كل واحدة منها في معنى صنوها .

وقد كثر استعمال (الحكمة) لمعنى الحصافة والفطنة لأنها أبيَن عن الغرض من لفظة (الحُكم) المزدوجة المعنى ، التي بقيت مستعملة في كلا المعنيين حتى ظهور الاسلام كالذي رأينا من ورودها في القرآن ، والتي قلما استعملت بمعنى الحكمة بعد ذلك .

وهكذا زال معنى الحصافة من (الحُكم) ومعنى الحصيف من (الحاكم) بدافع الرغبة في اجتناب اللبس ، فتخصص معناهما في التسلط والقضاء ، كما زال معنى الامرة من (الحكمة) و (الحكيم) فاختص معناهما بالحصافة .

ولما كانت « الحاكمة » تتطلب مناقشة القضايا وتمحيصها فقد صارت هذه الكلمة تعني بالاضافة الى ما تقدم نفاذ الفكر وسداد المنطق فقالوا « فلان قوي الحاكمة » اي ثاقب البصيرة في تمحيص المسائل العقلية ، دون أن يكون للأمر علاقة بالقضاء بين المتحاكمين من الناس .

وفي العهد الاسلامي أطلِقت « الحكمة » على الفلسفة وما هو بسبيلها من العقلانيات . ثم أطلقت « الحكمة » على الطب ، وسُمّي الطبيب « حكيماً » . وظاهرٌ ان سبب ذلك هو ان الكثيرين من « الحكماء » — اي الفلاسفة — زاولوا الطب على ذلك العهد مثل الكِندي والخيام وغيرهما . ولا بأس بأن نورد هنا مثلاً كان شائعاً في العراق يوم كان الطبيب يسمى حكيماً ، هو قولهم : « لا سلّط الله عليك حاكماً ولا حكيماً » .. ولعل المثل مشهور في أقطار عربية أخرى .

وهكذا تعدّدت مناحي تطوّر هذه الكلمة فصار لها نشاطها الخلّاق في ميادين السياسة والادارة والقضاء والفلسفة والطب بالاضافة الى معناها الثقافي العام . فهل تلومونني اذا أنا صرفتُ شيئاً من العناية الى درس هذه الأربطة البهيمية العبقرية للتعرف فيها على ضرب طريف من التطور الحيّ ؟

القَرَن (وِزان القمر) :

وتلفّت البدوي يميناً ويساراً يطلب قيداً جديداً ، فلمح في قرن ثوره حبلاً من مَسَدٍ كان قد ربطه به الى قرن ثور آخر ، فقال في سرّه : ما لي لا أصنع عجباً فأخترع من هـذا النوع الفريد من القيد كلمة أخرى عصرية ثقافية ؟ ولكن بما أن « الحضارية والعصرية » لم يكن أوانها قد آن فقد اكتفى بأن يبدأ هو المشروع ويترك للأجيال اللاحقة إتمامه وفق هواها وحاجتها .. شأنه في ذلك شأن كل المخترعين — مخترع الآلة البخارية مثلاً — فسمّى ذلك الحبل في قرن ثوره « القَرَن » — وزان البقر . لكن هذه الكلمة بهذا المعنى تُوُفّيَتْ

منذ عهد بعيد لعدم حاجتنا إليها ، وما أكثر ما تُوُفِّيَت مخترعات خطيرة كانت نافعة في أيامها ، ثم استُجِدّ ما هو أصلح منها فقضى عليها .

ثم ان صاحبنا البدوي سمّى ذينك الثورين المربوطين من قرنيهما « قرينين » ، وسمّى كلا منهما « قريناً » للآخر . ثم انه أطلق كلمة « القرينين » على كل دابتين مربوطتين معاً ، في نير مثلاً ، سواء أكانتا مربوطتين من قرنيهما أم من أي مكانين آخرين من جسميهما ، وسواء أكانتا ثورين أم بغلين ، أم غير ذلكم .

وخَلَفته أجيال فأطلقت « القرين » على الصاحب والرفيق ، حيواناً كان أم إنساناً .. حتى جاء يوم فاذا شاعرهم يقول غير هيّاب :

عن المرء لا تسأل ، وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقـــارن يقتدي !

وهكذا أصبح الناس لا يأنف عظيمهم أو صعلوكهم أن يسمّى قريناً لمن يجانسه ويقارنه — أي يجعل قرنه الى قرنه — تشبيهاً لشخصه الكريم بالثور الاول المعهود .

وقد اشتقّ القدامى من مادة القرن « الاقتران » بمعنى الازدواج ، فقالوا « اقترن فلان بفلانة » اي تزوجها . وسُمّيَ النكاح « القِران » — وِزان الحصان — فقالوا : « عَقد قِرانه عليها » .

و « القُرنة » — وِزان الهدنة — بلدة عراقية عند ملتقى دجلة بالفرات ، أي نقطة « اقتران » الرافدين . وأهل ديار الشام ، وكذلك أهل الموصل في العراق ، يسمون الزاوية « قُرنة » ، كما يسميها الانكليز « كورنر — corner » وهي منها فيما يظهر .

وقد استعار المتأخرون « المقارنة » وكانت تعني المصاحبة — لمعنى مقايسة الشيئين والمفاضلة بينهما .. ومن ذلك « الادب المقارَن » ..

ولم يكتفِ المتأخرون بذلك بل عمدوا الى هذه المادة الحيوانية (اي القرن ، وهو شيء بغيض في بعض الأحوال لدلالته عند الكثير من الاقوام على

التفريط في العرض) فصنعوا منها أداة للتبجيل والمداهنة تُرضِي غرور المرأة ولا يجد الرجل – زوجها – في استعمالها غضاضة ، وتلك من غريب المفارقات. وصارت « القرينة » تقال – لا لسائر النساء من زوجات العامة – بل للزوجات الراقيات اللائي يستنكفن ويستنكف أزواجهن من تسميتهن « زوجات » كغيرهن من نساء السوقة ، فسموا الزوجة الراقية « قرينة » !..

العقال أيضاً :

ولم أسمع ان سيدة غضبت لتشبيهها – أو أن سيداً غضب لتشبيه زوجته ، عفواً ، أعني قرينته – بالبهيمة المربوطة من قرنها. واذا امتعض بعضهم وبعضهن من هذه التسمية فانما يمتعضون لرغبتهم في تشبيهها بالناقة المربوطة من رِجلها بدلاً من البقرة المربوطة من قرنها ، لان ذلك في زعمهم يرفع المرأة في المجتمع درجات . وإنما يتم ذلك التشبيه المستحبّ بتسميتها « عقيلة » !

وهذه الكلمة ايضاً ليست من ابتكار المتأخرين، فقد كان المتقدمون يقصدون بالعقائل كرائم النساء عامة . وها نحن نجد أنفسنا قد عدنا الى الناقة وعقالها . و العقيلة في الاصل الناقة الكريمة ، وهي الناقة المعقولة ، اي المربوطة . وفضل الناقة المربوطة على غيرها من الأينُق ان صاحبها ينام مطمئن البال لا يخشى شرودها . ويبدو ان الكلمة أطلِقَت فيا بعد على الناقة الهادئة ولو لم تكن مربوطة ، لأنها لا تسوّل لها الشقاوة ان تشرد فتترك صاحبها ملهوفاً ينشدها هنا وهناك . وقد كان لهذه الحادثة – أي شرود الناقة – خطورتها الاجتماعية عند القوم ، كما قلنا ، لفداحتها الاقتصادية اولاً ، ولكثرة وقوعها ثانياً .. فليس من السهل على العربي دائماً ان يربط نوقه ولا سيا اذا كثر عددهن أو عرضت له شواغل طارئة تعوقه عن ربطهن .

وعلى ذلك أصبح هذا الطراز من النياق الهادئات (غير الضالاّت المنشودات) يسمّى بكرائم الابل ، لأنها تمكث في مكانها الذي تركها فيه صاحبها ، كأنها مربوطة بعقال . وطبيعي ان تعجبهم هذه الخصلة الطيبة المريحة اذا اتفق وجود

مثلها في النساء ، فأطلقوها على المرأة الحَصَان الرَزَان التي لا (تشرد) عن المكان – المكانة – التي يريدها رجلها ان تكون فيها وتلزمها ، فلا تجري وراء هذا الرجل او ذاك ، فتعذب زوجها بالبحث واضطراب البال .. وإنما هي كالناقة المعقولة من ركبتها تلزم الحدود التي رسمها لها المجتمع ، لا تبرحها ولا تخرج عليها . ومن هنا كانت (العقيلة) تُعَدّ من (كرائم الابل) في العالم البعيري ومن (كرائم النساء) في العالم البشري . وهي في عالم البشر من (المثاليات الجنسية) قد لا تكون لها قيمة اقتصادية كما في عالم الابل .

واليوم أصبحت كلمة (العقيلة) مجرد اصطلاح يطلق على كل زوجة من العلية سواء أكانت (شَرُوداً) أم لم تكن ، وسواء أكان عدم شرودها ناجماً عن سجية فيها أم عن (وثاق) لا تستطيع أن تفصمه ، أم لأنها بلغت من العمر ما بلغت فلم يعد بين الرجال من يطاردها .

الرَّبط (وِزان الرفع) :

ومن الانصاف اخيراً ألاّ ننسى كلمة (الربط) فقد أكثرنا من استعمالها في هذا الحديث .

وقديماً اشتقوا منها (المرابَطة) وهي المكوث في المكان مثل (مرابطة العسكر) اي ملازمته موضعاً لا يبرحه، لان العسكر يربط خيله فيه . واشتقوا منها كذلك (الرباط) – وِزان الشهاب – وجمعها (الرباطات) وهي المعاهد الموقوفة لطلبة العلم او الفقراء ، أي التي حُبست منفعتها عليهم . ولعله من هذا المعنى كان اسم (الرباط) عاصمة المغرب العربي ، إن لم تكن التسمية من (رباط الخيل) للعسكر او (رباط الفتح) كما هو الشائع . ونذكر بالمناسبة أن اسم (المِرْبَد) – سوق البصرة المشهورة ، وصنو عكاظ – إنما يعني (المِربط) ، فقد استعمل العرب الرَبْد والربط بمعنى .

وقالوا (الرابط) بمعنى الراهب او الزاهد او الحكيم الذي تنزّه عن زخرف الحياة ، فكأنهم قصدوا – على ما تقول المعاجم – انه ربط نفسه عن

الدنيا وملاذها . وأصحّ من هذا التأويل القاموسي فيما يخيل لي ان « الرابط » مقلوبة من « الراهب » مع ابدال ، وان « الراهب » ان كانت عربية فهي من الرهبة اي الخشوع لله . وشأن الرهبة شأن « التقوى » ، فكأنما قصدوا بالراهب التقيّ .

كذلك استعمل المحدثون مادة « الربط » في معان راقية أبعد ما تكون عن ربط الدواب . من ذلك « روابط الصداقة » بين الدول ، وكثيراً ما يقول ساسة العالم انها « وطيـدة متينة » عندما يقصدون عـدم وجودها . ومنها ايضاً « الرابطة القلمية » التي كان قد أسسها المرحوم جبران خليل جبران وزملاء له من أدباء المهجر في أمريكا .

وهذه كلها « أربطة » معنوية كما ترون . أما الاربطة المادية الشبيهة بما للدواب فنذكر منها باعتزاز « رباط الرقبة » ! ..

العقدة (وِزان العطلة) :

هذه ايضاً من الحبليات . و (عقدت الحبل) تعني ربطت بعضه ببعضه . ولما كان الغرض من (العقد) هو وصل المقطوع وتوثيق المحلول فانهم حـــين استعاروه للمعنويات قالوا (عقدت الأمر) بمعنى أحكمته ، و (عقدت البيع) بمعنى وثقته وأبرمته . ويقال ان المتبايعَيْن كانا يعقدان طرفي ثوبيهما بعضهما ببعض علامة تمام البيع . ومن هنا صار (التعاقد) يعني التعاهد والتبايع ، ويطلق على كل اتفاق يتطلب ايجاباً وقبولاً ، مثل (عقد الايجار) و (عقد النكاح) . ومن هذه الاخيرة قالوا : (الفتاة المعقود عليها) . وصـــارت (العقود) تعني الصفقات والمقاولات . ولندع (عقود البناء) و (عقود اللآلىء) فهي من الماديات ، وشبَهُها بعقدة الحبل صراح .

وقال الاقدمون : (عُقِدت له الرئاسة في قومـــه) اي جُعِلَت له . وأحسبها مأخوذة من قولهم (عُقِد له على الجيش) لأنهم كانوا (يعقـــدون

راية) لمن يُوَلـُّونه القيـــادة . ومن عَقـْد الراية اشتـُقّ اسم (**العقيد**) في الجيش .

وقالوا انه (**عقـَد قلبَه على الامر** .. او : على حب فلانة) بمعنى تمسّك به بجامع نفسه . وقالوا انه (**يعتقد الامر**) بمعنى يعقد قلبه وضميره علـــيه ويُلزِم به نفسه – اي يؤمن به . ومن هنا جاء (**الاعتقاد**) بمعنى الايمان ، ثم (**العقيدة**) و (**المعتقـَد**) . واشتق المحدثون من ذلك (**العقائدية**) .

ولما كانت صيغة التفعيل تعني المبالغة فقد صار (**التعقيد في الموضوع**) يعني كثرة العـُقـَد فيه ، اي صعوبته وتعسُّر فهمه ، فهو (**معقـَّد**) .

و (**العقـَّاد**) – صيغة المبالغة من اسم الفاعل – تعني الشخص الذي يكثر من العُقـَد ، وقد أُطلِقتْ على صانع الخيطان والاهـــداب تُزيَّن بها الثياب والستائر وأشباهها .

وصرنا في هذا العصر نتحدث عن (**العقدة العصبية**) ، او (**العقدة النفسية**) ترجمةً لكلمة (complex) .. مثل (**عقدة أوديب**) . وبوسعنا ان نقول قياساً على ذلك : (**عقدة قابيل**) و (**عقدة ماكبث**) ، و (**عقدة أشعب**) و (**عقدة السندباد**) : شهوة الاسفار ، و (**عقدة الحطيئة**) : النزوع الى الهجـــو .. الى آخر ما هنالك من عقد زادت حياة الأولين والآخرين تعقيداً على تعقيد .

ونقول (**انعقدت الجلسة**) للنظر في أحكام (**المعاهدة المنعقدة**) بتاريخ كذا .. او للنظر في إعادة طبع (**العقد الفريد**) .

***

الى جانب هذه الأربطة (**الثقافية**) توجد ألفاظ (**اجتماعية**) أصلها حبال ، وألفاظ (**ثقافية**) أصلها حبال غير حيوانية أو هنات حيوانية او مـــواد خسيسة أخرى ، نذكر بعضها فيما يلي على سبيل المثال [٢] .

---

٢ – عندما أُلقيَ البحث محاضرةً حُذِفت منـــه بعض الفقرات تخفيفاً ومراعاةً للوقت . وقد أضفنا إليه هنا بعض الأمثلة .

السبب (وِزان الذهب) :

معناها معروف . وهو في الأصل الحبل ، تطوّر فصار يعني الوسيلة أول الأمر ، لأن الحبل هو واسطة استخراج الماء بالدلو من البئر .

كان المادح يقول لممدوحه (سببي إليك حاجتي .. أو كرمك) ، والمعنى : وسيلتي إليك . وكثيراً ما يقال للمسترفد عند قدومه على أحـــد الكرماء مستعطياً : (هل عندك سبب إليه ، يا أخا العرب ؟) فيقول : (أجـــل ، أبياتٌ قلتـُها) .. وكأنهم سألوه : (هل عندك حبل تصل به الى قعر كرمه؟) فيقول : (أجل ، ان قصيدتي هي حبلي الذي أرجو ان استخرج به المال من خزانته) . وقديماً شبهوا المدح بالمتح اي استخراج الماء بالدلو ، وما عبثاً فعلوا ذلك فالشبه واضح .

ومن (السبب) بمعنى الوسيلة اشتـُقّ (التسبـُّب) اي التوسل بذريعة ما فقالوا (يتسبـَّب) بمعنى يطلب الرزق اي يلتمس وسيلة لكسب المـــال . ويقال اليوم (المتسبـِّب) بمعنى الكاسب ، وهو فوق الكادح ودون التاجر .

ثم تطور معنى السبب من الوسيلة فصار يعني الطريق . وربما كانت لفظة (السبيل) متطورة من السبب بإضافة اللام . يدل على هذا أن اللام أضيف الى (السَـبّ) ايضاً ، اي الشتم ، وهي من نفس مادة (السبب) فقالوا (يسبـّله) بمعنى يسبـّه .

وقالوا : (**تقطعت به الاسباب**) أي الحبال ، أو الصّلات ، او الوسائل ، أو السـُبُل .

ومن كثرة استعمال السبب بمعنى الوسيلة وقع في الوهم أن معنـــاه العلـّة – ومعنى الوسيلة قريب من معنى العلـّة على كل حال – كقولك مثلاً ان المديح سبب العطاء ، تعني واسطته .. فيظن السامع أنه علـّته .

وبقيت الكلمة تستعمل بهذين المعنيين – الواسطة والعـــلة – في الجاهلية والاسلام ، حتى تحضر القوم و (أخذوا بأسباب المدنية والعلم) فارتفع شأن

هذه اللفظة وطفرت في مرحلة التطور طفرة كبرى فدخلت ميـــدان الثقافة والفكر .. واستعملها النحاة في مثل قولهم (**الفاء السببية**) . واستعمـــل العروضيون (**السبب**) بمعنى الحرفين المتحركين او الحرف المتحرك يليه ساكن. ثم دخلت الكلمة حرم المنطق والفلسفة فدارت حـــولها المجادلات وثارت الخصومات ، وما زال شأنها حتى اليوم عظيماً . وما هي في أول نشأتها إلا قطعة حبل ، يُربَط بها دلو .

الاطناب (وِزان الإصلاح) :

معناه الإسهاب والإطالة . أصله فيما يبدو من (**الطُنُب**) — بضمتـــين — وهو الحبل الطويل يُشَدّ به السرادق او الخيمة . واستعير المعنى لكل شيء طويل ، فقالوا (طنِب الفرسُ) — وزان عَلِم يعلم — أي طال ظهره ورجلاه. وقالوا : (**أطنبت الخيل** ، أو الإبل) اذا تبع بعضها بعضاً ، كأنهم يشبهونها بالحبل الممتدّ . و الاطناب في المقال او الخطاب من العيوب البلاغية .

العدالة :

الغريب ان العدل يعني الجور . لأن قولك (عَدَل فلان عن الطريق) ما زال يعني انه جار ، اي انحرف عنه . وقولك (عَدَل عن رأيه) يعني رجع ، أي نكل عنه .

ويخيّل لي ان اكتساب هذه الكلمة الجائرة معنى الإقساط والحكم بالحق قد جاء من قولهم (عادَله على الدابة) اي ركب معه عليها في الجانب الثاني من المحمل . وكل من الراكبين يسمّى عديلاً . ونحن نسمي من يتزوّجان الأختين (عديلين) تشبيهاً لهما بالراكبين (**المتعادلين**) على جانبي المحمل فوق الدابة . ذلك ان ركوب المرء وحده على جانب من المحمل يجعله (يعدِل) أي يميل ، فاذا ركب شخص آخر في الجانب الثاني (عادَلَه) اي وازنه . ومن هنـــا

صارت الغرارة تسمّى (العِدل) – وزان الذئب – لأن الغرارتين تُحمَل كل منهما على جانب من الدابة لتتعادلا .

وبعد أن وصلت الكلمة هذه المرحلة من التطور – اي التوازن و **التعادل** – أصبح من السهل عليها أن ترتقي في مدارج الرفعة فتعني (**العَدْل**) – وزان الفضل – اي المساواة ، و (**العدالة**) اي القضاء .

و (**الكاتب العَدْل**) معروف . وأما (**الاعتدال**) فهو القصد نقيض التطرف ، وقد عدُّوه من الفضائل ، بل رأس الفضائل . وأما (**اعتدال القوام**) فلعله أحب عند الشعراء من كل اعتدال سواه . و (**المعادلة الجبرية**) يعرفها طلاب الرياضيات .

وهكذا تفترق هاتان الأختان (العدل والجور) وتختلف طريقهما في مدارج الحياة ، فصارت احداهما تعني النصفة والثانية تعني الظلم . وكذلك الناس .

الفضيلة (وزان الخميلة) :

هي البِرّ والمكرمة ، وهي أحسن ما يتصف به الانسان ، وتُعَدّ غاية التربية التي طالما تحدث عنها الفلاسفة من قديم الزمان .

أصل الكلمة من فعل (**فضل يفضل**) – وزان كتب يكتب ، أو علم يعلم – بمعنى زاد وبقيت منه بقية . و (**الفَضْلة**) هي الزيادة ، ومنها (**فضلة الزاد**) . ويبدو لي ان فضلة الزاد هذه هي أصل اشتقاق المكارم من هذه الكلمة . فلا بد أنهم قالوا قديماً (**تفضل عليه**) بمعنى أعطاه (فضلة) طعامه . وتقول المعاجم ان معنى (**تفضل عليه**) هو : أناله من فضله .. والأصح عندي : من فضلته . و **الفضل** هو الفضلة على كل حال . واذا قال المستعطي : (**تفضَّلْ عليّ**) او (أعطني من فضلك) فهو يقصد : أعطني ما (فضل من طعامك) او (ما فضل عن حاجتك من مالك) .. ولما كان البخيل يضنّ بالفضلات فقد صار بذلها علامة الكرم ، ثم صار الكرم يعني بذل المال ولو عن

غير زيادة فيه . والمثالية العربية عدّت البذل سيد المكارم لكـــثرة تعرّض الانسان العربي في جزيرته القاحلة للحاجة الى العون من طعام وشراب ، لذلك كان البخل في مفهومهم واللؤم شيئاً واحداً ، وما عبثاً صار (الكرَم) يعني عندهم السخاء والنبل في وقت واحد . فطبيعي إذن ان يصبح (التفضل) – الذي صار بالتدريج يعني البذل والجود – سيد المكارم ، ثم يشمل معناه جميع المكارم .. اي (الفضائل) . والعادة اذا تطور معنى الكلمة ان يتعايش المفهومان : القديم والجديد ، أمداً قد يطول وقد يقصر . وبعض المعاني القديمة الأمّ ما زالت تواكب أولادها من المعاني المستحدثة منذ العهود الجاهلية حتى يومنا هذا . ومن أمثلة ذلك كلمتنا التي بين أيدينا الآن – الفضل – فهي مـــا زالت تحتفـــظ بمعنييها كليهما : الزيادة والمكرمة . فمن معنى الزيادة ما زلنا نقول (الفضلة) – وزِان النمـــلة – و (الفُضالة) – وزِان السلالة – و (الفُضُول) وزِان النزول . وأما (الفضولي) فهو الذي يتدخل فيما لا يعنيه من الشؤون ، وأصل المعنى : من يهتم بالزوائد و (الفضول) . ومن معنى المكرمة : (الفضل) اي العلم ، وأصـــل معناها الإحسان . وكلمة (الفاضل) اكتسبت معنى العالم الى جانب الكريم ، وكذلك (المفضال) . و (الفضيلة) نقيض الرذيلة .

التدبُّر (وزِان التقدم) :

يعني التفكر والتأمل . و (تدَبُّر الامر) : تمحيصه ودرسه ، و (تدبيره): تهيئته وتنظيمه . يقال : نحن في التدبير والله في التقدير .

وأصـــل الكلمة من (الدُبْر) – وزِان الطهر – وهو من كل شيء آخره .

و (التدبير) جاء من قولهم (دبّر الأمر) وكأنما قصدوا حسب حساب

عــــاقبته ، لذلك قالت بعض المعاجم ان (التدبير) هو النظر في (أدبار) الأمر .

وقد كنا ارتأينا آنفاً أن (الدبر) مشتق من (الورْد) – وزان الحرص – بعد قلب الكلمة وإبدال واوها باءاً وتغيير حركة أولها .

الفصاحـة :

هي وضوح الكلام وخلوُّه من الغموض . والرجل (الفصيح) : المنطيق (المُفصِح) أي المبين . ثم صارت (الفصاحة) تعني البلاغة ، و (الفصيح) البليغ .

أصلها من قولهم (فَصَحَ اللبنُ) – كظهر يظهر ، وزناً ومعنى ، أي بَان بعد أخذ رغوته . و (فَصَّح) بتشديد الصاد : ذهبت رغوته . ويبدو أنه كانت لظهور اللبن من تحت رغوته أهمية خاصة عند العرب فاستعملوا الكلمة الدالة عليه بمعنى الظهور والبيان لكل شيء . ومن ذلك قولهم (صرَّح اللبنُ) – بتشديد الراء – بمعنى ظهر ايضاً فهو صريح . ثم استعيرت (الصراحـــــة) للجهر بالرأي .

وقالوا (النهار المفصح) بمعنى الصافي الخالي من الغيم ، كأنهم يشبهونه باللبن صفا وخلص من الرغوة .

كذلك استعار العرب (الفَصْـــح) – وزان الفتح – و (الافصاح) – وزان الاصلاح – لمعنى الايضاح والإفهام ، فقالوا (فَصَحَ الاعجميُّ) – وزان ذهَب – اي تكلَّم العربية لأنهم يفهمونها ، و (أفصح الصبيُّ) بمعنى حَسُن منطقه ، و (أفصح الفرسُ) بمعنى صفا صهيله ، و (أفصح الصبحُ) بمعنى ظهر ضوؤه ، و (أفصح الرجلُ عن مراده) بمعنى أعرب عنه وأبانه . ومن كل هذا استعيرت الفصاحة للواضح الجيد من الكلام .

الجزالة (وزان الغزالة) :

هي الجودة على العموم . وقد خصّوا الاسلوب أو البيان من شعر ونثر بالجزالة ، فهو (جزْل) – وزان الفضل – أي متين التركيب فصيح اللفظ حسن المعنى ، او نحو ذلك .

وأصل معنى الجزالة هو الغلَظ والعِظَم – وزان الهمم . والظاهر ان الغلَظ هو الأصل ، وهو الخشونة والخُلوّ من الأناقة والتصفيف ، لذلك قيل (جزالة البداوة) أي بساطة التركيب وخشونته ومتانته . ثم أطلقوا الكلمة على الكرم والكثرة في العطاء ، وفي كل شيء . فقيل مثلاً (أجزل له العطاء) أي كثّره ، و (لكم الشكر الجزيل) .

الرياضة :

علوم الحساب والهندسة والجبر والمثلثات وما إليها تسمّى كلها (الرياضة) أو (الرياضيات) . وتطلق (الرياضة) كذلك على الحركات البدنية التي يراد بها تقوية الجسم . وقد استعار المتصوفة (الرياضة) لتهذيب النفس بتعويدها المشقات من زهد وحرمان تشبيهاً لها بمشقة (الرياضة البدنية) . وفي الدارجة العراقية تعني الرياضة المحنة ايضاً .

وأصل المعنى من (رياضة المهر ، أو ترويضه) اي تدريبه وتعويده السير وفق مرام الراكب . ومنه (ترويض الوحوش) اي تذليلها وتعويدها الطاعة واداء ألعاب وحركات .

الرسم :

هو التخطيط والتصوير . ويعني كذلك التنصيب اي (الترسيم) في المنصب، وغالباً ما تستعمل في الرتب الكنسيّة .

والمعنى الجاهلي للكلمة هو ذهاب الشيء وبقاء أثره ، مثل قولهم ان (المطر رَسَم الديارَ) اي محاها وأبقى أثرها على الأرض . ثم صار الرسم يعني الأثر نفسه مثل (رسوم الديار) اي آثارها . والظاهر أن أصل المعنى من قولهم ان (البعير يرسم) اي يترك سيرُه أثراً على الأرض ، فهو (رَسُوم) — وزان رسول .

وأصبح أثر السير هذا يعني الخطّ فقيل (رسّمت الثوب) — بالتشديد — بمعنى خطّطته ، اي جعلت فيه (رسوماً) وخطوطاً . ومن التخطيط تطور المعنى فصار (الرسم) يعني التصوير ، و (الرسّام) المصوّر بيده ، لا بالآلة .

واشتق المتأخرون (المرسوم) وهو ما كان يصدره الولاة والسلاطين من الأوامر بمعنى (الفرمان) . وصارت بعض الاقطار العربية تستعمله بهذا المعنى فتقول (المرسوم الملكي) ، وفي الجمهوريات (المرسوم الجمهوري) .

وبعض الاقطار العربية تستعمل (المراسيم) بمعنى الآداب والسنن المتبعة في المناسبات (الرسمية) من حفلات واستقبالات ، بدلاً من تعبير (التشريفات) الذي يستعمله بعض آخر منها . وكل هذا أصله أثر خُفّ البعير على الارض عند سيره .

السياسة :

معروفٌ أمرها . أصلها من (ساس الدوابّ) اي قام على أمرها ، والفاعل (السائس) . ولما أخذت الكلمة معنى (سياسة الناس) وتدبير أمورهم صار الفاعل يسمى (السياسيّ) نسبة الى المصدر ، بدلاً من (السائس) الذي ما زال يعني مدبّر أمور الخيل .

الاسهاب (وزِان الإطناب) :

في الكتابة والقول هو الإطالة ، عكس الاختصار . وأصل المعنى (أسهبَ الفرسُ) اي اتسع خطوُه وأمعن في السير .

الجبر (وِزان الصبر) :

هو العلم الرياضي المعروف . أصل معناه من (جبر العظم) اي معالجته من الكسر . وقد استعيرت في علم الحساب أيضاً بنفس المنحى فقيل (جبر الكسور) بمعنى إعادتها الى اعداد صحيحة . و (العدد الجبري) صنو العدد الكسري .

اليَراع (وِزان السماء) :

لفظة أدبية حسنة الوقع في السمع يظنها القارىء نوعاً راقياً من الاقلام ، وما هي إلا القصب العادي ، أو مزمار الراعي المصنوع من القصب . ذلك بأن القوم كانوا يكتبون بالقصب فأطلقوا اسمه على القلم ، كما كان الأوربيون يكتبون بالريشة فأطلقوا اسمها على القلم مثل (plume) الفرنسية من (pluma) اللاتينية ، و (pen) الانكليزية من (penna) اللاتينية ايضاً . وكلتا الكلمتين اللاتينيتين تعني الريشة . وقد تأثرنا نحن بالريشة من مكاننا فصرنا نقول بغير داع ان الصورة (بريشة فلان) تقليداً للأوربيين مع اننا لم نستعمل الريشة للكتابة ولا للرسم . على ان الرسم لا يكون بالريشة حتى عند الاوربيين بـــل بالفرشاة ، فالأصحّ أن يقال ان الصورة (بفرشاة) فلان . ومعروف ان السيد خروشوف رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي (السابق) حين رأى بعض صـــور المدارس الحديثة في الرسم قال : كأنها مرسومة بذيل حمار . فاذا أخذنا بهذا المذهب يمكننا بدلاً من القول عن الصورة من هذا النوع انها مرسومة بريشة فلان ، أن نقول : انها مرسومة بذيل حمار فلان ..

كذلك القلم :

ويقابلها باللاتينية (calamus) ، وبالاغريقيّة (kalamos) ، وأصل معناها: القصب .

كذلك المجلّد (وِزان المهنّد) :

فهو من (جِلد) الحيوان ، لأن الكتب كان غلافها يصنع من الجـــلد . و (تجليد) الكتاب كان يعني تغليفه بالجلد فعلاً . أما الآن فقلما يستعمل الجلد في (التجليد) وإنما الأغلب استعمال أنواع مخصوصة من الورق أو اللدائن ، لكننا ما زلنا نسمي التغليف بهذه المواد تجليداً .

و الوَرَق (وِزان الشجر) :

هو القرطاس الذي يكتب عليه ، وهو مقتبس من (وَرَق الشجر) لأن العرب حين عرفت الورق لم تجد شيئاً تشبّهه به أصـــلح من وَرَق الشجرة لتسطحه وقلة سمكه . والكلمة في الفارسية (بَرْك — barg) وهو عنـــدهم كذلك ورق الشجر وورق الكتابة . وظاهرٌ ان لفظـــة (ورق) العربية و (بَرْك) الفارسية كلمة واحدة في الأصل اختلف نطقها قليلاً لدى الأمتين ، وظل المعنى متفقاً . ومما يزيد الصلة وضوحاً بينهما ان الكلمة تنطق بالعراقية الدارجة (ورگه — wargah) وكأنها حلقة وصـــل بين الصورة الفارسية والصورة العربية الفصحى للكلمة .

و الثقافة :

من (التثقيف) وهو تقويم المعوجّ من الرماح والقصب وتسويته . وقد نجم من هذا المعنى (تثقيف الغلام) اي تهذيبه وتقويم سلوكه . ثم صار (الثَّقَف) يعني الحذق وسرعة الفهم . وتحدد المعنى أخيراً في عصرنا فأصبح خاصاً بالعلم والفقاهة في المعرفة .

و الدَّرْس :

هو التمحيص والفهم . ومنه اشتُقّ (التدريس) و (المدرسة) وما الى

ذلك . أصله من فعـــل (دَرَس درساً) – وزان أكل أكلاً – بمعنى اندثر وانمحى . ومن ذلك (**الآثار الدوارس** ، أو : **الدارسة** ، او : **المندرسة**) أي المنطمسة ، و (**الثوب الدارس**) اي البالي . ومنه (**دَرْس سنابل القمح**) بالنـَّوْرج اي إبلاؤها وتهريتها لكي يسهل خروج حبات القمح منها .

ومنه (**درس الكتاب**) أي استخراج ما فيه من العلم ! والعرب ميّالون فيما يبدو الى العنف في معنى التفهم ، فما اكتفـــوا بالدرس من معنى السحق والإبلاء بل تزيّدوا فأضافوا القتل فقالوا (قتلوا الأمر خُبْراً) او (قتلوا الموضوع درساً) .

***

كان العرب أمة شديدة الحيوية عظيمة القدرة على التكيـّف والتطوّر السريع حينما تاحت لها فرصة للتمدّن والارتفاع . وقد ظهر هذا منذ سحيق الدهور كلما اندفعت موجة بدويّة من الجزيرة العربية الى أحد الأقطار المجاورة ، من أرميين وكنعانيين وأكديين وغيرهم من قبلهم . ويتضح هذا على الأخص عند اندفاق الموجة الاسلامية الكبيرة من تلك الصحراء .

هذه الحيوية الفارطة سرت من العرب الى لغتهم . وبتعبير علمي : ان العرب تركوا أثراً واضحاً من هذه الحيوية الفارطة في لغتهم . فكلما قطع البدوي شوطاً من مرحلة الحياة اصطحب معه ألفاظه الصحراوية واشتق من أسماء حيواناته وأدواته البسيطة الساذَجة ألفاظاً جديدة للتعبير عن المعاني والأفكار الحضارية الدقيقة : فلسفية وعلمية وصناعية وفنية وغيرها . وقد رأينا شيئاً قليـــلاً من ذلك فيما تقدم بنا من القول .

ان التأمل في بعض الألفاظ والتعابير العربية – الكثير منها – يكشف لنا بجلاء مبين ما خلـّفته حياتهم الاجتماعية والاقتصادية من آثار ناطقة في لغتهم بحيث أصبح بالإمكان من خلال هذه اللغة ان ندرس نواحي من تاريخهم وعاداتهم

وأخلاقهم عفّى عليها الزمن منذ آماد بعيدة فضيعها التاريخ ولم يعد بيدنا مصدر غير اللغة يعيننا على تفهمها . بل اننا إذا أردنا دراسة هذه النواحي من حياة القوم ، حتى في العهود التاريخية المعروفة ، دراسةً واعية متقنة كان من المفيد جداً في ذلك تمحيص لغتهم وتعرّف ما طرأ على ألفاظها ومعانيها من تطورات خطيرة شائقة . ولئن كان الكثير من شعرهم ونثرهم يمكن الطعن في صحته لكثرة ما لفّق الرواة منه واختلقوه فان الألفاظ ومعانيها — مما وعته لنا المعاجم والموسوعات وما يمكن ان نستخلصه منها عن كيفية نشوء تلك المعاني والألفاظ وتطورها — لَشَواهد صدق وأدلة هداية في عمايات التاريخ الجاهلي المنطمس البعيد .

إن لمعظم الألفاظ العربية معاني شتى في القاموس ، منها الحقيقي ومنها المجازي . وهي بطبيعة الحال غير مرتبة في المعاجم ترتيباً زمنياً يرينا أيها قديم وأيها حديث ، وأيها استُحدث من الآخر ، وكيف استحدث هذا من ذاك . ولكن المتأمل المدقق لا يصعب عليه ان يستعين بالمنطق في استنباط ذلك — بالضبط في بعض الاحوال وبالتقريب والتخمين في أحوال أخرى — فيهتدي عن هذا الطريق الى تعقيب خط السَّيْر الذي سلكته الكلمة العربية في تطورها وتقمصها مختلف المعاني في مختلف الأجيال والبيئات.. كالذي رأينا في : **السبب**، و **الجمال** ، و **الذيل** ، و **العقل** ، و **الرسم** ، و **نشدان الضالة** ، وأمثالها من ألفاظ دلّتنا على بعض المعروف والمجهول من سجايا القوم ومعاييرهم الاجتماعية . وإن لبعض الألفاظ من الطاقة الكشفية لمعرفة الحقائق للمؤرخ ما يضعها في مرتبة اللُّقَى الأثرية عند المنقب .

يقول (شرلوك هولمز) ان الانسان اذا استعمل أداةً مدةً من الزمن ترك عليها آثاراً من طباعه وأخلاقه وسيرته ، وان بالامكان التعرف على الكثير من ذلك بمجرد فحص تلك الأداة فحصاً واعياً فاهماً . ولست أذكر نص كلام شرلوك هولمز فقد كنت قرأت في أيام الحداثة شيئاً بهذا المعنى في احدى قصص

(كونان دُويل) . ولكني أجد هذا الآن ينطبق انطباقاً رائعاً على اللغة ، فهي (أداة) اجتماعية تستعملها أمة مدى أجيال وتترك فيها آثاراً صادقة الدلالة أكيدة الفائدة ، اذا نحن أحسنّا فحصها وتعمّقنا في تحليلها . ولعل هذا أصدق على اللغة العربية العريقة الواسعة العميقة ، بالذات .

لهذا أعتقد أنه يجب دراسة لغتنا هذه في تاريخها المديد الفسيح الارجاء ، من مختلف نواحيها العديدة ، لا من ناحية صلتها بالبهائم والأربطة فقط .

هذا مجرد استلفات للنظر الى موضوع أثيره وأدعو أصحابه من المتخصصين في التاريخ والاجتماع وعلم النفس وأضرابهم من الباحثين للتمعن فيه ، لان اللغة قد لابست هذه العلوم وغيرها ملابسة شديدة معقدة ممتعة .

ولا شك انه كذلك من واجب اللغويين الذين كان أكثرهم منـــذ القدم يقضون أعمارهم في حفظ أكبر عدد تستوعبه أدمغتهم من الالفاظ الآبدة ، يباهون بذلك ويجادل بعضهم بعضاً في المجالس والمجامع ، ليبكّتوا الخصوم أو ينالوا الجوائز .. لا يُعنَى أكثرهم بتقليب مفردات اللغة إلا تقليباً سطحياً. وإذا خطر لهم ان يتفهّموا العـــلاقة بين بعضها وبعضها فمن ناحية الشكل والظاهر .. ليقولوا هذا خطأ وهذا صواب ، خبطَ عشواء ، في عناد ومكابرة في كثير من الاحيان — كالذي يظهر من بعض ما تركوا من مساجلات ومهاترات لغوية — حتى جعلوا كل خطأ صواباً وكل صواب خطأً ، فأحدثوا في اللغة من البلبلة والاضطراب ، عمداً وعفواً ، ما يكاد يتعذر تلافيه .

ان ركب اللغة يسير في تطوره الاجتماعي الدائب غير عابىء بخطأ القاموسيين وصوابهم ، وان الالفاظ والمصطلحات تتغير معانيها ومبانيها ، ويصـــارع بعضها بعضاً ، ويموت بعضها ويولد بعضها ، وفقاً لقوانين اجتماعية دقيقة ، دون أن يستأذنهم أحد او جيل في صياغة كلمة جديدة ، أو إلقاء كلمة قديمة او جديدة في سلة النفايات . وقد بدأ العرب اليـــوم يجددون حاجاتهم فغدوا

يتصرفون في لغتهم وفق حاجاتهم الجديدة لا وفق حاجات أجدادهم وأجداد أجداد أجدادهم ، ويتكلمون بلغتهم لا بلغة المعاجم .

ان المعجم يجهزنا بالمادة التي تصلح لدرس اللغة القديمة والمادة التي تصلح لصنع لغة جديدة عصرية منها . فاللغة ليست نهائية كأحكام الصلاة وشعائر الحج ، ولم تكن نهائية في يوم من الايام .. كما يريدها المعجميون دائماً . وان الأمم المتمدينة اليوم تعيد طبع معاجمها كل بضعة أعوام ، واذا كل طبعة لا تخلو من معانٍ جديدة لبعض الالفاظ وألفاظ جديدة لبعض المعاني . وان ما تجلّى لأعيننا في حديثنا هذا وحده من تطور الألفاظ والمعاني في لغتنا – حتى في جاهليتها – لعبرة لقوم يربطون ، أعني يعقلون !

لقد أخذ الاساتذة اللغويون أخيراً بدرس اللغة على نحو عصري جديد مفيد، وأعتقد أنه آن لنا أيضاً ان نفعل بالمفردات اللغوية ما يفعل المنقبون بالآثار القديمة يستنبطون منها التاريخ ويتفهمون المدنيّات .

وان في المعاجم الزاخرة بالمفردات لمعيناً لا ينضب من المادة الغُفْل لمن أراد درساً وتتبعاً . لقد انقضى دور الجمع والتدوين منذ عصور كما نعلم ، وقد أدّى الأقدمون واجبهم فيه على خير ما استطاعوا ، فلهم منا الشكر والثناء .. وقد حان اليوم ، بل منذ عهد بعيد ، دور الغربلة والتمحيص والاستخلاص . بل ان بعض القدامى قد فعلوا من ذلك ما يستحق الاعجاب ، وقد جاء بعضهم بنظريات في علم اللغة لم يتوصل إليها الغربيون إلا أخيراً . ولكن انهيار الحضارة العربية الاسلامية في المشرق والمغرب بسبب الغزو الاجنبي قضى على تلك الحركة العلمية الحضارية الصاخبة الفياضة فانقطع تيار البحث العلمي المتدفق ذاك وبقي نشاط أولئك الرواد اللغويين مبتوراً ناقصاً لم يتيسر له الاستمرار والنماء .

ومتى أنجز اللغويون المحدثون هذه البحوث كانت لأساتذة التاريخ والاجتماع

مصادر غنية تعينهم على استنباط العادات والاخلاق والمثُـل ، ولا سيما ما اندثر منها ولم يَعُد لنا من المصادر الباقية ما يدلـّنا عليه غير هـــذه الآثار اللغوية .. او تعينهم على مقابلة ما لديهم من مصادر التاريخ على ما لديهم من مصادر اللغة — وما أحسب هذا او ذاك من نوافل الامور .

وبتعبير آخر : لقد آن أوان « **التنقيبات القاموسية** » **بحثاً عن** « **الآثار اللغوية** » ..

عودة الى

العربي والآرامي والعبري

كانت مجلة (سومر) قد نشرت في (المجلد ١٤ لسنة ١٩٥٨) مقالاً لي بعنوان (عربي ، آرامي ، عبري) ، ردّ عليه الدكتور ابراهيم السامرائي (في المجلد ١٦ من نفس المجلة) أي بعد عامين . وقد وصلني المجلد هنا في پكين بعد بضعة شهور من صدوره، فأحببت الإجابة عليه في أوانه ولكن حالت دون ذلك أشغال وأسفار .

ومن الممتع ان أجدني الآن بعد مرور أكثر من ثلاثة أعوام على ظهور مقالتي أتحدث الى القراء ثانية في الموضوع .

وأود قبل كل شيء أن أشكر الناقد لثنائه عليّ في أول مقاله ، ولا ينقص من شكري له استدراكه قائلاً : (**غير ان سلوك هذا السبيل مضن شاق ، فصاحبه ملزم ان يكون له من الوسائل ما يسهل عليه هذه المهمة الشاقة العسيرة ، والاسلوب الذي درج عليه الكاتب الفاضل يقتضيه ان يكون على علم بالاصوات واللهجات وتاريخ علوم اللغة**) — كأنما يقصد انني اقتحمت موضوعاً لم استكمل أداته فكان ينبغي ان أتركه لأهله ، ولا سيما أنه قال عن نفسه قبل أن يتحدث عني انه قد سلخ (**اعواماً في موضوع هذه اللغات الساميّة وفي مادة مقارنتها بغية الوصول الى فهم مشكلات هذه العربية نحواً وصرفاً ولغة**) .

واذا علم القارىء الكريم اني بالاضافة الى تضلعه هذا من اللغات السامية ومقارنتها قد قرأت له في نفس العدد من المجلة مقالاً قيّماً عنوانه (الجمع في العربية) استطاع أن يدرك بأي اهتمام قرأت نقده لي .

اسلوب النقد :

ولكن الذي وجـــدته ان النقد لم يكن من مستوى ذلك المقال استنباطاً واستقراءاً — حتى ليستغرب المرء أن يكون كاتبهما واحداً .

وها أنا أورد للقارىء بعض النماذج من هذا النقد :

كنت قد قلت في مقالي السابق : « ان مخرج الباء قريب جداً من مخرج الميم في الفم » فانتقدني الاستاذ الفاصل لأني قلت « في الفم » ولم أقل « من الشفة » .

وقلت : « فلو سددت أنفك وقلت ماما لخرجت من فمك بابا » .. فقال الناقد : « كان عليه ان يقول ان الفارق بينهما ان الميم صوت يدخل فيه الأنف» .

وقال الناقد في مكان آخر : « **ولقـــد فات كاتب المقال ان الامم السامية تنطق بصوت العين وهو من اجل ذلك ظاهر في لغاتهم جميعاً** » . ولو تفضل الناقد فأعاد النظر في مقالنا لاتضح له ان الأمر ما فاتنا ، لان ما قلناه هـــو العكس ، كما سيأتي :

ان نقد الدكتور السامرائي يقوم بجملته على نسيان بعض النقاط الجوهرية مما يعطي القارىء صورة ناقصة جداً عن مقالنا . وبودنا لو أعاد قراءة مقالنا ليجد فيه أجوبة واضحة على اعتراضاته ، ويعيد النظر في نقده . وسوف نحيل الناقد الكريم على مقالنا كلما دعت المناسبة .

ولعل القارىء يتساءل ما بالنا نعمد الى الرد ما دامت إحالة الناقد والقارىء على مقالنا الاول تكفي جواباً على هذا النقد الذي رأينا منه بعض النماذج ؟

الواقع ان نقد الدكتور ابراهيم السامرائي قد تطرّق الى قضايا لغوية جديرة بالامعان والتدبر ، منها ما عرَضنا له في مقالنا الاول ومنها ما لم نـتَعْرِض له . ودراسة اللغة على أسس جديدة واعية ، تخرج بعض الخروج على التقليد المألوف في كتب الأقدمين ، أمر صار يستثير اهتمامي ويستهويني .

أرَمي ام آرامي ؟

وقد ظن الناقد اني اخترت كلمة (أرَمي) ولم أختر (آرامي) لأن هذه الاخيرة تفسد عليّ كثيراً من رأيي ، على حدّ تعبيره . وهذا أحد الامثلة على إغفال ما كتبناه ، فلو تفضل بالرجوع الى مقالنا لوجـــد اننا أوضحنا سبب اختيارنا صيغة (أرَميّ) ، وهو أن المصادر المسمارية هكذا ذكرتها ، ولم ترد فيها صيغة (آرامي) بالرغم من كثرة الصيغ الاخرى . وقد ذكرنا الامثلة والنصوص بالحروف العربية واللاتينية . وكنا نود لو أن الناقد الفاضل لحظ هذا وذكره للقراء ، ثم له بعد ذلك أن يناقشه ويخطّئنا فيه ان شاء . كذلك كان بودنا لو أنه لحظ شيئاً آخر ، وهو أن كُتّاب مجلة (سومر) قد دأبوا في هذه الاعوام الاخيرة على تسمية الآراميين أرميين واللغة الآرامية ارمية . وحبذا لو سألهم عن أسبابهم — بعد أن عرف سببنا . ونحسبهم قد اتبعوا في ذلك رأياً للمرحوم أنستاس الكرملي الذي ارتأى ان آرام مشتقة من اسم (إرَم ذات العماد) .

العين في اللغات السامية :

وذكرنا في مقالنا الاول انه ربما كان الاجانب هم الذين ساعدوا على تحريف كلمة (عربي) لعجزهم عن نطق صوت العين ، وما زال قائلهم يقول (أرَبي) بدلاً من (عربي) . وقلنا ان الأكديين كانوا ينطقون العين في الواقع إلا أنهم كانوا يكتبونها همزة لانهم استعملوا الحروف السومرية الخالية من العين لخلوّ اللغة السومرية نفسها منها . وأبدينا تعجبنا لعدم محاولة الاكديين والآشوريين استحداث علامة تدل على العين يضيفونها الى الحروف السومرية وهم الذين أضافوا الكثير من المخترعات والمستحدثات الى الحضارة السومرية .

ولم نتوقع بعد هذا ان يقول الناقد : (**ولا بد ان نأتي الى تفصيلات لنقول فيها ما يفسد عـــلى كاتب المقالة « رأيه » او « نظريته » . لقد ظن الاستاذ**

الفاضل ان موضوع « الابدال » في اللغة يوصله الى ما يريد ، وهكذا افترض ان العين في « عربي » و « عربية » وجميع صور الكلمة صارت همزة، واستدل على ذلك بأن امماً كثيرة لا تستطيع نطق العين ... ولقد فات كاتب المقال ان الامم الساميّة تنطق بصوت العين وهو من اجل ذلك ظاهر في لغاتهم جميعاً ، واكبر الظن ان الصوت قد وجد في الاكدية ولكنهم رسموا الرسم الذي اتخذوه للهمزة) .

ويبدو ان الناقد سها عن قولنا بوجود العين في الاكدية ، فظن ان الأمر قد فاتنا ، فأعاده علينا .

العنعنة عند العرب :

وأضاف الناقد الى ما تقدم قوله : « وقد ابدلت العين من الهمزة كثيراً في العربية ، ولم يحدث العكس في العربية مطلقاً . وهذا ما اصطلحوا عليه بالعنعنة . وقد خصوا هذا النطق بتميم وقيس من قبائل العرب » .

يقول الناقد هذا توّاً بعد قوله السابق الذي اعترف فيه اننا تكلمنا على إبدال العين همزة من قبل « الامم الكثيرة التي لا تستطيع نطق العين » ، ولم نقل انه من فعل العرب . كما أننا بيّنا في مقالنا الاول كيف يؤثّر الاجانب في لغتنا أحياناً ، وضربنا الامثال .

والعنعنة موجودة اليوم عند العراقيين في الشمال والجنوب . وقد ذكرنا في مقالنا الاول ان حارس الآثار في أطلال نمرود (قرب الموصل) سمّى الآشوريين (عاشوريين) كما ذكرنا اننا سمعنا أحد الجنوبيين في بغداد يقول لصاحبه : « هالمسعلة ما تخلص قبل ما تجتمع الهيعة » . ونضيف الى ذلك ان الكثيرين من الفلاحين والبدو في العراق يقولون (لع) بدلاً من (لا) . وهذا يعم بعض الريفيين خارج العراق ايضاً ، وقد سمعت ذلك من بعضهم في مصر مثلاً .

فان صحّ ان الامرَ قد كان مختصاً بقيس وتميم في عهد من العهود التي أدركتها كتب اللغـــة فان ذلك لا يعني انه كان فيهما وحدهما منذ الازل ليبقى فيهما وحدهما الى الابد . ان كتب اللغة فقيرة جداً بالرغم من كثرة ما استوعبت من معلومات ، لان ما أفلت من شباك المدوّنين أكثر مما اصطادوا من فرائد اللغة العربية وشواردها وأوابدها وبوائدها .

أما قول الناقد الفاضل ان إبدال العين همزة « لم يحدث في العربية مطلقاً » فنرى الاصلح أن نشك فيه قليلاً ، فان التفاعلات اللغوية من التعقيد والخفاء والانفلات من كل قاعدة ، بحيث يصعب إطلاق حكم فيها كهذا بدون معرفة تامة بكل الوقائع والتفصيلات ، وهو الامر الذي صار اليوم بحكم المستحيلات . صحيح ان كتب الاقدمين ادّعت ذلك لكننا نؤثر المنطق والاستقراء على كل كتاب ، ونرى من واجبنا اليوم ان نتعلم من كتب الاقدمين لا أن نعبدها . وصحيح ان العرب اكثرت من إبدال الهمزة عيناً كالذي ذكرنا في مقالنا الاول، غير أننا لا نملك دليلاً على ان جميع العرب ، في جميع العصور لم يحدث (مطلقاً) أن أبدلوا العين همزة . ولدينا في العربية كلمات غير قليلة نطقهـــا العرب بالهمزة وبالعين معاً ، مثـــل : يأبه ويعبأ ، إستأدَى عليه واستعدَى، موتٌ زُؤاف وزعاف ...

وليس لدينا ما يدل على ان أحد هذين الحرفين (العين والهمزة) سبـــق الآخر في الوجود لنعرف أيهما مبدل من الآخر . على أننا أمْيَل شخصياً الى أن إبدال العين همزة في بعض الكلمات العربية قد جرى بتأثير الغرباء المجاورين من فُـرس وروم وغيرهم ممن خالطوا العرب وعجزوا عن نطق بعض الحروف العربية فأبدلوا العين همزة وتأثر بهم بعض من خالطهم من العرب ثم فشا ذلك في بعض القبائل أو كلها . ولا نستبعد أن بعض الاعاجم قالوا (أربون) بدلاً من (عربون) فعاد العرب فأخذوها عنهم على هذا النحو . ويحتمل ايضاً أن يكون بعض الاعراب الذين خالطوا الأعاجم قد أعدَتْـهم هذه النزعة فسرت إليهم كما تسري الظواهر والعادات اللغـــوية في كثير من الاحيان ، فصاروا

ينطقون العين همزة بوجه عام . وعلى هذا ربما يمكن القول ان العرب نطقوا العين همزة في بعض الاحوال او الاوقات – عن طريق الاعاجم ، إن لم يكونوا فعلوا ذلك مباشرة .

وتأثير الاجانب في اللغة العربية بحث قائم برأسه، له شعب وفيه تعقيدات، ولعلي أعالجه يوماً على حدة [1] . والامثلة كثيرة لا تكاد تنتهي ، وآمل أن يكون القليل الذي أوردناه هنا وفي مقالنا الاول كافياً لاقناع القارىء بأن الاجانب قد يؤثرون في لغتنا ، وأن هنالك ألفاظاً غير قليلة تسافر الى الاقطار الاجنبية فتبدل زيّها وتعود إلينا متفرنجة مستعجمة .. شأنها في ذلك شأن البشر تماماً .

في تسمية العربية أرَمية :

ويقول ناقدنا : (ولكن ابدال الباء من الميم او العكس لم يكن مطلقاً وانما هو مقيّد بالسماع ، فقد سُمع في العربية « أربي » و « ارمي » بمعنى واحد ، وربما كان ذلك مختص – كذا – بجهة معينة من جهات العربية ، وعلى هذا ان الذي قال « بكة » لا يقول « مكة ») .

ونود ان نلفت نظر القارىء الكريم الى اعتراف ناقدنا الفاضل بأن العرب قالت « أربي » و « أرمي » بمعنى واحد ، فان هذا تأييد – لا تفنيد – لرأينا في احتمال اشتقاق العربي والأرمي كل منهما من الآخر . لقد مرّ بنا أن الساميين كتبوا (أربي) بمعنى (عربي) ، وهنا يؤيد لنا الناقد ان العرب أيضاً قالت (أربي) بمعنى (أرمي) ، فهكذا أصبحت كلمة (الأربي) عنصراً مشتركاً

---

١ – عالجنا الموضوع على حدة فيما بعد . وتفادياً من التكرار نحذف هنـــا بعض الفقرات لنوردها بشيء من التفصيـــل في فصل يجده القارىء تالياً بعنوان « تأثير الاعاجم في لغة الاعارب » .. علماً بأن جوابنا هذا على الناقد كان قـــد نشر بتمامه في جريدة « الزمان » – بغداد – في العددين ٧٥٠٣ و ٧٥٠٤ الصادرين يومي ١٧ و ١٨ آب ١٩٦٢ .

بين الاثنين : العربي والأرمي — فهي تدل على العربي في المسمارية وعلى الارمي في العربية .

وأما قول الدكتور السامرائي ان الذي قال (بكة) لا يقول (مكة) فقد رأينا ان القرآن نفسه قال مكة وبكة معاً . وفي الامكان كذلك إيراد عدد لا يحصى من الالفاظ جاءت في العربية على وجهين او أكثر . قالت العرب : حان وآن ، أراق وهراق ، لمح ولمع ، قصم وقصل . بل لقد قالت العرب قطع وقطف وقطل وقطم . وعسى أن يتكرم الناقد بالرجوع مرة أخرى الى مقالنا ليجد اننا قد ذكرنا ان : اللوث واللوص واللوخ واللوط واللوق واللوذ واللّواذ واللّياذ — قد تكون في الاصل كلمة واحدة لانها كلها تعني الخلط واللصوق... الى ما لا يكاد ينتهي من الكلمات التي أبدل العرب حروفها واستعملوها جميعاً في وقت واحد وأمكنة عديدة . وجائز ان يختص بعض القبائل بنطق أحد الحروف المبدلة دون سواه اول الامر ، ولكن الخُلطة بين القبائل تعمل عملها في الغالب ، فينتقل النطق الخاص بها من قبيل الى قبيل، وقد يعمّ العرب كافة ، أو يعم الكثيرين منهم . واذا كان الأعاجم يستطيعون التأثير في تغيير معاني ألفاظنا ومبانيها بعد ان يستعيروها ويعيدوها إلينا كالذي مرّ بنا ، فأحرى بالقبائل العربية ان يؤثر بعضها في بعض .

ويكرر الناقد الفاضل هذا الرأي في مكان آخر فيقول : (ان الابدال وان القلب مميزات اقليمية ضيقة قد توجد في بقعة ولا توجد في بقعة اخرى ، ودليلنا على هذا ما نراه في لهجاتنا الدارجة في عصرنا هذا) . ونقول هنا عن القلب ما قلناه آنفاً عن الابدال ، وهو أنه يظهر أولاً في منطقة ولكنه قد ينتشر ويعم . ولا شك ان جميع الالفاظ العربية ، سواء ما بقي منها على حاله وما لحقه التغيير من إبدال وقلب وتحريف في المبنى والمعنى .. كل واحدة من هذه الالفاظ قد نبتت في مكان ما ، في زمان ما ، لسبب ما ، وتكلم بها فرد اولاً ، ثم أفراد او عائلة ، ثم قبيلة ، ثم انتقلت حتى عمت كلّياً او جزئياً . وما كلماتٌ مثل عربي وأرمي وعبري ... وألوف الكلمات الاخرى إلا وقد

سارت هذا المسير . فما توجد كلمة يمكن أن تسمّى (قديمة) بمعنى انها أزلية ثابتة ، بل كلها (حادثة) ومتغيرة ، وأكثرها سارية اي تنتشر بما يشبه العدوى .

لهذا لا اتفق مع الناقد في أن العنعنة مثلاً ميزة خاصة بقيس وتميم بمعنى أنها لم تتجاوز ولا يمكن أن تتجاوز الى سواهما من القبائل . وانما أنا أفهم من ذلك ان قيساً وتميماً كانتا تنطقان الهمزة عيناً في زمن ما ، ولا يمنع ذلك من ان تكون هذه الظاهرة قد انتقلت إليهما من قبيلة اخرى لعلها بادت ، او ان تنتقل منهما الى قبيلة أو قبائل اخرى لا تزال موجودة . وما جميع أهل الارياف الذين يعنعنون في العراق وغيره – كما ذكرنا – من قيس وتميم .

وان كان اللغويون لم يدونوا كل ذلك فلأن ما جهلوه من أمر هذه اللهجات أكثر مما عرفوه . وقد تم جمع تلك المدوّنات الناقصة – على كثرتها وأهميتها – في عصور متأخرة كما هو معلوم ، وما أكثر ما دخلها من الخطأ والتلفيق . ولا بد أن بعض اللهجات التي عرفها اللغويون لبعض القبائل كانت تنطق بها قبائل أخرى لم يصل علمها إليهم . فالصواب إذن ان نأخذ هذه المعلومات للاسترشاد بها والاستدلال بواسطتها لا أن نسلّم بكل ما جاء فيها ، او أن نفهمها على أنها (مانعة) اي لا يجوز الحيد عنها . حتى لو افترضنا أنها مانعة اي صحيحة كلها لا تجوز مخالفتها ، فلا يمكن بوجه من الوجوه ان نعتبرها (جامعة) فنخطّىء كلّ رأي ما لم يكن مسطوراً فيها .

اللثغة الموصلية :

بل ان الظواهر اللغوية كثيراً ما تنصرف الى قوم آخرين ثم تزول من أصحابها الأولين . وقد تبقى عند الفريقين . وأضرب للقارىء مثلاً على الظاهرة اللغوية تنبع عند قوم ثم تختفي لديهم بعد أن يقتبسها سواهم عنهم ، وهو أن أهل الموصل معروفون بنطق الراء غيناً ، وهي أبرز خصائص اللهجة الموصلية

التي يتندّر بها العراقيون ولا سيا البغداديين ، على الموصليـــين ، مثل قولهم : البصغة في البصرة ، وغمّان في رمّان ، وبغطيل في برطيل ، وغفش في رفش ، وغيق في ريق ، وجغّة في جرّة ، وغاس في رأس ، وغوح في روح ...

فهذه الظاهرة اللغوية المستحبّة ، أو المستهجنة – ونترك تقدير ذلك لأهل بغداد أنفسهم قبل ان نشرح المسألة – نعم هذه الظاهرة اللغوية أصلها من بغداد. فقد كانت بعض المليحات من إماء وحرائر يعجزن عن نطـــق الراء ، ولا سيا الأعجميات منهن، فيلثغن فيها. ولما كان كل ما يفعل الحبيب حبيباً فقد استحب عشاقُ الجمال ذلك منهن ، فصارت طالبات التأنق والتجمّل يقلدنهن، فانتشرت اللثغة حتى عمّت بمرور الاجيال أهلَ بغداد ، كالذي حصل لأهل پاريس مثلاً .

ثم سرت عدوى هذه الظاهرة التأنقية من بغداد الى الموصل وبقيت فيها . ولما كان معظم أهل بغداد الأصَلاء قد انقرضوا او تفرقوا في البـــلاد بسبب الكوارث المتوالية من حروب وأوبئة وفيضانات ، فاحتل بغدادَ مراراً غيرُ أهلها من سكان الانحاء ، فقـــد اندرست اللثغة في موطنها الأصيل بغداد ، وظلت الموصل مبتلاةً ، أو متنعمةً ، بها .

على أن اللثغة في الموصل سماعية ، فثمة ألفاظ – ولو قليـــلة – ينطقونها بالراء ، مثل : عَرَبانه ، طرشى ، برغل ، برميل ، وغيرها . والموصليون بدورهم يتندرون على الآخرين الذين ينطقون هذه الالفاظ بالغَيْن حين يقلدون اللهجة الموصلية . ويظهر ان هذه الكلمات الرائيّة دخلت لغة الموصل بعد أن طغى عليها طوفان اللثغة من بغداد فنطقوها كما كان ينطقها أهلها المقتبسة عنهم . وعلى هذا يمكننا أن نتعرف على بعض الكلمات المستحدثة في الموصـــل بمجرد نطقها بالراء . ولكن هذه ليست بالقاعدة الدقيقة لان الموصليين ينطقون بعض الكلمات الفصيحة أيضاً بالراء ، مثل : يرتاح ، يرجع ، يرحم ... وأمثالها من الكلمات التي لا بد انهم كانوا يستعملونها منذ القدم ولثغوا فيها أول الامر ثم عادوا فنطقوها بالراء . والسبب فيما نظن هو كثرة من أقام في الموصل على مدى

الاجيال من أبناء العشائر والبدو حتى ان بعض أحياء المدينة ما زالت تتكلم باللهجات العشائرية .

ظواهر لغوية عالمية :

بل ان بعض الظواهر اللغوية لتوجد في أقوام مختلفة تتكلم لغات شتى . فان نطق الجيم گافاً فارسياً عند المصريين مثلاً يوجد ما يشبهه في إيران ، فالاتراك القاطنون في شماليّ إيران ينطقون الگاف الفارسي جيماً بغير استثناء ، سواء في لغتهم الاصلية (التركية) أو لغتهم الرسمية (الفارسية) . ونذكر من ذلك نموذجين يعرفها العرب ويختلفون في نطقها وهما : (گيلاني وگرگاني) بلسان أهل جنوبيّ إيران و (جيلاني وجرجاني) بلسان أهل شماليّها . وشبيه بذلك ان الأتراك والايرانيين جميعاً ينطقون الثاء سيناً والذال زاياً ، وهذا ما يفعله العرب في ديار الشام ومصر أيضاً . وعرب جنوبيّ العراق ينطقون الجيم ياءاً فيقولون : داية وياموسة ومينون ، بدلاً من : دجاجة وجاموسة ومجنون . وكذلك يفعل الالمان وبعض السلاف في نطق جادڤيكا وجونكرز ، إذ ينطقونها : يادڤيكا ويونكرز . ولعل العكس هنا أصح ، اي ان الاوروبيين الغربيين نطقوا الياء جيماً فقالوا : جوهان وجوزيف ، بدلاً من يوحنّا ويوسف. وقد تطرّقنا في مقالنا الاول الى أن هذا قد نجم من استعمال الجرمان حرف (J) للدلاله على الياء واستعمال الاوربيين الآخرين له للدلالة على الجيم . ولكن سبب نشوئه ليس المقصود هنا .

الابدال المركب :

ولم أفهم ما أراده الناقد المفضال بقوله : (**وليس من الطبيعي ان يحصل الابدال في موضعين من الكلمة الواحدة ، لانه لو جاز ذلك ، لجاز أيضاً ان يحصل في الكلمة إبدال واحد فتكون « عربي » و « عرمي »**) .

اني أعتقد أولاً أنه يجوز جداً إبدال حرفين ، بل ثلاثة حروف في الكلمة الواحدة . كما ان جواز إبدال حرفين في الكلمة لا يعني أن أحدهما اختياري لنا أن نُبدِله او نتركه كما نشاء ، لأن الإبدال بأنواعه سماعيّ لا قياسيّ ، كما ذكر الناقد نفسه . فما يجري على حرف في الكلمة لا ينطبق على حرف آخر ، وما يجري على كلمة لا ينطبق على سواها .

ولنضرب الآن مثلاً على إبدال الحرفين . قالت العرب : يعبأ ويأبَه ، يفحص ويبحث ، يلدغ ويلسع ، بحتٌ ومحض . وهذه الأشفاع [٢] الاربعة من الالفاظ كل فردة منها مشتقة من قرينتها بطريق الإبدال ، وكل منها تشترك مع قرينتها في حرف واحد وتختلف عنها في حرفين .

الابدال المتسلسل :

أما إبدال ثلاثة حروف فنضرب له مثلاً من كلمتي القصف والجذم اللتين نعتقد أنهما في الاصل كلمة واحدة أبدِلت حروفها الثلاثة جميعاً . ويبدو لنا أن إبدال الحروف الثلاثة في هاتين الكلمتين — او اللفظتين على الأصح لاننا قلنا انهما كلمة واحدة — لم يتم دفعة واحدة وإنما جرى على مراحل يمكن أن تكون هكذا : **قصف — قطف — قطم — قضم — خضم — خذم — جذم** . ومعلوم أن هذه الالفاظ فصيحة كلها وأنها تعني القطع كلها . ولعل (الجذم) قد تطور من (القضم) رأساً بابدال القاف جيماً ، وما زال البدو عندنا ينطقون القاف جيماً في مثل (جاعد) بمعنى قاعد ، وقد جاء في الفصحى أيضاً جراب السيف بمعنى قرابه .

وهناك السامك والشاهق أيضاً ، فانهما كلمة واحدة في الاصل . والاغلب فيما أرى ان الاصل هو فعل (سَمَا يسمو) بمعنى ارتفع ، ثم صار (سمك

---

٢ — الأشفاع جمع الشَفْع ونقصد به القرينين معاً .

يسمك) ومنهـــا (السَّماك) ، ثم نجمت (سَمَق يسمق) ومنها السامق و الشامخ ، ثم الشاهق .

وهذا كما يرى القارىء قد جرّنا الى ما يمكننا ان نسميه (**الابدال المتسلسل**)، وله في العربية نماذج كثيرة عجيبة آمل أن أعود الى البحث فيها يوماً .

وكنا قد أوردنا في مقالنا الاول أمثلة أخرى على تطـــور الالفاظ وأسماء الاعلام تطوراتٍ لا يكاد المرء يصدقها ، مثل : جُوڤاني ، جوهان ، جـــون ، اوهانيس ، إيڤان ، يحيَى – وكلها من يوحنا . . مما يجعل تطور كلمة أرَمي من عربي أمراً يسيراً جداً .

نموذج آخر من النقد :

ويسترسل الدكتور السامرائي فيقول : (يستدل كاتب المقال بنطق العين همزة في السريانية العراقية ، وفاته ان لهجة هؤلاء قد تأثرت بأمم أخرى..).

هنا أيضاً يظن ان الامر قد فاتنا . اننا نرجو ان يلحـــظ أننا تحدثنا عن النتيجة لا عن السبب . فليس يهمنا ان يكون إبدال العين همزة نزعة أصيلة او دخيلة عند القوم الذين حوّلوا كلمة عربي الى أرمي . ولو رجع الى مقالنا لرأى ان قصدنا هو وجود نزعة الإبدال هذه في السريانية العراقية وحسب . على اننا ما ذكرنا السريانية إلا على سبيل المثال فـــلم نقل ان السريان هم المسؤولون في هذا الامر .

وأما قول الناقد الفاضل ان اللهجة السريانية العراقية قد تأثرت بأمم أخرى فيؤيد ما قلناه عن تأثير الاعاجم – الامم الاخرى – في اللغة .

على انه يبرهن على رأيه هذا في تفنيد مُدّعانا بقوله : « ولعل مثل هذا قد حصل في العبرية ، فاليهودي الشرقي محتفظ بنطق العين لا يتعداه الى الهمزة أما اليهودي الغربي فهو يتعدى العـــين الى الهمزة وذلك لانه نشأ في بيئة لا وجود لهذا الصوت في لغاتها » .

فهذا أيضاً تأييد لكلامنا . وهذا الذي جرى لليهودي الغربي هو نفس ما قلناه عن الاكديين الذين حلّوا بين ظهراني السومريين .

تحريف الاسماء في التاريخ :

وقد ورد في نقد الدكتور السامرائي قوله : (ان كلمة « آرامي » و « آرامية » من الكلمات التي تشير الى لغة معينة ذات اصول معروفة وتاريخ معيَّن ، ووطن معروف . وان هذه متميزة عن العربية بوضوح وجلاء ، وينبغي على هذا ان « عربي » و « أرمي » ليس واحداً) .

ان الذي يبدو لنا من استعراض الحقائق هو ان الوطن المعروف واللغة المعينة والتاريخ المتميز ، كل أولئك لا يعصم أية كلمة من التحريف ، في موطنها ، ومن قبل أهلها أنفسهم ، قبل الغرباء أحياناً .

وها هي بلاد (نبُّون – Nippon) يسميها بعض الغربيين (جابُون – Japon) وبعضهم (جابَان – Japan) ونحن نسميها (اليابان) ، ولم ينقذها من هذا التحريف كل خصائصها ومميزاتها وتاريخها المعروف وجغرافيتها المحدودة . حتى الصينيون جيرانها يسمونها (إربن – Irpan) .

كوش وجيحون :

ولنأخذ اسم (كُوش) وهي أرض كانت تقع جنوبيّ بابل ، أُطلِق عليها هذا الاسم أحقاباً ثم زال عنها لسبب مجهول . ومن الغريب ان تسمّى به بعد ذلك أرض الحبشة أحقاباً أخرى ثم يزول عنها أيضاً حتى ان بعض مترجمي التوراة الى مختلف اللغات عندما يعددون أنهار جنة عدن فيذكرون « اسم النهر الثاني جيحون وهو المحيط بجميع أرض كوش » – يقولون : « جيحون

وهو المحيط بجميع أرض الحبشة » .. ناسين ان النهرين الثالث والرابع (دجلة والفرات) يقعان في العراق [3] .

وها نحن نرى ان اسم جيحون هذا – وهو ترعة كانت تتفرع من الفرات – قد انتقل الى مكان بعيد ، مثل انتقال اسم كُوش . ومثل ذلك اسم (خيبر) في الحجاز يطلق على ممر جبلي في الافغان . وان في مقدور التاريخ أن يفعل أكثر من ذلك .

بل ان الأرمية نفسها بالرغم من انها « تشير الى لغة معينة » قد طغى عليها اسم آشور فسمّيت (السريانية) بالعربية ، و (سيرياك – Syriac) باللغات الاوربية ، نسبةً الى (آشور – Assyria) .. واللغة الآشورية غير الأرمية طبعاً . فأيها أصعب قبولاً : تسمية العربية أرمية أم تسمية الأرمية سيرياك وسريانية ؟

ختاماً :

ويُنهي الدكتور ابراهيم السامرائي نقده بقوله : (وختاماً أقول : ان « عربي » و « ارمي » و « عبري » كلمات ذوات دلالات مختلفة ، فكل منها تدل على لغة معينة وان كانت تؤلف مع غيرها من لغات اسرة لغوية واحدة هي الاسرة السامية) .

وهذا يضطرنا الى إبداء ملاحظتين : أولاهما ان هـذا الختام يعود بنا الى الموضوع من أوله . فنحن لم نقل ان هاته الكلمات الثلاث تعني اليوم لغة واحدة واننا لا نعترف بأن كلا (منها تدل على لغة معينة) ، وانما قلنا انها كانت لغة واحدة في الاصل ثم اشتق بعضها من بعض كما اشتقت اللغات الثلاث نفسها بعضها من بعض .

---

٣ – بشأن جنة عدن وتحديد موقعها ومواقع أنهارها يراجع : وليم ولكوكس – « من جنة عدن الى نهر الاردن » – ترجمة محمد الهاشمي ، بغداد .

والملاحظة الثانية هي اننا لا نستطيع أن نصدر مثل هذا الحكم القاطع في هذا الأمر . وأنا شخصياً كنت قلت في مطالع مقالتي الاولى هذه العبارة : « أودّ أن أعرض رأياً لي في العلاقة بين اسم العربية والآرامية والعبرية لا يسنده نص قديم ولا حديث ، وانما هو نظرية خطرت لي منذ أعوام وما زلت أتحدث فيها كلما دعت مناسبة ، فلم أجد عند أحد ما ينقضها .. ولا ما يبرمها » .

وما اكتفيت بهذا بل ختمت المقالة كذلك بما يوحي بأنني أنا نفسي لم أكن مقتنعاً كل الاقتناع بهذه النظرية . وبالرغم من كثرة الأدلة والشواهد التي أزجيتها لم أقل في أثناء المقال ان لفظات العربي والأرمي والعبري قد اشتُقت بعضها من بعض ، وإنما كان كلامي حافلاً بالتحفظات والاحترازات تجنباً للزلل. وكل ما قلته هو أنه يجوز أو يحتمل ان تكون هذه الالفاظ قد اشتق بعضها من بعض . ولا شك ان القارىء الكريم قد لحظ ذلك في مقالنا هذا أيضاً . وخليق بالباحث ألا يجزم ما بقيت ذرة واحدة من الشك ، ولا سيا في موضوع معقد متشعّب كثير الاحتمالات والمزالق كالموضوعات اللغوية من هذا الطراز الذي نخوض فيه .

لهذا لا يمكن تفنيد نظريتنا إلا بطريقة واحدة : وهي ان يُثبت الناقد الفاضل ان القلب والابدال في هذه الالفاظ لم يكن ممكناً او محتملاً . وهذا هو الأمر الذي نظنه غير ممكن ولا محتمل .

لهذا يجدر بنا ألا نجزم بشيء ، بل نفسح المجال لأنفسنا ولغيرنا لتمحيص المسألة وترديد النظر فيها .

ونرجو — ختاماً — أن نقرأ للناقد بحوثاً مفيدة أخرى من عيار بحثه الذي أشرنا إليه . ولا يفوتنا أن نشكره على نقده الذي أتاح لنا إعادة الحديث في موضوع ممتع نتركه للباحثين يرون رأيهم فيه .

پكين : تشرين الثاني ١٩٦١

تأثير الاعاجم

في لغـــة الأعارب

ان تطور اللغة – أية لغة – انما يكون بتفاعل داخـــلي ، بين ابنائها ، أو باحتكاك خارجي مع غيرها من لغات بني الانسان . والثاني هو الذي نريد .

والاحتكاك الخارجي إما أن يؤثر في اللغة بإعطائها مفردات أجنبية جديدة تضاف الى ذخيرتها كالالفاظ الدخيلة الوافرة في جميع اللغات ومنها العربية ، وإما ان يؤثر في اللغة الاصيلة نفسها فيحدث فيها بعض التغيير . والثاني هـــو الذي نريد .

وتأثير الاجانب في اللغة الاصيلة نفسها يتم إما في موطن اللغة بين ظهراني أهلها ، وإما بعيداً عن موطنها في ديار أهلٍ غير أهلها .. وربما تعاون على اللفظة الصغيرة الواحدة أكثر من شعب ، أو عدة شعوب ليحرفوهـــا عن موضعها . وكلا من هذين الأمرين نريد .

والتأثير الاعجمي في اللسان العربي إما أن يحققه الاعاجم في ديارهم أو في ديار العرب ، وإما أن يحققه العرب في ديارهم أو في ديار الاعاجم دون تدخّل من الاعاجم أنفسهم .. وكلّ ذلك نريد .

ونبدأ بذكر بعض الالفاظ التي حملها الاعاجم الى مواطنهم فغيّروا مبناها أو معناها او كليهما ، ثم أعادوها إلينا فقبلناها منهم على علاتها ، أو زدناها نحن علاتٍ على علاتها .

سرجون

وفي تاريخ العراق أمثلة كثيرة من هذا الطراز . ولنأخذ منها اسم (سرجون)

وهو من أشهر الاسماء في تاريخ أرض الرافدين ، وقد تسمى به غير واحد من كبار الملوك . ان أصل هذا الاسم هو (شرُّوكين – Sharrukin) – وزان متروكين – ورد في الانكليزية بصيغة (سرگون – Sargon) بالكاف الفارسي. وكتب المصريون هـذا الكاف بالجيم لينطقوه بالكاف الفارسي على طريقتهم ، لكن العراقيين نقلوه عنهم بالجيم ونطقوه بالجيم ، فزادوا الامر اختلاطاً . وهذا يجري في عصر المعرفة الذي نعيش فيه ، ويترك أثره في وطن شرُّوكين نفسه .

سومر :

وأهم من شروكين اسم (سومر – Sumer) وما جرى له مع المحرّفـين القدماء والمحدثين . فقد سمّتها التوراة ارض (شنعار) ، وظل البشر ومنهم أهل الرافدين – سكان سومر – يعرفونها بهذا الاسم ، الى ان اكتشف المنقبون آثارها أخيراً فعرفوا اسمها الصحيح الذي به كان يسميها أهلها . وهو على كل ليس (سومر) فهذا أيضاً خطأ ، (بل شُمَر – Shumer) – وزان دُرَر ، بضم وفتح . ولكن المستشرقين كانوا قد اصطلحوا على كتابة حرف الشين بحرف (اس – S) عليه علامة مخصوصة دفعاً للالتباس الذي يحصل من استعمال حرفي (إس إچ – sh) اللذين يدل احدهما على السين والآخر على الهاء ، مخافة أن يتوهم القارىء فينطق كلا منهما على حدة بحيث اذا صادفته كلمة (Shumer) مثلا قرأها (سهومر) . وظن المستشرقون انهم باستعمالهم حروفهم الاصطلاحية ومنها الحرف الواحد المختص بالشين قد قضوا على كل لبس محتمل ، ولكن هذا الاحتراز من اللبس بذاته قـد سبب لبساً آخر بات مستعصياً تصحيحه إلا في المدى الطويل . ذلك بأن أكثر المطابع الاوروبية لا تملك ذلك الحرف المصطلح عليه للشين فاستعملت حرف (اس – S) البسيط المعتاد وحده فصار الناس ينطقون اسم (شمَر) بالسين ، وبضمة مديدة ايضاً ، فصار (سُومَر) . وقد قرأت في مطبوع نسيت اسمه ان بعض المجلات الانكليزية استمرت حتى عام ١٩٢٥ فيما أذكر – تكتبه بحرفي (إس إچ – sh) هـكذا : Shumer . ثم

غلب الخطأ لشيوعه على الصواب لندرته كما هي القاعدة في أمثال هذه الحال . وصار سكان أرض (شُمَّر) – العراقيون – ايضاً يسمونها سومر . بل ان مديرية الآثار العامة العراقية نفسها عندما أصـــدرت مجلتها الآثارية سمتها (سومر) بالعربية على الغلاف الايمن، و Sumer بالانكليزية على الغلاف الايسر .

آشور :

ومن أغرب ما أوقعنا فيه الاعاجم من أغلاط اسم سورية . فالسوريون يسمونها ونحن معهم نسميها (سورية) ، وهم يدعون أنفسهم ونحن معهم ندعوهم (السوريين) .. نزولاً عـــلى حكم الاعاجم – الاغريق – في هذه التسمية الخاطئة . واسمها العربي هو (الشآم) كما هو معلوم ، لكن الاغريق عرفوها جزءاً من الامبراطورية الآشورية (Assyria) فسمّوها (سيريا – Syria) ، وتبعهم العالم القديم ، ثم الحديث ، وتبعناهم . والظاهر أن الاغريق ما كانوا يفرّقون بين الاسمين ، وقد تبعهم اللاتين فاستعملوا الكلمتين بمعنى واحد .

ونتيجة لذلك سمّى الاغريقُ الارمية – او الآرامية على الشائع – (سيرياك – Syriac) اي السورية ، فقبلنا هذه التسمية ايضاً جرياً مع من قبلها مـــن العالمين وسميناها السريانية . كذلك سمّوا الأرميين – كل الارميين – (سيرياك – Syriac) أي أهل سورية فسميناهم (السريان) لانهم – بعضهم – كانوا يسكنون ارض الشآم . هذا على حين ان الارميين لم يكونوا كلهم يسكنون الشآم ، ولا كان كل سكان الشآم ارميين ، كما ان الشآم غـــير آشور ، واللغة الآشورية غير الارمية ، وان كانت مثلها ساميّة ترجع معها الى أصل واحد .

وان كانت هذه الملابسات قد اعتورت اسم آشور في العصور القديمة فان العصور الحديثة بالرغم من علومها وفنونها لم تبرأ من أمثال هذا الخطأ في حق آشور ايضاً . فقد اكتشف المنقبون الغربيون (آشور) وعرفوا اسمها قبل ان يكتشفوا سواها من انحاء العراق القديم ، فكان منهم أن سمّوْا علم التنقيب

الآثاري في العراق علم الآشوريات (أسّيريولوجي — Assyriology) ، وما زالوا على ذلك حتى يومنا ، ولا أدري الى متى سيظلون متمسكين بهذه التسمية بالرغم من اكتشافهم ربوعاً ودولاً عراقية قديمة أخرى . فالتاريخ الشُمَري ، والتاريخ الاكدي ، والحوري ، والكاشي .. كله آشوريات !

فاليوم عندنا خمسة ألفاظ من اسم آشور كالذي رأينا ، اربعة منها خطأ بفضل الاجانب ، وهي عدا آشور : سورية ، السريان ، السريانية ، الآشوريات .

على ان أهل الموصل يسمون الآشوريين (آثوريين) ، ولعل هذا هو الأصح ، من اسم الثور ، والثور المجنح شعار الآشوريين كما هو معلوم .

الترسانة :

ولنترك العراق وسورية ونضرب أمثلة من طراز آخر .

(الترسانة) كلمة عربية الاصل ، تفرنجت وغيّرت من زيّها الى حدٍّ أصبح من الصعب معه معرفتها بدون دليل . يستعملها المصريون بمعنى (دار الاسلحة) . وهي بالانكليزية (أرسينال — arsinal) التي تعني عندهم مؤسسة صنع الاسلحة والتجهيزات العسكرية . وهذه قد اقتبستها الانكليزية من الايطالية (دار سينا dar sena) وهذه في الاصل من العربية (دار الصناعة) .

ولكن الترسانة معروفٌ أنها كلمة أعجمية على كل حال ، ولولا ذلك لقال الباحثون اللغويون — من أمثالي — انها من (الترس) الذي يتقي بـه المحارب ضربات قريعه عند النزال كما يتقي الوطن ضربات العدو بالترسانة — أي دار الأسلحة .

أرضي شوكي :

وأهم من هذا — من الناحية اللغوية — ما يقال له في ديار الشام (ارضي

شوكي) ، والاكثرون يظنونه اسماً عربياً أصيلاً ، في حــين انه معرب عن الانكليزية ، عن الفرنسية ، عن الاسبانية ، عن العربية ! وهو (**الخرشوف**) – الثمر الذي يسمى في شمال العراق باسمه التركي (انگينار – enginar) ، وقلّ من يعرفه في العراق ولا سيا في الجنوب ، لندرته . وقد حرّف الاسبان اسم الخرشوف فدعوه (الگچوفه – alcachofa) ، وتناول الفرنسيون هذه اللفظة الاسبانية فجعلوها (أرتيشو – artichaut) ، ثم تلقاها الانكلـــيز فنطقوها (أرتيچوك – artichoke). فلما سمع الشآميون – عفوا : السوريون حسب التسمية الرسمية – هذه الكلمة لم يخامرهم ريب في انها (أرضيٌ **شوكيٌ**)، ولا سيا أن لهذا الثمر حراشف شائكة، وليس من المعقول ان تأتي كلمة **الشوك** التي يتميز بها هذا النبات و الارض التي يزرع فيها ، من الانكليزية بنفس المعنى العربي – كما قال لي أحدهم مجادلاً .

الگازوزة:

وشيء من هذا القبيل يمكن ان يقال عن (الگازوزة) – او **الغازوزة** كما يكتبها عرب المشرق . هذه الكلمة اليعربية أصلها **عرق السوس** ! وهو شراب يصنع من جذور شجر السوس . وما زال معروفاً في الموصل يبيعه السقّاء في الصيف خاصة في الاسواق البلدية القديمة ، وما زال معروفاً كذلك في ديار الشام وديار المغرب العربي ، وربما في ديار عربية أخرى . وقد كان العرب يستعملونه في الاندلس ، فاقتبسه الاسبان وسمّوه (**الكزوز** – alcazuz) . ويبدو أنه أعجب الاسپان وغيرهم من الاوروبيين الى حد أنهم أطلقوا اسمه على مختلف الأشربة من باب التغليب . ثم عاد الاسم الى العربية بصيغة (الگازوزة) فاطلق على الاشربة ذات الغاز عموماً . فلا غرو أن يتوهم بعضهم ان التسمية انما جاءت من كلمة (**الغاز**) هذه لوجودها واضحة في الاسم . وفي مثل هذه المصادفة المضلّلة – ومن قبلها مصادفتـَـي° الترسانة والارضي شوكي – عبرة للباحثين

ينبغي أن تعصمهم من التورط في مثل هذه المزالق اللغوية ومن التمادي في القياس والاستنتاج – وأنا كغيري كثيراً ما أفعل ذلك – اعتماداً على تشابه لفظيٍّ صراح يبدو كأنه لا سبيل الى الشك فيه .

المغازة :

وان شاء القارىء مزيداً من النماذج فها هي (المغازة) وفصيحها (المخزن) ، وأصلها العربي القح هو المخزن ايضاً . وهي بالانكليزية (مگازين magazine)، وقد أخذها الانكليز عن الفرنسيين، وهؤلاء عن الايطاليين، وهؤلاء عن العرب . وهي لا تعني في الانكليزية مخزن البضائع فقط بل المخزن من كل نوع عسكري كذلك : من مذاخر الاسلحة والاعتدة والبارود ، وحتى مخزن الرصاص في البندقية . وأخيراً صارت تعني المجلة . وشبه ذلك شأنها في الفرنسية [١] . ولو تناولها أحد اللغويين القدامى من العرب لقال ان المجلة انما سميت بذلك لأنها مخزن العلم ! ولعل هذا هو الصواب حقاً ، لأن المجلة كتيّب يحوي موضوعات شتى . ومهما يكن فالظاهر ان عرب المشرق أخذوا هذه الكلمة – اي المغازة – عن التُرك ، وهؤلاء عن الفرنسيين – لا الانكليز او الايطاليين – لأن الفرنسيين هم الذين ينطقونها (مگازاه – magazin) ، وكذلك ينطقها المغاربة في لغتهم الدارجة . وقد كادت الكلمة تندثر الآن في المشرق لأن كلمة (المخزن) استعادت مكانتها هناك او كادت .

الصفر :

واليك كلمة عربية أخرى مثلت دوراً خطيراً في أوربا ثم عادت الينـــا

---

١ – الفرنسيون يستعملون صيغة المذكر « مكازاه – magazin » للمخزن ، وصيغة المؤنث « مكازين – magazine » للمجلة ، لا ندري لماذا .. ربما لأنهم أخذوا المجلة بصيغتها هذه عن الانكليزية .

متفرنجة على العادة ، باسم (الشفرة) . وهذه الكلمة استعملتها وزارة الخارجية العراقية زمناً بمعنى الرموز السرية التي تتخابر بها برقياً مع مؤسساتها الدبلوماسية والقنصلية خـــارج العراق ، ثم بدا لها فسمّتها بعد ذلك (القاعدة الرّمزية) . وما زالت وزارة الدفاع العراقية تسمّيها (الجفرة) من باب التعريب . ونحسب ديوان الترجمة في تلك الوزارة انما قبلها على وجهها هذا بالرغم من تشدّده في التعرّب لانها تشبه كلمة (الجَفْر) التي تشمل كذلك أموراً مطلسمة سرية . واذا تحرينـــا نسب هذه الكلمة وجدنا أصله (الصِّفر) العربي المستعمل في الحساب . فهو في العربية يعني الفارغ الخاوي، فاذا هو رُسِم في مرتبة الآحاد او العشرات او المئات .. الخ ، كان المعنى فراغ تلك المرتبة من الأعداد . وقـد صار في أوربا يعني الطلاسم والاحاجي السرية ، المحرمة . ذلك بأن أهل الورع والتعصب الديني والقومي من الاوربيين النصارى قالوا كيف يكون الصفر لا شيء ثم هو يجعل الواحد عشرة ومئة وألفاً وألوفاً ؟.. فـــلا بد انه طراز من السحر الاسود ، ولا سيما انه جاء عن العرب المسلمين ، الذين كانوا عندهم أشد الناس كفراً وعداوة . وصاروا في بعض الاحوال يعاقبون من يستعمل الارقام العربية التي أخذ الناس يقبلون عليها لمنطقيتها وسهولتها بالقياس الى الارقام الرومانية التي لا تطاوع اجراء العمليات الحسابية بتلك المرونة، حتى صار بعض تجارهم ينظمون دفاترهم بالارقام العربية سراً بالرغم من خشيتهم العقوبة المسلطة على رؤوسهم .

ومن كل هذا صارت كلمة الصفر – (سايفر – cipher) بالانكليزية – تعني الطلاسم والرموز ، وما زالت تعني ذلك، حتى أخذها عنهم بعض العرب بهذا المعنى كالذي قلنا ، وهو شديد البعد عن معناها الاصلي : الفارغ .

وانما انقلب نطق السين في (cipher) جيماً فارسياً (مثلثاً) في ايطاليا على ما يبدو ، لان الايطاليين هم الذين ينطقون حرف (c) جيماً فارسياً اذا تلاه (i) او (e) ، فهم من أجل ذلك ينطقون cinema مثلاً : چينما ، و cento :

چنتو (أي مئة) . ولكن هذا الصوت الايطالي أصبح عند الفرنسيين شيئاً فهم ينطقونها (شِيفْرْ – chifre) ، وما زالت تعني عندهم الرقم .

المهم في بحثنا ان العرب في العراق وبعض الاقطار العربية الاخرى استعملوا الشيفرة او الجفرة باعتبارها أعجمية معربة ، وهي عربية متفرنجة فمتعرّبة ، كالمغتربين من العرب الذين يفقدون حتى لغتهم فاذا عادوا الى ديارهم رطنوا بلغة أعجمية .

وأما كلمة (زيرو – zero) في الانكليزية والفرنسية والايطالية وغيرها من اللغات الاوربية ، بمعنى الصفر ، فهي اقتباس ثانٍ من نفس الكلمة العربية (الصفر) .. بنفس المعنى هذه المرة . وقد جرى هذا الاقتباس الثاني من قبل اللاتينية التي سمته (zephyrum) ، وعنه أخذت الايطالية صيغتها المختصرة (zero) ، وينطقونها (تزيرو) .

يرى القارىء أي أساليب عجيبة وطرائق ماكرة تسلك الالفاظ العربية في استعجامها وعودتها الينا في غير زيّها ، حتى لتنكرها عين العربيّ فلا يتعرف عليها إلا العائف المدقق . بل ان بعضها لا يمكن الكشف عن هويتها وردّها الى أصلها العربي إلا باتّباع ما يشبه أساليب المُتَقَفّين في تعقيب المجرمين والعِصابيّين [1] .

لُبان جاوه :

فهل يبتغي القارىء نموذجاً من هذا الصنف بالاضافة الى ما تقدم ؟

---

١ – نضع كلمة « المُتَقَفّي » بالتشديد – وزان المتولّي – مقابل detective أي الشرطيّ السريّ بالانكليزية والفرنسية ، لأنها اشتقاق يطابق المعنى من جهة ولا يستعمل في معنى آخر من جهة أخرى . ونفضلها على « المُقْتَفي » بلا تشديد – زنة المقتدي – التي تستعمل بمعنى « المعقّب » في لغتنا اليومية ، ولا سيا ان « التَقَفّي » من صيغة التفعُّل تدل على التكلف وهو أصدق من مجرد الاقتفاء دلالةً على هذا الفن وما يتطلبه من تدّبر وجهد . وأما «العِصابيون» – بكسر العين – فنستعملها بمعنى رجال العصابات ، ومفردها: العِصابيّ .

اليك (البنزين) وهي الكلمة الشائعة في الكثير من اللغات يطلقونها على النوع المعروف من النفط المستعمل وقوداً للسيارات وغيرها من الآلات . من يستطيع غير (شرلوك هولمز) لغوي أن يزق الاقنعة عنها ليتعرف على ملامحها، التي لم تغيرها الاصباغ بل العمليات الجراحية المتوالية التي أبعدتها كل واحدة منها «رحلة» جديدة عن سحنتها العربية؟ الواقع انها ليست خالصة النسب في العروبة، وانما هي مولَّدة من أبوين أحدهما عربي والآخر أعجمي من أرض تبعد ألوف الاميال عن جزيرة العرب — اندونيسيا !

ولست أنا ذلك الشرلوك هولمز الذي طاردها من انكلترا الى اندونيسيا ، ولكنهم اللغويون الانكليز والفرنسيون تعاونوا عليها حتى فضحوا سرّها ، فعقبوها من انكلترا الى فرنسا الى بلاد العرب الى اندونيسيا ، كما يتعاون المتـَقـَفـُّون الدوليون في مطاردة كبار المجرمين .

ان (بنزين — benzine) الانكليزية من (بنزُوْين — benzoin) ، وهذه من الفرنسية (بنجوان — benjoin) ، وهذه من العربية (لـُبَان جاوة — luban jawah) !.. وهو النوع من الصمغ العطر المعروف بالجاوي، الذي كان يستعمل للبخور والتطرية ، وكان يصدره العرب الى أوربا .

وللكلمة في الانكليزية صيغ أخرى تعني كلها هذا الصمغ الجاوي وان اختلفت مبانيها بسبب الارتباك الذي يبدو ان الكلمة أحدثته عند دخولها انكلترا ، كما يغيّر المتنكر زيّه من مكان الى مكان فتختلف صوره وشخصه واحد . والباقي اليوم من هذه الصور في المعجم الانكليزي هي : (بنجوُيْن benjoin) ، و (بنزوين benzoin) ، بل حتى (بنجامين benjamin) ! وهذه الاخيرة بالاضافة الى معناها الصمغي تعني في الانكليزية نوعاً من المعاطف الرجالية أولاً ، وتعني الاخير من أولاد الرجل أي المسمّى عـُجْزة أبيه ثانياً ، كما انها ثالثاً اسم علم توراتي (بنيامين) مثل ابراهام وجون ، ومعناها بالعبرية (ابن اليمين) أي ابن اليد اليمنى ، وهذه ايضاً من العربية ، لا نشك في ذلك ،

لان كلمة (اليمين) حجازية المنبت في عقيدتنا ، ولنا في نشأة (اليمين واليسار) رأي ليس هنا مقام شرحه .

وقـــد جرت التطورات على (لبان جاوة) بعضها في فرنسا وبعضها في انكلترا . أما في فرنسا فيلوح لنا ان اول شيء فعلوه بها هو أنهم بتروا أول حرف منهـــا ، اي اللام ، ظناً منهم انــه لام التعريف الفرنسي ! . . ثم أجروا عليها عملية اخرى – او اكثر من عملية – حتى أصبحت (بنجوان – benjoin) .

ومن ثم تلقفها الانكليز . ويمكننا بالتخمين ان نتصور ما حدث . فلنفترض ان احد الانكليز القادمين من فرنسا – او أحد التجار الفرنسيين – قال ان هذا الصمغ اسمه : benjoin وهو يستعمل لكذا وكذا . . فعرفه بعض الانكليز بهذا الاسم . ولكن أحد السامعين من الانكليز أراد أن يذكر الاسم لزوجته مثلاً فخانته الذاكرة فقال : لقد نسيت اسمه ، ولكنه شيء قريب من اسم (بنجامين – Benjamin) ! ثم ان الزوجة قالت لجاراتها : هذا الشيء اسمه (بنجامين – benjamin) ! وهكذا شاعت الكلمة على هذا الشكل الى جانب (بنجوين – benjoin) . ولكن شخصاً آخر سمّاه للناس (بنزوين – benzoin) بابدال الجيم زاياً إما لضعف في الذاكرة وإما لخطأ في السمع وإمـــا لعجز في النطق او ما الى ذلك من دواعي التحريف . ولا بد ان الظروف اللغوية كانت مواتية لشيوع هذه الصيغة الاخرى . وهكذا أصبحت للكلمة ثلاث صور : اثنتان منها تختلفان عن الصورة الفرنسية ، وكلها يختلف عن الاصل العربي . وربما راجت لها عندئذ صيغ أخرى لم تتيسر لها ظروف الحياة فماتت . وبعد هذا وقع الاختلاف في المعنى فاشتقوا منهـا أسماء أطلقت على مواد نفطية لا علاقة لها باللّبان ولا بجاوة .

ومن طريف الامر ان مديرية الصناعة العامة في العراق أرادت ذات يوم – منذ أعوام – أن تضع كلمة عربية تدل عـــلى البنزين ، فرجعوا الى معجم

انكليزي لمعرفة معنى الكلمة بالدقة عسى أن يساعدهم ذلك على إيجاد الكلمة العربية المناسبة ، واذا بهم يفاجأون بأن أصلها (لـُبـَان جاوة) ، فكفـّوا عنها وسمحوا لهـــا بالاقامة في العراق بزيّها الاعجمي كرامةً لنسبها العربي الاندونيسي الهجين .

هذا وما قبله يدلنا على بعض مناحي التطـور اللغوي اولاً ، وعلى بعض مظاهر اشتراك مختلف الأمم في صياغة اللفظة اللغوية ثانياً ، بالاضافة الى دلالته على ما أردنا إليه من هذا البحث ، وهو تأثير الأعاجم في لغتنا العربية ثالثاً .

***

ويلاحظ القارىء ان ما أتينا به من نماذج يدخل في عربيتنا الدارجة لا الفصحى . فذلك لأننا نعاصر هذه النماذج ونلمسها في حياتنا اليومية في هذا القطر العربي او ذلك . والمعاجم الأجنبية تعترف بعروبتها ومن ثمّ لا مجال للريب او الجدال في شأنها . وانما نسميها عامية — او دارجة — لاننا لم نقبلها في الفصحى . وأما العرب الاقدمون فما كانوا يحجمون عن استعمال كلمة يحتاجون إليها للتعبير عن فكرة او الدلالة على شيء، بحجة انها أجنبية او دارجة . بل انهم ما كانوا يفرّقون بين فصيح ودارج وأعجمي . وانما كانوا يستعملون الكلمة كما يلبسون الثوب من أيّ البلاد أتى . وإن صحّ ان كلمة (الخندق) استحدثت على عهد النبي (ص) في غزوة الخندق من كلمة (كـَنـْدَه — kandeh) الفارسية التي تعني الحفيرة اتضح لنا مصداق ما نقول . وبتعبير آخر ان ما دخل العربية قديماً من المفردات الاعجمية قد أصبح فصيحاً وان ما دخلها حديثاً بقي عامياً ، وبتعبير ثالث ان جيلنا أشدّ حفاظاً على نقاء اللغة من عرب العهد الجاهـــلي وعرب عهد النهضة الاسلامية جميعاً .. مع انه — أي جيلنا — أجهلهم بها ! والسبب هو الشعور القومي طبعاً .

ولئن كانت تلك التأثيرات الاعجمية في لغتنا اليعربية قد حدثت في عصورنا

المتأخرة فلا بد ان مثلها قد حدث قبل الاسلام ، في العصور الجاهلية المتقدمة والمتأخرة ، فدخلت الفصحى ولم يعد من السهل علينا ان نعرف هل كان تطور بعض الالفاظ بفعل الاعاجم ام الاعارب . ذلك ان العرب كانوا أهل أسفار وملاحة وتجارة منذ سحيق الاحقاب ، حتى قبل التاريخ فيما نعتقد ، فلا شك ان مخالطتهم الاعاجم وأسفارهم قد سببت هجرة الكثير من المفردات العربية وعودتها متنكرة ، كما أن الكثير من الاعاجم رحلوا الى أصقاع عربية فاتحين او مهاجرين فتركوا آثاراً وافرة من لغاتهم ومن تحريفاتهم في اللغة العربية ولا سيما في الالفاظ التي يعجزون عن نطقها على النحو العربي لاحتوائها على أصوات لا وجود لها في لغاتهم . وليس يمكننا الآن بعد هذه الاحقاب الطوال ان نتعرف في لغة الجاهلية — بل لغاتها — على الكثير من أمثال الالفاظ العربية المتفرنجة التي مرّت بنا ، كما نفعل الآن مستعينين باللغات الاجنبية المعاصرة ومعاجمها اللغوية فنقول عن يقين او شبه يقين انها تطورت كذا وكذا . ولكن فقدان المعاجم القديمة لا يمنعنا من المحاولة ، باللجوء الى الحدس والملاحظة والمقايسة والاستنتاج — مع علمنا بما في ذلك من مزالق وتعرض للخطأ . فعلى هذا سيكون بحثنا فيما يلي أشبه بالتَقَفّي الذي يأخذ بالشبهة ويحكم بالظنة ، منه بجمع الحقائق وتقرير الواقع .

مع الفارسيّة

ولنبدأ بتأثير اللغة الفارسية في العربية . ولنبدأ من ذلك بذكر مثال معاصر نعرفه ونطمئن الى صحته ثم نعود الى الجاهلية لنقيس عليه أشباهه .

في العامية العراقية ألفاظ فارسية أصلها عربي كان الفرس قد أخذوها فحرفوا نطقها او معناها او كليهما ، ثم عدنا نحن فأخذناها عنهم كحالنا مع الاوربيين فيما تقدم بنا من الكلام . من ذلك مثلاً قولهم (جنابه الكسيف) أي الحقير او

الوسخ . وأصل الكلمة (كشيف) ومعنـــاها العربي معروف ، لكن الايرانيين بالرغم من انهم يكتبونها كالعرب بالثاء ينطقونها بالسين ويعنون بها الوَسِخ او القذِر . وقد عاد العراقيون فاقتبسوها عن الفرس بمعناها ولفظها الجديدين . ولو كان العرب قد استرجعوا كلمة (الكسيف) قبل الاسلام لما اعتبرت عامية ولما عرفنا انها من عمل الفرس ، بل لدخلت المعجم العربي باعتبارها عربية خالصة النسب مرادفة للكثيف او بمعناها الفارسي المستحدث. وربما كانت ترد في القرآن في ذم المنافقين او المشركين او الاصنام ، كما ورد الزنجبيل والسندس والاستبرق في وصف الجنة .

ولنتدرج في البحث خطوة فنذكر نموذجاً آخر قديماً حديثاً معـاً ، نتخذه تكأةً لنا في البحث . انه (اللَّوث) — زنة اللون — فقد وردت هذه الكلمة في العربية لوثاً ولوصاً ، وكلاهما بمعنى واحد ، هو التكوير او التكويم او ما هو نحو ذلك من جمع الشيء او الاشياء بغير نظام او هندمة . ومن ذلـك قولهم : لاث العمامة على رأسه او لاصها بمعنى . الارجح عندي ان الاصل منهما هو (اللَّوث) ولكن من تكلموا العربية من الفرس عجزوا عن نطق الثاء فنطقوها سيناً او صاداً فصارت (اللَّوْص) .

ان البحث كما قلنا قائم بجملته على التخمين الذي يتنافى مع الطريقة العلمية ، والذي لا يجوز ركوبه إلا باعتباره حيلة المضطر . وانما بدأت باتخاذ (اللوث) مثالاً لاني أكاد أكون مستيقناً منه ، كيما أبيح لنفسي ويبيح لي القارىء ان آتي بنظائره من النماذج فيما بعد . ذلك بأن الفرس المحدثين قد أعادوا العملية أمام أعيننا في هذه الكلمة بالذات .

ان معنى (اللَّوث) قد تطور الآن فصار يعني التدنيس او التوسيخ . وقد أغار الفرس ثانية على هذه الكلمة بمعناها المتطور الحديث هذا فصاروا يقولون (لَوْس) بمعنى التلوث او العطب . وأعاد العراقيون بدورهم الكرَّة فاقتبسوا هذه الصيغة ايضاً كأجدادهم فقالوا (اللوص و اللواص) بمعنى التخليـــط

والتخبيص . وقال الفرس (مُلَوَّسْ) بمعنى الملوّث فأخذها العراقيون بعد ان فكّوا ادغام الواو باقحام حرف العين في وسط الكلمة فقالوا (مُلَعْوَس) – كمزخرف – بنفس المعنى. هذا والفرس المحدثون إذ ينطقون الكلمة ومشتقاتها بالسين انما يكتبونها كالعرب بالثاء (لوث وملوّث) – ما لا يدع مجالاً للشك في ان كلمتي (اللوص والملعوس) العراقيتين منشؤهما النطق الفارسي لهذه الكلمة العربية .

بعد هذا الذي نراه بأعيننا ونسمعه بآذاننا في جيلنا ، لا أخالني كنت مسرفاً في الخيال حين بدا لي ان الفرس هم الذين أثروا في العرب قديماً فجعلوهم ينطقون الثاء صاداً في كلمة (اللوث) بمعناها القديم : التكوير والتكويم . ولو كان هذا قد حدث في الجاهلية لدخلت كلمتا (اللوص والملعوس) في المعجم العربي بالمعنى الحاضر كما دخلت فيه (اللوص) بالمعنى الآنف الذكر .

وقبل ان نورد بعض الامثلة التخمينية المحض نذكر نموذجاً واقعياً آخر – او يخيل لنا انه واقعي على الاقل – هو اسم قرية (زَهَاو) الايرانية ، واليها تنتسب عائلة الزهاوي العراقية ومنها المرحوم جميل صدقي الزهاوي الشاعر المعروف . فقد جاء اسمها في الخرائط القديمة (ذهاب) ، سميت بذلك لوقوعها على طريق الذهاب الى العراق – بين كرمنشاه وبغداد . ولكن الفرس لعجزهم عن نطق الذال ينطقونها على طريقتهم (زهاب) . وبعض اللهجات تنطق الباء واواً ايضاً فصارت (زهاو) . فان صحّ ان (ذهاب) هو أصل الاسم فمن حق الزهاويين ان يسموا أنفسهم (ذهابيين) .

وهذا الذي أقول بشأن اسم قرية (ذهاب) معروف ومقبول عند الكثيرين من الفرس . ولكن الوطنية تغلب على كثيرين آخرين ممن يحاولون تفريس كل ما يمكن تفريسه ، وتنقية لغتهم من المفردات العربية – وهي تحتل اكثر من ثلثي المعجم الفارسي – فيقولون ان اسم (زَهاو) فارسيّ بحت مؤلف من

(زِهْ = جيّد) و (آب = ماء) – أي الماء الطيب . وقد يكون هذا صواباً وقد يكون وطنية لا محل لها في البحث العلمي .

بعد ذكر هذه النماذج التي نطمئن الى صحة بعضها ونظن صحة بعضها ، نقدم على ايراد نماذج أخرى على القياس ، لنا ان نشك فيها .. ولكن ليس لنا ان نقبلها جزماً ، ولا ان نرفضها بتاتاً .

ومما يساعدنا على الاستدلال في هذا الباب هو ان الفرس يعجزون عن نطق بعض الاصوات العربية فاذا صادفتهم في كلمة فلا بد ان يُبدلوا بها أصواتاً أخرى يقدرون عليها . وهذه الاصوات هي (مع نطقها الفارسي) : ث ، ص (وينطقان : س) .. ح (تنطق : ه) .. ذ ، ض ، ظ (وثلاثتها تنطق: ز).. ط (تنطق : ت) .. ع (تنطق : أ) .

نموذج تخميني :

(**الذكاء**) يعني في العربية التوقد ، و (إذكاء) النار : إضرامها وتأجيجها ، و (ذكاء) العطر : سطوعه وانتشاره . ولكن الفارسي يقول (**زكاء**) بدل الذكاء ، فاذا سمع عربياً يقول (**ذكت** الزهرة) يعني انتشر اريجها قال الفارسي (**زكت**) فحرّف بذلك مبناها ، وربما فهم ان المقصود هو انها أينعت وحَسُن نموُّهـا فغيّر معناها ايضاً وصار يستعملها بهـذا المفهوم الجديد حتى شاعت واقتبسها العرب منه كما اقتبسوا منه اللوص قديماً واللوص والكسافة حديثاً .

نموذج آخر :

(**الزوج**) تعني – بلغة قريش على الاقل – الفرد الواحد من القرينين . وبهذا اللفظ والمعنى وردت في القرآن : « من كل زوجين اثنين » . وقد يعني (الزوج) القرينين كليهما . وأكثر العرب اليوم ينطقونها (**الجوز**) وفي المغرب (**جوج**)

– من وزن توت . ومن المحتمل ان هذه الصيغة (الجوز) كانت منذ القدم لغة في الزوج ولعلها كانت أشيع على ألسنة العرب ، او لعلها كانت لغـــة العرب المجاورين للفرس ، في الحيرة مثلاً ، ولو ان العراقيــين اليوم ينطقونها قرشية : (زوج) . وقد اقتبس الفرس فيما يظهر هذه الصيغة (الجوز) بمعنى الزوجين الاثنين فقالوا (جُفْت) بضم فسكون . ومن السهل ابدال الواو فاءاً لأنهم في الواقع ينطقونه فاءاً مثلثة اي مخففة مثل الحرف (V) . فاذا كتبنا كلمـة جوز بالحروف اللاتينية كما ينطقهـــا الفرس كانت هكذا : (jovz) . وهم ينطقون (جُفْت) هكذا : (joft) . ولا حاجة بنا الى التدليل على قرب النطق في اللفظتين . اما ان كانوا قد أخـــذوا كلمة (جُفْت) عن (زوج) القرشية رأساً فقد نطقوها هكذا (zovj) . وصياغة (جُفْت) من هذه أمر محتمل الوقوع كصياغتها من تلك . وما دام العرب أنفسهم قد جعلوا الزاي جيماً في المغرب فمنذا يستطيع أن يلوم الفرس اذا هم جعلوها جيماً او تاءاً ؟ ومهما يكن من أمر فقد صارت عند الفرس تعني الزوجين كليهما . وهي تعني ذلك عند أكثر عرب اليوم ان لم نقل كلهم ، اي في لغاتهم الدارجة . واذا مضينا في هذا الافتراض الى نهايته أمكننا ان نفترض أيضاً ان العرب عادوا فأخذوا عن الفرس كلمة (جُفت) فقالوا (الشَفْع) – وِزان الدفع – بمعنى الزوجين ، نقيض الوتر . وقد عمّت بهذا المعنى قريشاً وغيرها من احياء العرب فجاءت في القرآن : « والشفع والوتر ، وليالٍ عشر » . ونحن اليوم لا نستعمل في الفصحى لفظة بصيغة المفرد تدل على القرينين من الناس او الاشياء. وقد حلّ العامةُ هذه المشكلة باستعمال كلمة الزوج او الجوز ، او الجـُوج ، بهذا المعنى . غير انها لم تعد تصلح في الفصحى لهذا الاستعمال لأنها تعني كذلك الفرد من الزوجين . لهذا نقترح استعمال (الشَفْع) بمعنى الشخصين او الشيئين المقترنين ، فنقول : رأيت شفعاً من الناس اي شخصين ، واشتريت ثلاثة أشفاع من الجوارب اي ستّ فردات – على حين انك اذا قلت : اشتريت زوج حذاء ، كان المعنى في الفصحى أنك اشتريت فردة من شفع الحذاء .. واذا قلت اشتريت ثلاثة أزواج

جوارب ، كان المعنى انك اشتريت ثلاث فردات من ستّ . أما كلمة (الزّوّ) – زنة الجوّ – الفصيحة التي تؤدي المعنى بالدقة فمهجورة يظهر انه من الصعب احياؤها .

نموذج ثالث :

(الايتاء) .. ويبدو للوهلة الاولى أن (آتى يؤتي) مصوغة من فعـــل (أتى يأتي) بمعنى جاء يجيء ، فاذا أنت قرأت في القرآن « وآتيناه الحكم صبيا » بدا لك ان المعنى : جئناه بالحكم صبياً . غير أنها فيما أرى ليست إلا فعل (أعطى يعطي إعطاءاً) ينطقها الفرس بطبيعة الحال : آتى يؤتي إيتاءاً .. فتابعهم العرب في النطق . وعلى هذا يكون أصدق تفسير للآية : وأعطيناه الحكم ...

نماذج أخرى :

جَلَحت الشيء : كشفته وجـــلوته . ينطقها الفرس (**جَلَهْت**) وهي فصيحة أيضاً . فهل الفرس هم الذين استحدثوها لنا ؟

قصمت الشيء : قطعته . ينطقها الفرس (**قسمت**). فهل هم الذين أوجدوا هذه الكلمة الحسنة ؟

السمّ **الذعاف** : هل الفرس هم الذين ابتدعوا لنا منها (**الزعاف**) مرادفاً ؟

يربط و **يربد** : بمعنى واحد . ومنها (**المِرْبَد**) سوق البصرة المشهورة التي كانت على العهد الأموي خلفاً لسوق (عكاظ) المكيّة على العهد الجاهلي . فهل الفضل للفرس في تحريفها ؟

مثل هذا يقال عن : **يبذّ ويـــبزّ** ، **يقط ويقدّ** ، **يجذّ ويجز** ، **الجثماني** والجسماني ، **اللصق واللزق** ، **البصاق والبزاق** ، **نبث ونبس** ، **الغطاء والغشاء** ، **المذق** والمزج . ويمكن ان يقال مثل هذا أيضاً عن عدد لا يحصى من الألفاظ

العربية . ومن الطبيعي انه يجب علينا اذا أردنا التأكد ، أن نعرف أية صيغة من كل شفع من هذه النماذج هي الأصل الذي انبثقت منه الصيغة الثانية ، لأنه من المحتمل ان تكون بعض هذه الصيغ الثانية أسبق في مرحلة التطور من قرينتها ، وعندئذ يبطل استشهادنا بها .

ولست أعني ان العرب أنفسهم لم يغيّروا في المباني والمعاني في لغتهم نفسها ، فان معين القلب والابدال وتغيير الحركات والخلط والتحريف في العربية غزير جداً ، وكتب اللغة القديمة والحديثة حافلة بتفصيلات الكثير من ذلك . ولكن هذا لا يعني ان الاعاجم لم يشاركوا في جميع ذلك كالذي رأينا فعلاً في أول البحث . وإن كان العرب عرضة للخطأ والتحريف في لغتهم فالمعقول ان الاعاجم أقدر على ذلك وأجدر به ، فلا شك انهم يتحملون بعض المسؤولية في ذلك ، وبعبارة علمية أدقّ ان لهم الفضل في التعاون مع العرب عـــلى إمداد العربية بمفردات جديدة من المترادفات والمتشابهات والمتناقضات والشواذ فزادوا هذه اللغة العجيبة غنى على غناها وفوضى على فوضاها .

مع اللاتينيّـــة

وكانت الأمة الكبيرة الثانية التي خالطت العرب أمداً طويلاً فأثرت فيهم وتأثرت بهم هي أمة الروم . هؤلاء أيضاً يعجزون عن نطق الاصوات التي يعجز عن نطقها الفرس ، بل هم أعجز . لأن الفرس ينطقون أصوات الـ : خ، غ، ق – على حين ان الروم يتعذر عليهم نطق هذه الحروف ايضاً . وعلى هذا يمكننا أن نقول عن الروم في هذا الصدد كل ما قلناه عن الفرس ، بل أكثر .

وان شئنا مثالاً خاصاً بالروم ذكرنا (سفح الدم وسفكه) فلعلها من عملهم ، لأن ابدال الحاء كافاً ليس من شأن الفرس فهم اذا أرادوا ان يقولوا (سفّاح)

قالوا (سفّاه) . ويؤيد اتهامنا للروم في هذا بعض التأييد انهم حين اقتبسوا (حين) الظرفية هذه أبدلوا حاءها كافاً ايضاً فقالوا : cun و quom ، بنفس المعنى .

ولعل هذا المثال لم يعجبك كثيراً ، فلنضرب لك مثلاً آخر :

القُبع (وزان الشكر) :

يعني البوق في العربية . وأحسب ان القُبْع هو الاصل منها ، ولعله من (قباع) الخنزير او ما يشبه ذلك . وأحسب ان الروم هم الذين استحدثوا لنا (البوق) من الكلمة بعد ان طرحوا العين منها لتعذر نطقها عليهم ، ثم قلبوها. والذي سوّل لي هذا الظن هو ان (البوق) يدعى في اللاتينية (بوكينا — buccina) . وهو يعني أيّ بوق يحدث صوتاً بوجه عام والنفير الحربي الروماني بوجه خاص. وقد كان له دويٌّ صخّاب وصيت ذائع مخيف تسنده وتزيده ذيوعاً ومهابة الانتصارات الحربية الرومانية العديدة . فلا بدع ان يكون العرب قد اقتبسوا (البوق) بعد ان انقلب هذا المنقلَب كما اقتبس احفادهم الشيفرة والارضي شوكي . (ويجوز ايضاً ان العرب هم الذين صاغوا (البوق) من (القُبْع) بقلبٍ وإبدال ، ثم اقتبسته اللاتينية) .

واليك الكوخ :

ومنها صاغ العرب (الكاخ) . ومنها ايضاً صاغوا (الخُصّ) بقلب وإبدال .

والكلمة مشتركة بين العربية والفارسية وغيرها . وهي تعني في العربية : البيت القروي . وتنطق في الفارسية (كاخ) بمعنى : القصر ، ومنه (كاخِ سلطنت) أي البلاط الملكي . أما في اللاتينية فلها نفس المعنى العربي، أي البيت القروي ، مع تحريف يسير في المبنى لعجز الروم عن نطق الخاء كما قلنا ، فلذلك نطقوها (كاسا — casa) بعد ان أضافوا اليها الفتحة علامة تأنيث . ولكن

معناها تطور في الايطالية والاسبانية – بِنتَيِ اللاتينية – فأصبح يدل على الدار بوجه عام ، ومنها (كازا بلانكا – casablanca) : الدار البيضاء ، و (كازا نوفا – casanova) : الدار الجديدة .

ولما كان معنى الكلمة في اللاتينية هو معناها العربي فالظاهر ان اللاتينية اقتبستها من العربية ، لا من الفارسية .

وقد استخرج اللاتين منها : castrum و castellum بمعنى القلعة ، وأكبر الظن ان العرب أخذوا الصيغة الاولى منهما ، أعني : القصر !

وهكذا صارت الكلمة ومشتقاتها تعني من القلعة الى القصر فالبيت فالكوخ، الى ما هو أصغر حتى من الكوخ : الخُصّ[١] .

ومن الأمم التي خالطت العرب كذلك : الاغريق ، والهنود ، والاحباش ، وغيرهم من شعوب القارات الثلاث ، فلا بد ان تكون هذه الأمم قد أثرت كذلك في اللغة العربية على النحو الذي عرضناه .

يلاحظ ان ما أوردنا من أمثلة تخمينية كله بسيط معقول مقبول ، أقرب الى التصديق من الشيفرة والارضي شوكي . اما (البنزين) التي اعتورتها التحريفات والتعقيدات حتى انبهمت ملامحها وانطمس الشَبَه بينها وبين أصلها فلم يعد بامكاننا البحث عن أمثالها في لغة الجاهلية ، لان المصادر الضرورية لمثل هذا البحث تعوزنا ، ولأننا اذا تمسكنا بكل شَبَه زهيد في المعنى او المبنى قياساً على البنزين او حتى على الغازوزة، فقلّما تبقى كلمة لا نستطيع ردّها الى أصل عربي على وجه من الوجوه . حتى الشبه الصريح غير مأمون العاقبة ، وقد سبق لنا ان حذّرنا أنفسنا من الاغترار به .

---

١ – الكوخ وردت في الانكليزية والفرنسية ايضاً بصيغة cottage أقرب الى اللفظ العربي وبالمعنى العربي. ومن castellum اللاتينية بمعنى القلعة أخذ الانكليز: castle، والفرنسيون: chateau ، والايطاليون : castella .. الخ .

ان هذا على كل حـــال باب للبحث أفتحه على مصراعيه وأتركه للباحثين اللغويين يوغلون فيه ما أحبوا ويتوسعون ما شاؤوا ، ولا شك ان الايام ستلد فيه الكثير من كل ممتع مفيد .

أخطـــاء العرب

وثمة نوع آخر من التأثير الاعجمي في لغتنا ــ لا تأثير الاعاجم ولكن تأثير اللغات الاعجمية ، المسؤولون فيه هم العرب هذه المرة ، وهم المحدّثون من الكتّاب الذين أكثروا من قراءة الكتب الاجنبية مع رصيد متواضع من العربية، او تلقّوا تعليمهم باللغات الاجنبية فصاروا اذا تكلموا او كتبوا أشعروك انهم يترجمون عن اللغة التي تأثروا بهـــا . وقد سرى هذا النوع من التأثير حتى على كبار كتّاب العربية ان لم يكن ذلك مباشرة فبواسطة [١] . اما المجيدون من الكتّاب فقد انتفعوا من هذا ونفعوا فطعّموا العربية بتعابير طريفة بارعـــة أحسنوا تعريبها وصياغتها . وأما القاصرون في العربية فقلما أحسنوا ، وكثيراً ما اساؤوا . وقد عمّت بعض الاخطاء حتى صقلها الاستعمال فلم نعد نشعر بها . وكلنا يعرف الكثير من أمثلة ذلك .

نمـاذج :

اننا نستعمل (الحقل) مثلاً بمعنى الميدان والمضمار والمجال .. في كثير من المناسبات متأثرين بالانكليزية لأن كلمة (field) تعني بها الحقل والميدان معاً .

ونحن نقول (الوثائقي) بدلاً من (التسجيلي) لأن الانكليز ، وربما الأصح لأن الامريكان يفعلون ذلك إذ يقولون (documentary) .

---

١ ــ نستعمل « المواسطة » كلمة واحدة تغنينا عن القول : « بطريقة غير مباشرة » . وهي بعد دقيقة المعنى تفي بالمقصود .

وشبيه بهذا استعمال **الحُبّ** (love) بمعنى الحبيب ، و **الجمال** (beauty) بمعنى الحسناء ، و **الشباب** (youth) بمعنى الشاب، و **الممثل** (representative) بمعنى الوكيل . . .

ومن ذلك أيضاً تعبير (المشروبات الروحية) الذي يوهم ان هناك مشروبات أخرى (جسمية) ، بينما سُمّيت بذلك في العربية ترجمةً للكلمة الانكليزية (spirits) التي أطلقوها على المشروبات الكحـــولية لأن كلمة (spirit) — بصيغة المفرد — تعني الروح عندهم ، ومن ثم أطلقوها مجازاً على الكحول .. شبيهاً بقول العراقيين مثلاً : روح النعناع وروح القرنفل ، بمعنى : خلاصتها .

والى جانب التأثر في استعمال الكلمات ظهر التأثر في أسلوب تأليف الجمل ، وبعضه يمسّ حتى قواعد اللغة العربية . وما زال ذلك قاصراً في الغالب عـــلى المتأدبين الذين قلّ نصيبهم من التفقـّه في العربية والتزود من أدبها بالاسلوب الأصيل . من ذلك قولهم (**بشكل او بآخر**) **ترجمـــةً** للقول الانكليزي (Some way or another) بدلاً من القول (على نحوٍ ما ، او : على هـــذا النحو او ذاك) .. وقولهم (**انه يتقدم أكثر فأكثر**) ترجمةً للعبارة الانكليزية (To advance more and more) بدلاً من القول (انه طفق يتقدم ، او يزيد تقدماً ، او يزيد تقدماً على تقدم ..) . وقرأت لأحدهم في مجلة رائجة قوله (**انه جيد جداً ليكون صادقاً**) يريد ان يترجم المثل الانكليزي المشهور : (It is too good to be true) .. أي (انه أجود من أن يُصدّق .. أو : انه من الجودة بحيث لا يُصدّق) .

على ان بعض التعابير ، من جيد ورديء ، عمّ فشمل حتى كبار الكتّاب، كالذي قلنا ، نذكر منها هذه النماذج القليلة :

وجهة النظر	The point of view
يلعب دوراً	To play a role
يلعب الموسيقى (يعزف)	To play music

To throw light on the question	يلقي ضوءاً على المسألة
To fish in troubled water	يصطاد في الماء العكر
Political circles	الدوائر السياسية
Brilliant charachter	شخصية لامعة

وما من أديب يقرأ اليوم مجلة عربية الا وجد فيها من أمثلة ذلك الكثير ، حتى في الشعر . وان مدى هذا الخروج على الاسلوب العربي لتتسع دائرته شيئاً فشيئاً ، ولا بد انه سيطغى كالموج الغامر ذات يوم ، حتى يحدث في اللغة تطوراً خطيراً حاسماً ، فيه خير وفيه شر .. أعني ان التطور سيكون — وقد كان بعضه — منطقياً يساعد على الارتقـــاء الفنـّي وتنظيم الفكر الحديث ، وبعضه اعتباطياً فيه خلط وفوضى . والسبب الوحيد الواضح لكل عين هو ان اتساع مجال التعليم في الاقطار العربية أكبر وأسرع من تيسّر امكانات التعليم، ولا سيما تعليم العربية ، وتيسير تعليمها ، وتيسيرها .

في الجـــاهليّة

وان هذا الذي حدث ولا يزال يحدث في هذا الجيل قد حدث الكثير من أمثاله في عصور الازدهار الثقافيّ الاسلامية في المشرق والمغرب ، فاستـُحدثت مصطلحات وابتـُدعت تعـــابير وتراكيب في الفلسفة والمنطق والإلاهيات والطبيعيات والصناعيات وغيرها بتأثير اللغات المترجم عنهـــا من اغريقية وسريانية وهندية وفارسية — دون تدخل من الاعاجم . ولم يخلُ حتى ذلك العهد من بلبلة واضطراب في المصطلحات وركاكة في التعبير بالرغم من ان الحذق في دراسة العربية كان في طريقه الى ذروته يومئذ وبالرغم من كفاية الكثيرين من المترجمين وتضلعهم من العربية . ومهما يكن فان ما أصابته العربية من ثروة

ونموّ متناسبٍ مع تلك المرحلة الحضارية الباذخة كان جليل القدر بالغ الأهمية، لنا فيه تراث نفيس يجب ان نحسن الانتفاع به .

على ان تتبُّع كل ذلك – في العهد الاسلامي – ما زال ميسوراً للباحثين ، ولو انه في واقع الامر فسيح الارجاء متعدد الجوانب .

فهل حدث مثل هذا في الجاهلية ؟.. حدث ما يقاربه .

في العهد الاسلامي كان العرب الغالبون سياسياً وحربياً ، هم المغلوبين المتأثرين ثقافياً وحضارياً ، وبعبارة أدقّ : المنتفعين ثقافياً وحضارياً من الاقطار المفتوحة كفارس ، والمفتوح بعضها كالهند ، والمفتوحة امبراطوريتها كروما الشرقية ، والتي لم يفتحوها قط كاليونان .

أما في الجاهلية فقد سيطر الروم على عرب الشام ، والفرس على عرب العراق ، والفرس والاحباش على عرب اليمن . فالى أي حدّ تأثرت العربية بلغات هذه الأمم وثقافاتها ؟ ان التأثر لم يكن من العمق والسعة بحيث يمكن قياسه على ما جرى في العهد الاسلامي ، لأن عرب الجزيرة لم يكونوا عندئذ في مرحلة تثقف وتمدين ، ولأن هذه الامم الاعجمية لم تستهدف تثقيف العرب وتمدينهم . فقد كان الروم معمّرين ومستعمرين لا مثقّفين ولا متثقفين . ولكن اختلاطهم أمداً طويلاً بعرب الشام خاصة قد ترك أثره من غير شك . وهذا موضوع له أهميته ، يتطلب بحثاً طويلاً وتفرغاً خاصاً . ومثل هذا يمكن ان يقال عن الفرس مع عرب العراق .

وقد تطرقنا قبل الى تأثير هاتين الأمتين . وأما الذي نريد إليه هنا فهو تأثّر العرب بلغتيهم وبالاغريقية والحبشية وغيرها ، وانعكاس ذلك على العربية دون تدخل من الاعاجم أنفسهم – على شاكلة تأثر الكتّاب والمترجمين في العهد الاسلامي ، وتأثر الأدباء والمتأدبين في عهدنا هذا . فهذا الذي يصعب اليوم تتبعه والبحث فيه لأنه يتطلب منا ان نعرف أساليب العربية ولهجاتها القديمة

الأولى في بعض المراحل التاريخية ، والمناطق الجغرافية، لكي نتمكن بالمقارنة، من تعرف ما طرأ عليها في مختلف الظروف الغامضة الشديدة التعقيد .

على انه بالرغم من صعوبة الأمر لا بد ان البحث سيكشف فيه عن جديد مهما يكن قليلا .

وان كان لا بد لنا من المغامرة بايراد نماذج من هذا النوع البعيد المنال من التأثر اللغوي ، ذكرنا – بتحفظ – تقديم الصفة على الموصوف احياناً في العربية خلافاً للقاعدة العامة التي تقضي بأن تأتي الصفة بعد الموصوف . فان قول العرب: طيّب الرائحة (بدل : رائحته طيبة) ، وحَسَن الحظ (بدل: حظه حسَن) ، وضيّق اليد (بدل : يده ضيقة) ، وحديد المزاج (بدل : مزاجه حديد) .. لا يخطر بالبال تفسير له سوى انه جاء نتيجة التأثر باللغة الفارسية التي يقال فيها: خُوشْ بُو ، نِيكْ بَخْتْ ، تَنْگْ دَسْتْ، تُنْدْ خُو .. بنفس المعاني السابقة وبنفس ترتيب الألفاظ .

ونؤْثِر ان نجتزىء بهذا الآن فان تقديم الصفة على الموصوف في العربية موضوع جدير بأن نعالجه في كلمة مستقلة .

فنيقيا

ما أصل تسميتها ؟

طالما ساءلت نفسي : ما الاصل العربي لاسم (فنيقيا) ؟ وبتعبير آخر : ما الاسم الذي كان (الفنيقيون) أنفسهم يطلقونه علـــى أنفسهم وبلادهم فاقتبسه الاوربيون بصيغة (فنيقيا – Phoenicia بالانكليزية و : Phenicie بالفرنسية) – وسمّوا أهلهـــا فنيقيين (Pheniciens, Phoenicians) – فجاريناهم نحن في التسمية ؟

فعلتُ أول ما يتبادر الى الذهن طبعاً وهو مراجعة المعجم العربي بحثاً عن مادة (ف ن ق) ، فوجدت أن (الفَنْق) – كالبرق – يعني النعمة والاناقة بوجه عام .. وان (الفنيق) – كالانيق – هو الفحل المُكْرَم من الابل لا يُؤذى ولا يُركب لكرامته .. وان الغلام (المتفنّق) – كالمتأنق – والجارية (الفُنُق) – بضم الفاء والنون – او (المفناق) هما المنعَّمان .. وأن (الفَنيقة) هي المرأة المنعّمة ، او الوعاء أصغر من الغرارة .. الى آخر ما هنالك . وكل واحدة من هاته المعاني – حتى الوعاء الذي هو أصغر من الغرارة – يمكن أن تكون الاصل العربي لكلمة (فنيقيا) ، ويمكن ألا تكون . فمن العبث اذن أن نحاول تطبيق هذا المعنى أو ذاك على الاسم دون نصّ صريح أو سند يعوّل عليه .

فأول مشكلة تجابهنا هي : هل لفظة (فنيقيا) مصوغة من مادة (الفنق) العربية ؟ ذلك بأن تحريف أسماء الأعلام ولا سيا عند غير أهلها يتجاوز حدود التخمين أحياناً ، مثل اسم (إيڤان – Ivan) بالروسية من يُوحَنّا ، وقرطاجة من Cartage بالانكليزية والفرنسية وهذه من Cartago باللاتينية وهـــذه من (قريات حديشات) أي القرية الحديثة كما كان يسميها أهلها ، القرطاجيُّون .

ومن الطبيعي اذا أردنا البحث عن أصل تسمية (قرطاجة — Cartago) اننا لا نصل الى نتيجة صحيحة لو طلبنا في المعجم مـــادة (قرط) او (قرطج) او (كرت) .. او أي شيء من هذا القبيل . لهذا لا ترجى فائدة من تمحيص كلمة (الفنق) بحثاً عن اسم (الفنيقيين) ، فلعله مثل اسم قرطاجة مشتقّ من مادة عربية أخرى بعيدة عن نطقها الحاضر .

هذا نقوله ان كانت لفظة (فنيقيا) تمتُّ الى أي نسب عربي أصلاً ، لأنه من المحتمل ان تكون من وضع الاوربيين أنفسهم مثل (ميزوپوتاميا – Mespotamia) – أي بين النهرين – وهي كلمة اغريقية لا صلة لها بلغة أهل النهرين . فهل اسم (فنيقيا) فنيقي الأصل أم أعجمي ؟ هذه مشكلة ثانية .

اكتشفتُ ذات يوم ان كلمة (phoenix) التي تعني بالانكليزية طائراً خرافياً مقتبسة من كلمة (عنقاء) العربية عن طريق الاغريقية – بابدال العين فاءاً في أول الكلمة كما يحدث في اللغة العربية نفسها مثل: جدع وجدف، عرك وفرك .. ولا سيما ان الاغريق عرفوا ان (فنيقس – Foinix) هذا طائر خرافي من بلاد العرب .

والذي يهمنا الآن ان كلمة (Foinix) هذه لها معنى آخر يتصل اتصالاً مباشراً وثيقاً بموضوعنا وهو انها اسم (**فنيقس بن امينتور** – Amyntor) معلم أخيل (Achilles) الملك الاغريقي ورفيقه في حروب طروادة التي يظهر انه أحسن البلاء فيهـا بحيث غدا من أبطال الالياذة . وقد ذكرت الاساطير انــه (**أبو الفنيقيين**) ، أي ان اسمهم من اسمه . وقــد يبدو هذا في تفتيشنا عن أصل تسمية الفنيقيين كشفاً مهمـاً يلقي على المسألة ضوءاً جديداً ، غير انــه في الواقع يلقي عليها ظلاماً جديداً ، لانه يخلط بين اسم الفنيقيين واسم العنقاء .

فهل لاسم فنيقس بن أمينتور ، أبي الفنيقيـــين المزعوم ، علاقة باسم العنقـاء حقاً ؟ هذه مشكلة ثالثة . هـــل كان الفنيقيون يتسمَّوْن بالعنقاء يا ترى شأنــ : قريش ، ونمير ، وأسد ، وبكر ، وفهد ، .. وغيرهم من بني

جلدتهم العرب الذين تسموا بأسماء الحيوانات المعروفة ؟ إن صحّ ذلك فربما كان الفنيقيون تسمّوا – من باب الفخر مثلاً – باسم هذا الطائر الخرافي السَرِيّ الذي لا تدركه الابصار ولا يبزهم فيه أحد من بني الحيوانات الاخرى التي تسمى بها سواهم (كمظهر من مظاهر الطوطمية التي يظن بعضهم انها كانت شائعة في بلاد العرب قديماً كغيرها من بعض ارجاء العالم). هذا ايضاً مجرد تخمين لعل احتمال الخطأ فيه أكبر من احتمال الصواب. ومهما قلنا فيه لا نخرج عن نطاق التظني الذي لا يعطي قناعة ولا يحسم جدلاً .. ولا سيما ان اسم الفنيقيين ورد في اللاتينية بصيغ أخرى لا علاقة لها بالعنقاء مثل poenicus وغيرها من الصيغ المشابهة. ويلاحظ ان هذه الصيغة ومثيلاتها تبدأ بحرف الباء الأعجمية المركزة (P)، بالاضافة الى صيغ تبدأ بالفاء (Ph) مثل: Phoenices وغيرها من الصيغ التي ترجع بأصلها الى الصيغة الاغريقية (Foinikes). فكيف جاء هذا الخلط بين اسم العنقاء واسم الفنيقيين وفنيقس ؟ هذه مشكلة رابعة.

وأما اسم فنيقيا (وطن الفنيقيين) فهو في اللاتينية:

Phoenīcē و Phoenices و Phoenica و Phoenicae. وهذه الصيغ أيضاً مقتبسة بشيء من التحوير من الاغريقية (Foinīkē). وهنا مشكلة خامسة هي: هل اسم فنيقيا مشتقّ من اسم الشعب الفنيقي مثل اشتقاق اسم (فرنسا) من اسم القبائل الجرمانية المسمّاة (فرنك – Frank) أم ان اسم الشعب الفنيقي هو الذي جاء من اسم الارض التي كانوا يعيشون فيها كما هي العادة في تسمية معظم شعوب البشر ؟

وثمة ملاحظة أخرى هي أن اللاتين أطلقوا هذه الصيغ على الفنيقيين والقرطاجيين معاً. بل ان بعض الصيغ البائيّة السالفة أصبحت مع الزمن أدلّ على القرطاجيين منها على الفنيقيين حتى ان اللغة القرطاجية صارت تدعى Punic بالانكليزية و Punique بالفرنسية، من Punicus اللاتينية. ودخلت

هذه التسمية في العربية الحديثة أيضاً فدعوا اللغة القرطاجية (**البونيّة**) و (**البونيقية**) .

والمعاجم تفسّر هذا الازدواج في التسمية بأن السبب هو كون القرطاجيين مستعمرين فنيقيين في الاصل . ولكن ما للرومان ولهذا ؟ ان مدينتهم (روما) نفسها لم تكن قد ظهرت في الوجود عند تأسيس قرطاجة (٨١٤ ق م) ، لأن روما تأسست بعدها بستّين عاماً (أي ٧٥٣ او ٧٥٤ ق م) على الشائع . فما الذي دعاهم الى هذا التمسك العلمي بواقع التاريخ الذي لم يدركوه أصلاً ، فسمّوا أهل قرطاجة باسم وطنهم الاول فنيقيا ؟ الحق ان الاغريق أقدم من الرومان . فهل عنهم أخذ الرومان المحدثون تسمية القرطاجيين فنيقيين ؟ يجوز . ولكن .. ألم تكفِ القرون المتوالية لجعل الرومان يميزون بين الفريقين فيدعون القرطاجيين الذين كان لهم كيانهم السياسي الخاص وامبراطوريتهم الكبيرة باسم خاص بهم غير اسم الفنيقيين ؟ فهذه مشكلة سادسة .

* * *

واسترعى نظري في مجلة (اللسان العربي) [1] تصوير بالزنكوغراف لوثيقة تاريخية هي نقش على رخامة وجدت في البرازيل ، مكتوبة باللغة القرطاجية – عام ١٢٥ ق م – يصف أصحابها محنة وقعوا فيها من أسر ومرض وهلاك . وتتألف الاكتوبة من ثمانية أسطر ، هذا نص السطر الاول منها :

« هنا احنا بني كنعان م فريم حقره حصل . اوش حر حصل هك »

وترجمته بعربيتنا وكتابتنا :

« هنا نحن بني كنعان من فرايم حملنا الحقارة . أليس حراماً ان نحصل هكذا ؟ » .

---

١ – يصدرها المكتب الدائم لتنسيق التعريب بالرباط ، التابع لجامعة الدول العربية . العدد الثاني : يناير (كانون الثاني) ١٩٦٥ . ص ٣٥ .

الذي يبعث الدهشة في هـــذا الاستهلال المؤثر ان القوم كانوا لا يزالون يذكرون انهم ينتمون الى بني كنعان حتى بعد خروجهم من أرض كنعان وتأسيس (القرية الحديثة) بنحو ستة قرون ، بل حتى بعد هجرتهم من قريتهم الحديثة ثم عبورهم المحيط الاطلسي الى العُدوة الاخرى في امريكا الجنوبية — دار الغربة النائية تلك . ولا نستطيع ان نستنتج من هذا إلا اعتدادهم بنسبهم العريق على الرغم من بعد الشقة زماناً ومكاناً .

وعلى الرغم مما كانوا فيه من محنة تمنعهم من المباهاة لا نخطىء ان نستشفّ من لحن كلامهم صوت الكرامة الجريحة تخاطبنا من وراء أحد عشر قرنـــاً ، وكأني بهم انما يقصدون ان يقولوا : « أليس حراماً ان يحلّ بنا هذا .. ونحن بنو كنعان » ؟

ان للوثيقة خطورة متعددة الجوانب في الحقيقة جديرة بالدرس كلها . فليت هؤلاء القرطاجيين الذين ما زالوا ينتسبون الى أجدادهم البعيدين بني كنعان قد ذكروا لنا كذلك اسمهم الدولي الذي صاغ الاغريق منه اسم فنيقيا والفنيقيين .

ولكن مهلاً .. لقد ذكروه . انه : « **بني كنعان** » !

أجل ، ان كلمة (Foinikes) الاغريقية ليست الا (**بني كنعان**) بتحريف يسير كثيراً ما يقع مثله وأكبر منه عند انتقال الكلمة من لغة الى لغة . وصياغة Foinikes من (بني كنعان) بلسان أجنب ليست أغرب من صياغة foinix من (العنقاء) ، ولا أعجب من صياغة Cartago من (قريات حديشات) .

وكلمة (Cartago) هـــذه لا تتضمن الا الحروف المشطوب تحتهـــا من (قريات حديشات) : ق ر ي ا ت ح د ي ش ا ت .. وهي أربعة من أحد عشر ، أي نحو الثلث . أمـــا كلمة (foinikes) فتحوي جميع حروف النصف الأول من (بني كنعان) : ب ن ي ك ن ع ا ن . ولعل اللفظة الاغريقية كانت أكمل في أول عهدهم من اقتباسها وأقرب الى أصلها العربي ثم

اختزلوها . أما ابدال حرف الباء فاءاً في أول الكلمة فهو أسهل من ابدال العين فاءاً في (عنقاء) ، ولا لوم على الاغريق فيه على كل حال لأن العرب ايضاً فعلوا ذلك مختارين في لغتهم العربية فقالوا مثلاً : الخربشة والخرفشة ، وجيب القلب ووجيفه ، الأبلج والأفلج ، يختبىء ويختفي ، يقصب ويقصف (يقطع) ، يبيح الدم ويفيحه ...

وأما تغيير حركة الفتحة على الحرف الاول بالضمة او شبهها فما أكثر أمثاله في العربية . من ذلك : القِمَّة (بكسر القاف) والقُلَّة و القُنَّة (بضمه في كلتيهما) . ومن ذلك (السرعة) فهي عندهم : السُرعة (كالعقدة) ، والسَراعة (كالسحابة) ، والسِرَع (كالعنب) ، والسَرَع (كالشرف) ، والسِرْع (كالصدق) والسَرْع (كالشرع) . والنماذج من ابدال الحروف والحركات في العربية لا تكاد تحصى لكثرتها وتنوعها .

واذا تذكرنا ان كلمة (بنزين — benzine) الاوربية من أصل عربي هو (لُبَان جاوة) وهو الصمغ العطر الذي كان العرب يصدرونه الى أوربا — وقد تطورت في الفرنسية من (luban jaoua) الى benjoin ، وفي الانكليزية من benjoin الى benzoin الى benzole الى benzene الى benzine — اذا تذكرنا ذلك أصبح تطور اسم (بني كنعان) الى Foinikes أمراً هيناً ، سهل التصديق ، ولا سيما أن الاغريق يعجزون عن نطق صوت العين فحذفوه مع ما بعده ، وحذفوا النون الذي قبله اختصاراً لهذا الاسم الطويل ، كالذي فعل اللاتين من بعدهم باسم قريات حديشات . ولعل تطور اسم (بني كنعان) الى Foinikes قد جرى على مراحل مثل تطور (لبان جاوة) الى بنزين [١] . بل ان قدامى المصريين كانوا يسمون الكنعانيين (خنا — Chna) فقط ويسقطون بقية الحروف .

ومهما يكن فلا مجال لنا أن نتجاهل الأمر الواقع وهو أن اللاتين كانوا يسمون

---

١ — ذلك وأمثاله من تحريفات الاعاجم سبق التنويه به في فصل « تأثير الاعاجم في لغة الاعارب » ص ١١٥ .

الفنيقيين والقرطاجيين فنيقيين (Punicus) كما تشهد المعاجم والمأثورات، وأن القرطاجيين كانوا يسمون أنفسهم (بني كنعان) كما تصرح رخامة البرازيل . وواضح ان هذا الاسم من ذلك ، لفظاً ومعنى .

ويظهر ان اللاتين قد أخذوا عن الاغريق صيغتهم Phoenices بالفاء ، ثم استخرجوا منها صيغة Phoenice وصيغة Phoenicum .. ولكنهم وجـدوا بعد ذلك عن طريق الاحتكاك المباشر بالفنيقيين – بني كنعان – ان الأصوب نطق الاسم بالباء ، لا بالفاء ، فقالوا : Poeniceus و Poenicus و Punicus و Poenorum و Poeni .

وهذا أيضاً غير نادر الحدوث ، وقد وقع مثله للعرب في جيلنا هذا بتأثير الكتب المصرية ، فهي تذكر اسم الانكليز مثلاً (الانجليز) بالجيم حسب النطق المصري . وقد ظل عرب الشرق الأوسط الذين تعلموا في أوائل هذا القرن بالكتب المصرية يكتبون الاسم وينطقونه بالجيم ، ثم صححوا نطقهم مع الزمن فصاروا ينطقونه بالكاف الفارسي ، ولو أنهم يكتبونه بالكاف العربي . على ان المغاربة ما زالوا ينطقونه ويكتبونه بالجيم ، بسبب تأخر دخـول الكتب المصرية ديارهم ، ولا شك انهم سوف يصححون ذلك كذلك بعد حين .

فلعل شيئاً من هذا قد حدث لكلمة (Foinikes) الاغريقية اذ اقتبسها الرومان بالفاء أول الامر نطقاً وكتابة ثم صححوهـا فكتبوها بالپاء – الباء المركزة (P) – لأنها أقرب الى الاصل العربي من الفاء على كل حال . وتعايشت الصيغتان الفائية والبائية ، وتطورتا .

ومن الطريف أن نجد بين التحويرات الآنفة صيغة (Poeni) وهي اختزال آخر ، وكأنما أرادوا بها الاكتفاء بالجزء الاول من الاسم العربي : (بني ..) .

وإذا عدنا الآن الى مشاكلنا الستّ فاستعرضناها واحدة واحدة نجدها قد انحلّت جميعاً من تلقاء نفسها بمجرد معرفتنا أن Foenikes تعني (بني كنعان) .

فأولاً : ليست كلمة فنيقيا او الفنيقيين من مادة (الفنق) العربية ، ولا صلة لها بالجمل الفنيق ولا الغلام المتفنّق .. ولا الجارية المفناق .. ولا الوعاء الذي هو أصغر من الغرارة . . .

ثانياً : انها ليست كلمة اغريقية وضعها الاغريق من لغتهم للدلالة على الفنيقيين ، وانما هي كلمة عربية مؤغرقة ببعض التحريف كما هي العادة في اقتباس الكثير من الألفاظ من لغة الى لغة .

ثالثاً : ان اسم الفنيقيين ليس مشتقاً من اسم (فنيقس – Foinix) بن أمينتور بطل الحرب الطروادية ، ولا هو أبو الفنيقيين . وإنما يظهر ان العكس هو الصحيح ، اي ان فنيقس بن أمينتور هذا لما كان من بني كنعان فقد سُمّي في الاغريقية باسمهم ، كما نقول نحن : فلان الحجازي أو العراقي أو اللبناني ، ولما كانت الاساطير كثيراً ما تتخذ اسم الشخص رمزاً لاسم قبيل او شعب او طبقة من الناس فمن المحتمل ايضاً ان بني كنعان – بعضهم – اشتركوا في حرب طروادة الى جانب الاغريق وأبدوا بسالة سجلتها لهم الاساطير ، ورمزت إليهم بالبطل فنيقس Foinix .

اما ان هذه الكلمة تدل في الاغريقية على العنقاء – رابعاً – فالذي نراه ان الشبه الشديد بين اسم الفنيقيين (Foinikes:) واسم العنقاء (Foinix) في لغة الاغريق أفضى الى التباس الاسمين عليهم فخلطوا بينهما كما خلطوا بين اسمي سوريا (Syria) وآشور (Assyria) ، وكما خلط الانكليز بين كلمة (benjoin) التي سبق الحديث عنها واسم بنيامين (Benjamin) فاستعملوا هذا الاسم التوراتي المشهور بمعنى الاسم الاول اي الصمغ الجاوي . وبسبب مثل هذا التشابه اللفظي يقال للهر في لغة الموصل (هارون) ! وما أكثر ما تتحد كلمتان في كلمة واحدة اذا تشابه نطقها أو معناهما ، خصوصاً اذا كانتا أجنبيتين . وعلى هذا أصبح من الواضح ان اسم

الفنيقيين لا علاقة له بالعنقاء سواء أكانت لاسم البطل فنيقس عـــلاقة بها أم لم تكن .

وبات بديهياً لدينا الآن – **خامساً** – ان اسم الشعب الفنيقي ليس مشتقاً من اسم فنيقيا ، بل ان اسم فنيقيا هو المشتق من اسم الفنيقيين – **بني كنعان** – كما يحلو لهم ان نسميهم . واتضح ان اسم فنيقيا لا وجود له عند أهل فنيقيا نفسها على كل حال . وانما هو اسم محرف صاغه الاجانب من اسم الكنعانيين للدلالة على موطنهم .

سادساً : عرفنا الآن لماذا كان اللاتين يطلقون اسم الفنيقيين على القرطاجيين ايضاً . فليس السبب توخّي الدقة التاريخية باعتبار اللاتين قد عرفوا بأن القرطاجيين ينحدرون من أصـــل فنيقي كما يتوهم المعجميون ، ولا هو كونهم – اللاتين – نقلوا هذه التسمية المزدوجة عن الاغريق كما قد يتبادر الى الذهن ، وانما السبب البسيط العجيب هو ان القرطاجيين أنفسهم طفقوا الى عهود متأخرة يذكرون نِجَارهم السحيق ويتسمّون بأبوّتهم العرب الشآميين (بني كنعان) حتى بعد أن اندثرت قرطاجة ، وحتى بعد أن نزحوا الى أمريكا .

ثمة مشكلة **سابعة** لا أحسبنا قادرين على ايجاد حلٍّ نهائي لها، وهي السؤال: من هم هؤلاء الذين خلـّفوا هذه الوثيقة المرمرية في البرازيل ؟ صحيح أنهم من بني كنعان كما صرّحوا وأن لغتهم القرطاجية كما تنبىء أكتوبتهم ، لكن هذه اللغة كانت شائعة في شماليّ افريقيا وغربيّها وغربيّ أوربا ، ولا سيما شِبجزيرة (= شبه جزيرة) ايبريا . وقد كان بنو كنعان منتشرين في هذه الاصقاع مثل انتشار اخلافهم من العرب في نفس المناطق تقريباً بعد الفتوح الاسلامية . لهذا يحتمل ان يكونوا قد أتوا البرازيل من أيّ ربع من تلك الربوع التي كان يقطنها القرطاجيون .

ولكن يمكن الظن انهم من الموريطانيين المغاربة – القرطاجيين خاصة او

الكنعانيين عامة ممن كانوا قد استقروا في الساحل المغربي – لأنهم أقرب جغرافياً الى أمريكا . وحتى ان كانوا من قرطاجة او غيرها من الامصار فلا بد ان نقطة انطلاقهم – أو مرورهم – قد كانت من بعض مرافىء المحيط الاطلسي وربما كانت من الساحل المغربي ، ولا سيما ان كانوا قد عبروا المحيط من الجنوب، او من أيّ النقاط الافريقية القريبة من البرازيل .

فعلى هذا يسعنا ان نعتبر مكتشفي أمريكا هؤلاء – ان لم يكن قد سبقهم بعض العرب أو غيرهم الى اكتشافها – يسعنا أن نعتبرهم من المغاربة ، ولو موقتاً ، الى ان يظهر برهان صريح يؤيد ذلك ، او ينقضه .

تقديم الصفة على الموصوف

— في العربية

القاعدة في العربية ان الصفة تلي الموصوف وتجاريه في مختلف حـــالاته . ولكني لحظت باستغراب كبير أننا كثيراً ما نقدّم الصفة على الموصوف دون ان نشعر ، خلافاً للقاعدة اللغوية ، وخلافاً للمنطق العقلي .

قالت العرب في الممدوح : طويل النجاد رفيع العماد . والمقصود طبعاً أن نجاده طويل وعماده رفيع . ولكن الصفة هنا سبقت الموصوف وأضيفت اليه . والاضافة تعني الملكية والعائدية ، فقولك (طويل النجاد ورفيع العماد) يتألف من مضاف ومضاف اليه ، اي انه يشبه من ناحية القواعد والاعراب قولك نجاد السيف وعماد البيت . فأما ان السيف له نجاد والبيت له عماد فأمر معقـــول . إلا انه لا يمكن ان يكون العماد له طويل (أو شيء طويل) لأن المقصود من هذا التعبير ان النجاد هو الطويل . ولا يمكن ان يكون العماد له شيء رفيع لانه هو الشيء الرفيع . وإنما المعقول أن يكون النجاد له (طول) والعماد له (رفعة) .

على ان هذا الخلط أهون ما في الامر في الحقيقة ، فسيأتينا في ثنايا البحث ما هو أدهى .

فمن أين جاء هذا النشاز المنطقي النحوي في لغتنا، في حين ان القاعدة العامة — التي تعد من خصائص العربية وأخواتها اللغات الساميّة ، تجري على سنـّة تقديم الصفة وتأخير الموصوف ، خلافاً للغات الآرية التي تجري القاعدة فيها على عكس ذلك ؟

الأرجح عندي ان هذا قد جاء من تأثير بعض اللغات الأعجمية . فان صحّ ذلك ، فان بعض العرب وأخُصّ منهم أهل العراق وشرقيّ الخليج العربي ، قد تأثروا باحـــدى اللغات الآرية وأخص منها الفارسية لمجاورتها لهم ، فقالوا :

« طويل نجاد) بدلاً من نجاد طويل ، و (رفيع عماد) بدلاً من عماد رفيع .. على غرار تأثر بعض المتأدبين في جيلنا هذا باللغات الغربية ممن قالوا : (تدبير الامر بشكل او بآخر) ، وقالوا : (التقدم أكثر فأكثر) ، بل قالوا : (انه جيد جداً ليكون صادقاً) – كالذي ذكرنا في موضوع « تأثير الاجانب في لغة الاعارب » .

وانما اتهمنا عرب العراق وساحل الخليج العربي بالتأثر بالفارسية – وبذلك برّأنا ضمناً عرب الشام من التأثر في هذا الشأن باللاتينية – لان أهـــل الشام لا يمكن ان يكونوا المسؤولين عن هذه البدعة ، والسبب بسيط هو أن الصفة في اللاتينية كما في العربية ، تلي الموصوف وتجاريه إفراداً وجمعاً وتذكيراً وتأنيثاً . وأما الفارسية فالقاعدة القديمة فيها – كما في السنسكريتية – تقديم الصفة على الموصوف .

أما قول العرب : **انه لذيذ الطعم** (بدل : طعمه لذيذ) .. و **حَسَنَ الطالع** (بدل : طالعه حَسَن) .. و **بعيد النظر** (بدل : نظره بعيد) .. و **سيّء الظن** (بدل : ظنه سيء) .. فلا أكاد أجد له تعليلاً سوى انه تأثر بالفرس في قولهم : خُوشْ مَزّه ، و نِيكْ بَخْتْ ، و دُورْ بِين ، و بَدْ گُمَان .. بنفس المعاني وبنفس ترتيب الالفاظ [1] .

ان اقحام هـــذه القاعدة الاعجمية في اللغة العربية التي تناقض الآريّات تمام المناقضة في بعض القواعد الاساسية قد أحدث من الارتباكات والاختلاطات ما لم يخطر يوم إقحامها على بال . لقد أصبحت هذه (التقليعة) الآرية وسط العربية السامية اشبه ببيضة البط توضع تحت الدجاجة مع بيضها فتنجب فرخ

---

١ – زيادةً في الايضاح نقول : (خُوش) : طيب ، (مَزّة) : الطعم .. ، (نِيـــك) : حسَن ، (بَخْت) : الطالع .. ، (دُوْر) : بعيد ، (بِين) : البصر .. ، (بَدْ) : سيّء ، (گُمـان) : الظن . ويلاحظ انه لا توجد أداة تعريف في الفارسية فالاسماء كلها معرفة ما لم تدخل عليها علامة تنكير .

بط بين فراريج دجاج . واذا بهذا الفرخ الناشز يحتاج الى مداراة خاصة تقلب نظام البيئة في بعض الشؤون عقباً على رأس . يسلك آناً سلوك البط لانه بط ، وآونة سلوك الدجاج لانه يعيش في بيئة الدجاج ، وحينــــاً سلوكاً فوضوياً لا اتزان فيه لانه حائر بين طبيعته البطّية وبيئته الدجاجية .

يلاحظ قبل كل شيء ان الصفة لا اعراب لها في الفارسية فلا يلحق آخرها تحريك . أما في العربية التي لا تعفي اسماً من الاعراب فالقاعدة الاساسية ان تكون الصفة تابعة للموصوف اعراباً ، وتذكيراً ، وتأنيثاً ، وإفراداً ، وتثنيةً ، وجمعاً . وهي تبقى طيّعة تابعة لسيّدها ما دامت متأخرة عنه وفق القاعدة العربية ، لا تعاكس غيرها من الكلمات ولا تخرج على منطق . ولكنهم مــــا يكادون يقدمونها عــــلى الموصوف - تقليداً للأعاجم - حتى يُجَنّ جنونها فتخرج على كل ما يصطدم بها من قواعد مرعيّة وعرف مقبول .. هل أقول مثل المرأة حين قدّموها في العصر الحاضر على الرجل تشبّهاً بالغربيين .. ام الأمثل ألا أقول ذلك ، بعد ان كنت من المتحمسين في الدفاع عن (حقوق) المرأة ؟

ان أول ما فعلته عند تقديمها - أعني الصفة - هو اعلانها الاستقلال التام عن متبوعها الموصوف ، في الاعراب .. فصارت تتصرف تصرف سائر الاسماء المستقلة . فهي مرفوعة او منصوبة او مجرورة ، لا تبعاً لموصوفها ، ولكن وفقاً لظروفها الخاصة ، أعني وفقاً لموقعها من الكلام بصرف النظر عن موصوفها . ولم تكتف بالاستقلال عنه بل حكَمَتْه بنوع من التبعية المقيّدة ، فصارت تجرّه دائماً - أعني تكسر آخره بالاضافة .. هل أعود الى التشبيه بالمرأة فأقول ان الصفة أصبحت بعد تقديمها كالمرأة التي لا تسمح لزوجها حتى باتّباعهــــا الى حيث تذهب - كما كان الموصوف يصطحب صفته حين كان يتقدمها - بل تحكم عليه بملازمة البيت دائماً ؟

ثم هي - الصفة - بعد ان استقلت عن موصوفها إعراباً صارت في بعض

الاحيان تجاريه تأنيثاً وتذكيراً في مثل قولنا : فضليات النساء وفضلاء السادة . ولكنها تتمرد عليه أحياناً أخرى فتبقى متشبثة بزيّ الذكورة مهما كلف الامر، في مثل قولك : اننا نقدّر كريم عاطفته و شريف خصاله .. ومثل قولك : قليل المعرفة كبير الثروة. فقد ظلت الصفة هنا مذكرة مع موصوفاتها المؤنثات.

وهي أحياناً تتمسك بصيغة المفرد بعناد لا مبرر له حين يكون موصوفها مثنى او جمعاً ، في مثل قولك : أسيلة الخدّين حلوة النظرات .

بل انها تتجاهل الموصوف أحياناً في جميع حـــالاته من تذكير وتأنيث وإفراد وتثنية وجمع ، متشبّهة في كل ذلك بمن لا علاقة لها به وهـــو مالك الموصوف ان كان له مالك . من ذلك قولك : الرئيس غزير العلم . فالصفة — غزير — هنا تقطع كل علاقة لها بموصوفها (العلم) منذ صارت (خبراً) للرئيس (المبتدأ) ، كأنما الرئيس هو الغزير .

ونحن نسميها صفة باعتبار ما كان ، اي انها قبل تقديمها على الموصوف كانت صفة بالفعل ، حقيقةً وحكماً ، أي نحوياً وعقليـــاً . أما عند تقديمها فيتغيّر اسمها نحوياً وتصبح فاعلاً او مفعولاً او مجروراً او غير ذلك من حالات الاسماء في الإعراب .

وهي قد تعود فتصبح صفة ايضاً ، ولكن لا لموصوفها الحقيقي الذي تقدمت عليه بل لمالكه كما كان شأنها حين صارت خبراً له في المثال السابق . وهذا من أغرب أطوارها ان لم يكن أغربها طراً ، ذلك بأن موصوفها الجديد قد يكون مغايراً لها ، او مناقضاً كل المناقضة . يتضح هذا في مثـــل قولك عن فلان : كريمٌ لئيمُ الأتباع ، معتوهٌ نجيبُ الولد ، غنيٌّ فقيرُ الجار . ونحن عنـــد إعراب هذه (الصفات) ملزمون نحوياً بأن نقول : (لئيم) صفة (كريم) .. و (نجيب) صفة (معتوه) .. و (فقير) صفة (غنيّ) ! .. خلافاً لبديهيات المنطق . وما كان مثل هذا التناقض الفادح ليقـــع لو اننا جرينا على القاعدة العربية فقلنا انه كريمٌ أتباعه لئام ، ومعتوهٌ ولده نجيب ، وغنيٌّ جاره فقير .

والصفة في كلتا هاتين الحالتين اللتين تتجاهل فيهما موصوفاتها الحقيقية – أي عند كونها خبراً لمالك موصوفها في الحالة الاولى أو صفةً له في الحالة الثانية – تكون تابعة لمالك الموصوف هذا كما قلنا في جميع حالاته ، كالمرأة – أيضاً – اذا هي تركت زوجها وتعلقت برئيسه . وعلى هذا يقال هو (الوزير مثلاً) كثير المال .. وهي (المديرة مثلاً) كثيرة المال .. وهما كثيرا المال ، او كثيرتا المال.. وهم كثيرو المال .. وهنّ كثيرات المال . والمقصود وصفه بصفة (الكثرة) في جميع هذه الحالات الستّ المختلفة هو المال ، المفرد المذكر .. ولكن الصفة (كثير) تتجاهله تماماً وتتبع أصحاب المال وصاحباته ، فتغيّر لبوسها معهم في ست حالات مختلفة ، باعتبارهم هم الموصوفين (نحوياً) وإن لم تكن لأي واحد أو واحدة منهم علاقة بصفة (الكثرة) هذه . أما المال المقصود وصفه بالكثرة في جميع الحالات فقابع في مكانه ، مقيّد بالاضافة ، مكسور الخاطر ، أعني مكسور الآخر .

كل هذا جاء من إقحام قاعدة أعجمية في لغة عربية يقوم كيانها وطرائق تركيب الكلام فيها على قاعدة معاكسة . فالصفة عندما قُدّمت ووُضِعت في غير موضعها التقليدي ، فاحتلت مكان موصوفها ، جابهتها حالات لم تألفها ومآزق لم تكن تتعرّض لها يوم كانت ملحقة بموصوفها فاضطرت الى تحوير كل قاعدة نحوية تقف في طريقها وسحق كل ضرورة منطقية تهدد وجودها – دفاعاً عن نفسها وفق سنّة البقاء .

وان كان قول المحدثين اليوم (انه يتقدم أكثر فأكثر) و (يدبّر الأمر بشكل أو بآخر) ينبو عن أذواقنا ويؤذي أسماع بعضنا كما يؤذيها اللحن في الكلام من جرّ منصوبٍ أو رفع مجرور ، فانما هي السليقة ، أي العادة اللغوية . غير ان ناشئة الجيل الذين لم تتعود أذواقهم الأساليب الفصيحة التي تخالف هذه التعابير المستحدثة الدخيلة فلم تتكون لديهم سليقة تناقضها ، لا يجدون فيها غضاضة ولا نشازاً . ومتى كبروا كان استعمالها عندهم هو العادة والسليقة ،

ثم هم يخلّفونها لذراريهم تراثاً من تعابير سائغة مستحبة ، يؤذي أذواقهم الخروج عليها ولو الى الأفصح الاقوَم .

كذلك العرب الاولون ، لا بد ان أمثال تعابير (طويل النجاد ، وشديد البأس ، وأهرت الشدقين ، وأفلج الثنايا ، وذلفاء الانف ، وقُبُّ البطون) .. قد آذت أسماعهم أول الامر لاصطدامها بسلائقهم ، ثم استساغتها الاجيال اللاحقة بالرغم من لا نحويّتها ولا منطقيّتها .

ويروي الجاحظ انه سمع غلاماً أعجمياً يقول (سِنْد نِعال) يريد (نِعالاً سندية) ، كأنما يروي لنا ملحة نادرة ، دون أن يخطر له — على دقة ملاحظته وفقاهته في العربية — ان العرب العرباء تفعل ما هو أسوأ إذ يقول قائلها : قليل ماء ، قصير ذراع ، طويل باع ، باطل ثناء ، وما إلى ذلك . ويلاحظ ان هذه التعابير لها في النحو استعمالان أحدهما قولك : فلان له فيك كبير الرجــاء ، والثاني قولك : فلان كبير الرجاء فيك . فهنا في العبارة الثانية تكون (كبير) صفة لفلان نحوياً وصفةً للرجاء واقعياً ، ولا كذلك في الاستعمال الاول ..

وإنما قلت ان فعل العرب أسوأ بسبب اللامنطقية واللانحوية التي مرّت بنا شواهد غير قليلة منها ، على حين انها في اللغات الآرية أصيلة متّسقة مع قواعد اللغة ومنطق الاشياء .

ويلوح لنا من تركيب قول الغلام الأعجمي (سِنْد نِعال) ان ترجمته الدقيقة هي (نعال السند) لا كما فسرها الجاحظ (نعال سندية)، أعني انه تركيب إضافةٍ لا نعت . فلو قد كثّر الله أمثال هذا الغلام الأعجمي بــين العرب ، أو كثّر العرب المتأثرين بلغته الاصلية ولعلها السنسكريتية لوجدنا أبناء قحطان وعدنان يقدمون المضاف إليه على المضاف أيضاً . ولو قد سرت عدوى ذلك فعمّت العرب أجمعين كما عمّتهم عدوى تقديم النعت على المنعوت ، لما وجد الجاحظ فيها ما يستحق التدوين أو يلفت النظر .

وأكبر الظن أن آفة تقديم المضاف إليه كانت قد أصابت بعض العرب ، وربما أكثر من مرة في أكثر من مكان ، ولكن عدواها لم تتمكن من الانتشار ولا البقاء لأنها تحدث من اللبس وقلب الحقائق ما لا يمكن احتمالها معه . فمعلوم أن الوسيلة الوحيدة للتفريق بين المضاف والمضاف إليه في العربية هي تقديم هذا على ذاك . فاذا عكسنا الوضع انعكس المعنى في كليهما ، كما في مثل قولنا : حارس البيت (بدل : بيت الحارس) ، وزوج المرأة (بدل : مرأة الزوج) ، وكعبة الرب (بدل : رب الكعبة) .. على حين ان تقديم الصفة على موصوفها – بالرغم من كل ما تقدم بنا من تغيّر عائديتها في الاعراب – لم يغيّر عائديتها في المعنى ولم يغيّر في ذهن السامع ما قصد إليه المتكلم في كلامه . وهكذا لم تلتبس الصفة بالموصوف ، أعني أنها لم تأخذ مكانه في الذهن ولو أنها أخذت مكانه في الاعراب .

لهذا لم تجد بدعة تقديم المضاف إليه مقومات الحياة فماتت كما تموت بذرة أُلقيَت على صخرة في فلاة .

ان شعراءنا وأدباءنا يؤثرون على كل حال استعمال الصفات في زيّها الدخيل الفوضوي هذا . فهم حين يريدون التفاصح يتنكبون الطريقة العربية السويّة الأصولية عزوفاً عن استوائها وبساطتها، وصحتها .. وحباً بما تغذيهم به الطريقة الاخرى من شذوذ وتمرد ولا معقولية يحسّون بها احساساً غامضاً لا يفقهون حقيقته ، مثلما يستهوينا في المحبوب بعض مفاتن في حركاته أو نبراته تفعل فعلها فينا ولا نكتنه سرّها .

ومهما يكن فان هذه البدعة بالرغم مما أحدثت من شغب وفوضى قد أغنت اللغة العربية فساعدت على صياغة تعابير كانت ممتنعة قبلها ، وأضافت الى العربية مرونة فوق مرونتها . ولا شك ان هذا سيكون مصير التعابير التي أقحمها متأدبو اليوم في العربية وما سيقحمونه في المستقبل ، كما فعلوا في كل

جيل ، فيزعجون أبناء الجيل السابق ويخدشون أذواقهم فيزيدون الثروة اللغوية للجيل اللاحق .

ومن الغريب حقاً أن اللغة العربية حين عادت فأثرت في الفارسية بعد الفتح الاسلامي وشمل تأثيرها الواسع العميق حتى بعض قواعد الصرف والنحو ، كان من جملة ذلك أنها طعنتها في نفس المكان الذي تلقت طعنتها فيه من جسمها ، أعني ان العربية فرضت على الفارسية تطبيق القاعدة العربية الأصيلة في تأخير الصفة على الموصوف ، والربط بينهما بوثاق الاضافة أيضاً كأنما أخذاً بالثأر . وكان من نتيجة ذلك أن صار الفرس يقولون اليوم : قَصْرِ أبيض ، كتابِ أدبي ، مدرسه ءِ ابتدائي .. مع كسر آخر الموصوف على طريقتهم في الاضافة، بالضبط كما يكسرون آخر المضاف عنـــد قولهم : قَصْرِ سلطنت ، كتابِ فلسفه ، مدرسه ءِ رقص [٢] . أما في القاعدة الفارسية القديمة فما كانوا يكسرون آخر الصفة عند تقديمها ولا الموصوف . وإنما يكون كلاهما ساكناً ، مثل : بُزُرْگْ مِهْرْ ، الذي ترجمت له كليلة ودمنة على قول ابن المقفّع (بُزُرْگْ = كبير .. مِهْرْ = المحبة أو اللطف) ، جَوَان بَخْت ، أي سعيد الطالع (جَوَان = شاب ، فتى .. بَخْتْ = الحظّ) .

وقد بلغت العربية من الفارسية في هذا الصدد أكثر مما بلغته الفارسية من العربية ، لأن تبعيّة الصفة للموصوف ما زالت حتى اليوم هي القاعدة العامة في العربية يجوز الى جانبها تقديم الصفة جوازاً ، وقد استعملها العرب في بعض الحالات لا كلها ، حتى كاد الامر أن يكون سماعياً ، وكثيراً ما يبدو نابياً في غير التعابير المألوفة التي استشهدنا بنماذج منها . فليس من المألوف مثلاً أن يقال :

---

٢ — اخترنا هذه الامثلة العربية لكي يفهمها القارىء العربي ، فهي من المفردات المستعملة في الفارسية بنفس المعنى العربي . ويلاحـــظ ان الاضافة في الفارسية تكون بكسر آخر المضاف .. لا المضاف اليه .

عجوز امرأةٍ ، أو شجاع جندي .. بمعنى امرأة عجوز وجندي شجاع – كما نقول : عتيق خمرٍ بمعنى خمر عتيقة ، وجزيل شكري بمعنى شكري الجزيل .

أما في الفارسية فقد أصبح الخروج على القاعدة القديمة فيما هو القاعدة العامة في صياغة الكلام الآن ، وأصبحت التعابير المصوغة وفق تلك القاعدة القديمة أشبه بالشواذ من المصطلحات السماعية ، تخلّفت من رواسب العهد القديم ، لا يقاس عليها .

***

يقع عند احتكاك الشعوب بين اللغات من الاحداث والمفارقات والنكات والحكايات ما يشبه في طرافته وغرابته بعض الذي يقع بين البشر . وقد رأينا في هذا الفصل – وما سبقه وسنرى فيما سيلحقه – أثارةً من ذلك . وآخر هذه الطرائف التي عرضت لنا هو هذا التبادل النادر المثال ، في نقطة بذاتها ، بين العربية وجارتها الفارسية . الفارسية جعلت العربية تقدم الصفة على الموصوف خلافاً لقواعدها النحوية في الجاهلية ، والعربية جعلت الفارسية تقدم الموصوف على الصفة خلافاً لقواعدها النحوية أيضاً في الاسلام ..

رؤى لغوية

١ ــــــــــــــــــــ بعض عـــلوم اللغة (— Linguis
tiques) ما زالت ناقصة ، فيـــها الكثير من الغموض والمجهولات بسبب المعضلات التي أقرّ العلماء المختصون بتعذر الاهتداء الى حلها .

ومن أكثر العلوم اللغوية تخلفاً ونقصاً علم (أصـــل اللغة) البشرية (L'Origine de Langage) .. وقد طردوه من حظيرة (العلوم) ، لأنهم وان قالوا نظرياً بأن أصل نشوء اللغات كان من محاكاة الاصوات الطبيعية غير أن ذلك لم يكن بالامكان تطبيقه في لغاتهم إلا على عدد ضئيل من الألفاظ ، وبقيت عشرات الألوف من المفردات التي تتألف منها لغاتهم لا يعرفون لها منشأً ولا يجدون لها صلةً بأيٍ من الاصوات الطبيعية أو غير الطبيعية .

لذلك صاروا يقولون ان هذا العلم وهميّ افتراضيّ يقوم على التظنّي والخيال ، كغيره من محـــاولات البحث عن بدايات الاشياء مثل بداية الانسان وبداية الحياة على الكوكب الارضي وما الى ذلك من معميات ضاعت حلقاتها الموصلة والأدلة المرشدة الى حقيقتها في ظلمات الماضي البعيد. لهذا يعدّون عـــلم نشأة اللغة أدخل في باب الغيبيّات والماورائيات (الميتافيزيك) منه في باب العلم الاستقرائي والاختباري .

ولا لوم عليهم في ذلك ، فالواقع أن لغاتهم على رقيّها غير أصيلة ، بل كلها خليط دخيل ، وليس بينها واحدة نشأت في مكانها وتطورت تطوراً

طبيعياً على ألسنة أهلها ، فهي من أجل ذلك قاصرة ، لا تصلح لدراسة نشوء اللغة وتطورها .

٢ ——————— ولو عرفوا العربيـــة ودرسوها في تفهّم وتعمّق لعرفوا أنها من الغنى والأصالة والنـّقاء بحيث تعطي وحدها كل المـــادة اللازمة لاقامة (علم أصل اللغة) على أسس علمية راسخة . وبعبارة أخرى ان جميع لغات البشر لم تكفهم مادةً لتكوين هذا العلم بينما وجدنا العربية وحدها قادرة على النهوض بهذه المهمة ، وكافية كل الكفاية.

٣ ——————— وعلى هذا ، سنعيد هذا العـــلم – المطرود من حظيرة العلوم – الى مكانه اللائق ..

٤ ——————— وفي نيتنا وضع موسوعة (تأصيلية) لدراسة ألوف الكلمات العربية وردّها الى جذورها الاصلية من الاصوات الطبيعية ، كما نطقها الانسان الاول .. مع مقارنتها بما اقتبسته منها بعض اللغات الاجنبية – ليكون ذلك للعرب معرفةً جديدة بلغتهم ، وللأعاجم مناراً يستطيعون على ضوئه أن يدرسوا لغاتهم ويتعرفوا عليها .

٥ ——————— كان من انتشار الاسلام في بـــلاد فارس أن تأثرت اللغة الفارسية بالعربية تأثراً عظيماً ، فتضاعفت ثروتها التعبيرية وتأججت طاقتها الحركية مما ساعد على ارتقاء الادب الفارسي واكتسابه رونقاً جديداً وأبعاداً مترامية . لكن النزعة القومية جعلت

بعض الفرس يحاول مقاومة العربية ويـــدعو الى الاستغناء عن مفرداتها وتطهـــير الفارسية منها ، وأشهر من حمل لواء الفكرة الشاعر الفارسي المعروف أبو القاسم الفردوسي الذي شنّ عـــلى العربية حرباً ظنها الأنام حاسمة ساحقة ، إذ ألـّف (الشاهنامه) من ستين ألف بيت شعر من الفارسية النقيّة لم يرد فيها سوى (٦٤) كلمة عربية .. لا ندري لماذا عجز عن تجنبها .

وما درى الفردوسي وسواه من العرب والعجم أن اللغة الفارسية نفسها ترجع الى نسب عربي عريق ، وأن الفرس أنفسهم بناءاً على ذلك ينتمون بوجه عام ، الى أصل عربي سحيق ! .. – وسنبرهن على ذلك – فـــلا مهرب لهم من اللغة العربية الحديثة إلا الى اللغة العربية القديمة . وعلى هذا لم يعد ثمة مجال للشعوبية، ولا معنى لأي عداء عنصري بين الشعبين الاخوين.

٦ ———————— بالاضافة الى فضل العربية عـــلى اللغات الاوربية المتحضرة القديمة من اغريقية ولاتينية، تدل تحرياتنا اللغوية على ان السكسون والجرمن يمتّون الى العرب بنسب لعله مباشر ، حديث نسبياً ، بالاضافة الى صلتهم القديمة غير المباشرة عن طريق العرق الهندي الاوربي (مما سنتطرق اليه) .. بل ان هناك هجرات عربية متوالية في عهود مختلفة مما يجعل للدم العربي شأناً في العنصر الجرماني ، وبهذا تنهدم أزعومة تفوّق العنصر الجرماني على العنصر السامي ويُقضَى عليها نهائياً .. وسيتضح من هذا وذاك ان (الساميّة) هي العروبة ويمثلها العرب حضارة ولغة ومثالية .

٧ ______________________ هذه الحقائق الغريبة – وغيرها – ستكون واسطة لحل الكثير من المشكلات اللغوية التي يتخبّط فيها علماء اللغة ويحارون في تفسيرها .

٨ ______________________ بالاضافة الى ذلك سوف تنكشف حقائق (تاريخية) مثيرة في آسيا وأوربا وأفريقيا كانت مجهولة أو غامضة ، وتتضح بجلاء مبين حقيقة الدور الفريد الذي مثلته الجزيرة العربية عـــلى مسرح التاريخ الانساني في تقرير المصير البشري ، ويعاد تقييم الدور الذي مثله الشعب العربي أبو الحضارات وأبو الشعوب ، والدور الذي مثلته اللغة العربية في تكوين لغات البشر وثقافاتهم وأفكارهم .

فضل العربية

على الحضارات القديمــة

محاضرة ألقيت في قاعة الحفلات بالدار البيضاء يوم ١٩٦٥/١/٢٥، ثم في كليــة الآداب بالرباط يــوم ١٩٦٥/٢/٢٤ ، ثم في الجديدة يــوم ١٩٦٥/٥/٢٨ – بدعوة من اتحاد كتّاب المغرب العربي بالرباط ، واللجان الثقافية في كل من المدن الثلاث .

تصحيح العنوان :

... أيها الاخوان والاخوات ، على تعبير المغاربة .. وأيتها الاخــوات والاخوان على تعبير المشارقة – وتقديم الاناث على الذكور سنّة أخذناها عن الغرب ، وهي من باب التعريب أيضاً ..

... أودّ الآن أن أزجي إليكم بضع مفاجئات لغوية ، أولها تصحيح عنوان محاضرتنا هذه ، فقد ورد في بطاقة الاستدعاء [١] أنه « فضل اللغة العربية على الحضارات القديمة » .. وأنا الذي ادعيت ذلك ظلماً وعدواناً ، لكني أستميحكم المعذرة الآن معترفاً بأن الذي أردت إليه حقاً والذي هو موضوع حديثنا فعلاً هو : فضل العربية على بني آدم حتى من قبل عهد الحضارات ، وفضل الطفل العربي .. الرضيع العربي .. على لغات البشر – بل فضل الفرّوج العربي ..

---

١ – المغاربة يستعملون كلمة الاستدعاء بمعنى الدعوة .

نعم الفرّوج .. فرخ الدجاجة العربي .. على اللغات الحضارية الراقية .. قديمها وحديثها .

لكني خفت اذا أنا صارحتكم بشيء من هذا في بطاقة الاستدعاء أن ترتابوا ، والحق معكم ، فتظنوا بي الظنون ، وتفرّوا مني ومن محاضرتي فراركم من الاسد!

أما الآن وقد تورطتم بدخول هذه القاعة فما الذي يمنعني من مصارحتكم بالحقيقة.. غير المُرّة؟ نعم سأحدثكم عن فرّوج أجدادكم الاشاوس، وسأحدثكم عن أعاجيب من أسرار الماضي البعيد .. البعيد .. مما لو جرى على لسان القصّاصة العالمية الحسناء – شهرزاد – لوصفته على طريقتها العذبة بقولها انه **لو كتب بالابر .. على آماق البصر .. لكان عبرة لمن اعتبر !**

والفضل في هـذا لا يعود الى مقدرتي وحذقي ، لكن الفضل كل الفضل للموضوعات التي سيتناولها حديثنا ، لأن هذه الموضوعات شائقة مثيرة للدهشة والاستغراب بذاتها . ولعلها ستثير طائفة كبيرة من أهـل الاستغراب .. والاستشراق .

وكلمتي هذه جزء صغير في الواقع ، او لمحات خاطفات من كتاب انتويت تأليفه بعد استيفاء البحث وارسائه على أسس مكينة ، اذا تيسرت لي المصادر والامكانات اللازمة لكل بحث وتفرغ . أما الآن والبحث على حـاله هذه فلا أستطيع ان أسميه بحثاً بالمعنى العلمي ، وانما هو مشروع بحث ..

طريقه في التنقيب :

كان المقدار الذي يعرفه المؤرخون قليلاً جداً عن احقـاب التاريخ القديم وحضاراته ، وعمـا قبل التاريخ من الاحقاب والحضارات . ثم بدأ التنقيب العلمي المنظم فاحتُفِرَت أطلال ونُبشت قبور وقصور ، واستخرجت دفائن ، واذا بأسرار الماضي النائم تسفر عن وجهها شيئاً فشيئاً، واذا بالمنقبين يكتشفون

بين حين وحين مصابيح وهاجة من الآثار تضيء زاوية من المجهول هنا وقبواً من المخبّآت هناك .

وكان أن وجدت نفسي قبل بضع سنين منهمكاً أنا ايضاً بالحفر والنبش في المكان والزمان ، من (نيپال) في أحضان جبال هملايا الى (ايسلندة) في المحيط المنجمد الشمالي .. ومن فجر التاريخ .. بل مما قبل التاريخ ، الى يومنا هذا . أجل فعلت كل ذلك بمفردي ، ودون ان أبارح غرفتي ، او أزايل مكتبي . ذلك بأن طريقتي في التنقيب هي نبش المعاجم اللغوية بحثاً عن العلاقات البشرية . وصرت أجد بين حين وآخر لُقيـــةً أنفس من لؤلؤة .. تومىء لي الى شيء مجهول ، ينبغي عليّ ان أفتش عنه واستجلي غوامضه .

بين العربية والآريات :

وجدت في تنقيباتي كثيراً من الألفاظ المشتركة بين العربية واللاتينية أول الأمر . وتبادر الى ذهني أن العربية هي المقتبسة من اللاتينية بوجه عام ، وأن اللاتينية لم تستفد من العربية إلا كلمات قليلة من قبيل (الجَمَل : camelus) و (الفيل : elephas) وأمثالهما من ألفاظ الصحراء او الشرق البعيد التي توسطت العربية في نقلها الى ديار الغرب . أما كلمة سَرِيّة جليلة الشأن مثل (القلم) التي وجدتها في اللاتينية بصيغة (calamus) فلم أتردد في الزعم بأن العربية هي التي استعارتها من اللاتينية . والسبب واضح فيما ظننت ، وهو ان العربية حديثة عهد بالنسبة الى اللاتينية أولاً ، وان اللاتين الرومان كانوا هم أهل الحضارة حين كان العرب أمة بداوة وبدائية ثانياً . ثم علمت بعد ذلك ان أصل الكلمة اغريقي – kalamos – وان اللغويين كافة يرون ان العرب البداة قد اقتبسوا هذه الكلمة الثقافية الشريفة – فسمّوها (دخيلة) .

ولقد أدهشني أن وجدت في أثناء حفرياتي ان للغة العربية علاقات متشابكة مع لغات بني الانسان في التاريخ القديم ، أعني الاغريقية والفارسية بالاضافة الى

اللاتينية . ولكني تذكرت ان لغة الاكديين ، أي البابليين القدماء ، كانت اللغة العربية ، عربية ذلك الزمان والمكان بطبيعة الحال ، أي قبل أكثر من (٥٠٠٠) عام ، في أرض الرافدين .. وان كلمة (بابل) نفسها عربية لأن أصلها البابلي هو (باب إيلو) أي باب الالاه، أو باب الله .. ووجدت مثلاً أن نظرية المثلث القائم الزاوية المنسوبة الى اقليدس قد اكتشفت في أرض الرافدين مكتوبة بالعربية البابلية على رقيم من الطين قبل عهد اقليدس بسبعة عشر قرناً ، أي منذ أربعة آلاف سنة . وتذكرت ان شريعة حمورابي البابلي العربي أقدم من حضارات الاغريق واللاتين والفرس جميعاً [٢] .

هنا تغير وجه المسألة ، بل انقلب عقباً على رأس . وأخذ يبدو لي ان الارجح هو ان هؤلاء ، أعني الاغريق واللاتين والفرس ، هم الذين اقتبسوا من أنوار اللغات العربية : البابلية والآشورية والحِمْيَرِية والفنيقية والأرمية .. التي حملت مشعل الحضارة تباعاً .. مجتمعة ومنفردة . واذا باللغة العربية ليست باللغة الحديثة ولا البدائية، وانما هي لغة علم وثقافة منذ عهد الاكديين . وبكلمة أخرى ان العربية أعرق لغة حية على وجه الارض . فما من لغة غير العربية اليوم تسحب وراءها ماضياً حضارياً ثقافياً وهاجاً – مثل ذيل الكوكب المذنب – طوله خمسون قرناً ..

ان تحرياتي لم تكن كافية ولا منظمة لكثرة تنقلي في الامصار ، وبعدي عن المكتبات والمراجع ، وحاجتي الى الاستقرار الذي آمل ان أجد كفايتي منه هنا . الا ان حفرياتي بالرغم من هذا كله عادت عليّ بحصيلة كبيرة من الألفاظ العربية موزعة على الأمم القديمة في أوربا وآسيا . وأود هنا ان أنبّه الى نقطة

٢ – وجدوا في اطلال أشنُنّه (Ashnunnah) بالعراق قانوناً بابلياً أقدم من شريعة حمورابي بنحو قرنين . ومن مزايا قانون أشنُنّه هذا أولاً: انه يذكر أقدم مظهر معروف للعملة وهو وزن معين من الفضة باسم « شيقل » – أي الثقل – وشبيه بذلك اشتقاق اسم « المثقال » من نفس الكلمة فيما بعد . ثانياً : انه يسجل أقدم تحديد للأسعار عرفه التاريخ يتناول الضروري من السلع للحياة العامة من معاش وصناعة ونحو ذلك .

مهمة وهي اني لا أقصد ما استفادته لغات الشرق والغرب من العربية في عصور الازدهار الاسلامية ، فهذه الفوائد والألفاظ معروفة يعلم المعجميون الاجانب انها من العربية ، وقد نقلها ونشرها الكثيرون من اللغويين المحدثين العرب . وانما أنا أبحث عن الألفاظ التي اقتبستها اللغات الاجنبية من العربية قبل الاسلام ، وقبل التاريخ ، ولا تدري المعاجم الاجنبية ان أصلها عربي .

العطـــاء :

ومن حقكم ان تسألوني ما الدليل على ان اللغات الأعجمية هي المقتبسة ؟ ألا يجوز ان تكون العربية هي التي استفادت هذه الالفاظ المشتركة من هذه اللغات الاجنبية الخطيرة الشأن ؟

لا يتسع بنا المقام هنا لاستعراض الكثير من الالفاظ المشتركة بين اللغات وتحليل معانيها واشتقاقاتها وردّها الى أصولها ، فان هذا من البحوث الجـافة المملة ، مكانها الكتب والمجلات .. على حين ان المحاضرات بطبيعتها ينبغي ان تكون خفيفة سائغة . فأنا بين نارين : نار الجفاف الذي تتسم به البحوث اللغوية كبحثنا هذا من جهة ونار الطراوة التي تتطلبها طبيعة المحاضرات من جهـة أخرى . فلنخفف اذن ونلطّف على قدر الامكان . ولنأخذ كلمة واحدة من الكلمات المشتركة وهي (الاداء) او (التأدية) من فعل (أدّى) . وهي في الفارسية (داد) أي أعطى .. وفي اللاتينية addo و datio و dono .. ومنها في الايطالية dato . ومن صورها في الفرنسية donner و donation و date . وللكلمة في كل من هذه اللغات اشتقاقات أخرى . ولها في الانكليزية ايضاً بعض الصور منها الكلمتان الفرنسيتان الأخيرتان ، أعني date و donation .

فأية واحدة من هاته اللغات الخمس هي (المعطية) الأولى لهذه الكلمة الدالة على (العطاء) ؟

النظرية الرائجة هي ان اللغات الاوربية أصلها آري هندي ، لذلك سموها اللغات (الهندية / الأوربية) . فـــاذا أخذنا بهذه النظرية الشائعة لاحت الكلمة كأنها آرية الاصل انتقلت من الشرق الى أوربا ، ولعلها مرّت في طريق انتقالها ببعض البلاد العربية فتخلفت فضلة منها للعرب . ونحن لا نريد ان ننكر المادة الآرية في اللغات الاوربية طبعاً ولا الدماء الآرية في شرايين الاوربيين . ولكن حفرياتي اللغوية كشفت لي ما للعربية من دور خطير في هذه اللغات الاوربية ، بل وما للدم العربي من قسط كبير في شرايين الاوربيين وأوردتهم، وما للأفكار العربية من تفاعل شديد في رؤوسهم ونفوسهم .

اذا وجدنا كلمة مشتركة في بضع لغات فانما نستطيع ان نعرف اللغة الأم منهن باحدى طريقتين فيما أظن . إما ان نعرف في أية واحدة من هذه اللغات كانت الكلمة أقدم عهداً ، وإما ان نجد في احدى هذه اللغات الجذرَ البدائي الاصيل الذي نشأت منه الكلمة .

أما من حيث القدم فقد وردت الكلمة في الاكدية بصيغة (ندانو) وكأنها الفائزة بقصب السبق في القِدم .

ويبدو لي ان هذا لا يكفي لاقناعكم ، ولا سيا ان فيكم من أجلة العلماء من لا يقنعه الا البرهان الصريح الباتر . وكأني ببعضكم يقول : ومن يضمن لنا ان الاكدية ليست هي المقتبسة ؟ فان كون الاكدية أقدم من هذه اللغـــات في الحضارة لا يعني انها أقدم منها في الوجود . كما ان كلمة (العطاء) ليست من الكلمات الحضارية الراقية التي لا تعرفها الأمم المتخلفة لنقول ان الاكديين هم الذين اخترعوها فتعلمها منهم الآخرون . نعم ، الحق معكم . انه اعتراض معقول أنا الذي وجهته الى نفسي في الحقيقة ، قبل ان يوجهه اليّ أحد ، وأنتم شهودي على ذلك . لكني مصرّ مع هذا على ان كلمات العطاء هذه الموزعة على عدة لغـــات ، أصلها عربي قحّ . والسبب هو اني وجدت النواة الاولى التي انبثقت وأثمرت و (أعطت) ثمارها الاولى الى أهل الارض غرباً وشرقاً . .

اليد وبناتها :

وجدتها أيها الاخوة والاخوات ، في العربية . انها كلمة صغيرة من حرفين اثنين ، هما الياء .. والدال . نعم ، انها (اليد) ، هذا العضو المهم من جسم الانسان . لقد أكثر العرب من اشتقاق الافعال والاوصاف من أسماء الاعضاء . فمن (الوجه) اشتقوا المواجهة والاتجاه والجهة والتوجيه والوجاهة والجاه .. الى آخر ما هناك . ومن (الظهر) اشتقوا الظهور والمظهر والظاهر والظهير والتظاهر والتظاهرة والمظاهرة .. الى آخر ما هنالك . فلا عجب أن اشتقوا من (**اليد**) فعل (**أيّدَ تأييداً**) بمعنى المساعدة ، والمساعدة أيضاً من (**الساعد**) بمعنى المعاضدة ، وهذه أيضاً من (**العَضُد**) بمعنى المكاتفة ، وهذه أيضاً من (**الكتِف**) بمعنى المؤازرة ، وهذه أيضاً من (**الأزر**) وهو (**الظهر**) الذي تحدثنا عنه توّاً ، ومنه أيضاً اشتقوا (**المظاهرة**) بمعنى التأييد كذلك .

كذلك صاغ العرب من (**اليد**) فعل (**وَدَى يَدِي وَدْياً و دِيَةً**) بمعنى أعطى ، و (**الدِيَة**) هي التعويض يدفع عن دم القتيل كما هو معلوم .

كذلك صاغوا فعل (أدّى) بمعنى أعطى باليــــد . ثم انهم فكّوا ادغام الدال المشدّد في (أدّى) بادخال الهاء مرةً فقالوا (**أهدَى**) ومنها (**الهدية**) ، وبادخال النون تارة فقالوا (**أندَى**) بمعنى أعطى وأكثر العطاء ، ومنهــــا (**النَدَى**) أي السخاء . و (**أنْدَى**) هذه تطورت فصارت (**أنطى**) ، وهذه صارت (**أعطى**) .. ثم (**آتى**) .. ثم (**أتَــى**) .

فهل من شك بعد هذا .. بعد كل هذا .. في أن أصل الكلمة عربي صميم ؟ اننا نرى شجرة النسب هنا كاملة حتى آدم العطاء (**اليد**) . **أتى بنت آتى .. بنت أعطى .. بنت أنطى .. بنت أندى .. بنت أدّى .. بنت اليد** [٣] .

---

٣ – هذا نقوله خلافاً لنظرية الاستنطاء المشهورة التي تقول ان « أنطى » لغة متفرعة من « أعطى » نطق بها بعض العرب .. وخلافاً لما يقوله بعض المحدثين مصححين لخطأ الأقدمين من أن « أنطى » من « أتى » . فالذي نراه أن العكس هو الصحيح ، في كلتا الحالتين .

والسؤال الآن هو كيف استعجمت هاته الكلمة اليعربية ؟

ان فعل الامر من (وَدَى) هو (دِ) كما نعلم ، مثل (قِ) من وقَى ، و (عِ) من وعَى ، و (جِ) من وَجَى ، و (حِ) من وَحَى ...

وفعل الامر (دِ) هذا هو الذي اقتبسه الفرس ، فهو نفسه بنفس اللفظ والمعنى فعل الامر عندهم أيضاً . ومنه صاغوا الماضي (داد) والمصدر (دادن) .

ومن فعل (أيّد) تسرّب الى الفرنسية والانكليزية فعل aid بنفس المعنى العربي ، أي المساعدة .

كذلك تناول اللاتين فعـــل (أدّى) فنطقوه على طريقتهم addo بنفس المعنى . ومن فعل (ندانو) في الاكدية أو ما يقاربه صاغوا فعل (dono) بمعنى (أهدى) . وعن اللاتينية أخذت اللغات الاوربية الحديثة وزادت في التوليد والاشتقاق .

واذا بهذه الكلمة الصغيرة — **اليد** — تفرّخ تفريخ الدجاجة ، وتوزع هباتها على العالمين ، منذ ألوف السنين . ومن الطرائف أن كلمة (data) وهي تعني (العطايا) باللاتينية وكثير من اللغات الاوربية قد ترجمها العرب المحدثون (المُعْطَيَات) . وها هي (data) الاوربية ترجع بنسبها عن طريق عربية الى (اليد) ، وها هي نظيرتها (**المعطيات**) الآسيوية ترجع بنسبها عن طريق عربية الى (اليد) أيضاً ، وقد قرنها المترجمون على عهودنا . فسبحان من يجمع الشمل بعد شتات ألوف السنين .

و القلم وما يسطرون :

ومن المناسب هنا ان نلتفت التفاتة سريعة الى (**القلم**) الذي هو (kalamos) في الاغريقية و (calamus) في اللاتينية ، لتطمئنوا على مصيره ، قبل الخوض

في شؤون أخرى . اني أعلن لكم بصراحة انه عريق النسب في العروبة ، وأنه ينتمي الى أسرة عربية كثير عديدها .

ان (القلم) أولاً مشتق من فعل (قَلَمَ قَلْماً) مثل (قطع قطعاً) وزناً ومعنى . ومثلها (جَلَمَ جَلْماً) تعني قطع أو حَلَق . ولها أخوات : جَلَحَ ، جَلَفَ ، جَلَهَ ، جَلَى . وفعل (قلم قلماً) أيضاً له أخوات : قَلَفَ ، قَلَخَ ، قلع ..

وربما كان حرف اللام في (قلم) بديلاً للطاء في (قطم) والصاد في (قصم) والضاد في (قضم) .. الى آخر ما هنالك .

أما في اللغتين الاوربيتين فنجد الكلمة في المعجم يتيمة ، لا أهل لها ولا أقارب .

ثانياً : ان القلم يعني القصب في اللغات الثلاث . وصياغة كلمة ٍ، تعني القصب من فعل ٍماض ٍيعني القطع ليس بدعاً في العربية ، فان كلمة (القصب) ذاتها قد صيغت بنفس الطريقة من الفعل الماضي (قصَبَ) الذي يعني القطع أيضاً . فالظاهر ان القوم الذين صاغوا اسم (القلم) من الفعل الماضي هم الذين صاغوا (القصب) بنفس الاسلوب : أي العرب ، وربما قبيـلٌ بذاته من العرب في كلتا الحالتين .

من ثمار الحفريات :

هذا قليل جداً من كثير جداً من مكاسبنا في الحفريات المعجمية . وإليكم نماذج قليلة أخرى من اللغات الاوربية الثلاث: الاغريقية واللاتينية والانكليزية:

هاكم من الاغريقية أولاً :

١ – Sema : أي العلامة . وأصلها العربي : السِّمة و السيماء ، و السومة أيضاً .

٢ – Muthos : وأصلها العربي : المُثْلَة و المَثُلَة ، ومعناها في كلتا اللغتين الاغريقية والعربية هو: ما يُروَى للعبرة من أخبار الاولين وأساطيرهم. ومنها mythology في اللغات الاوربية ، أي (علم الاساطير) . ويمكننا فيما أظن أن نسميه في العربية علم (المَثُلات) . وأود هنا أن أبشركم سلفاً بأن logy هذه في mythology هي أيضاً عربية مثلكم ، وسنعود إليها حين يأتي دورها .

٣ – Historia : أي الخرافة . وأصلها العربي : أسطورة و إسطيرة .. وهي في العربية من (السطر) . ومنها في الانكليزية : history بمعنى التاريخ، وفي الفرنسية : histoire بمعنى التاريخ أو الحكاية .

٤ – Aster و Astron : أي النجم . والصيغة الاولى Aster أشبه باسم (عشتار) الإلاهة البابلية – إلاهة الحب والجمال – أي كوكب الزهرة . والصيغة الثانية Astron أقرب الى (عشتاروت) كما ينطقها الفنيقيون . وهي لدى الاغريق تعني النجم بوجه عام . وهي كذلك في اللاتينية وتنطق Astrum . ومنها صيغ اسم علم الفلك astrologia بالاغريقية واللاتينيـة ، و astronomy و astronomie بالانكليزية والفرنسية . ولو أردنا أن نصوغ اسم علم الفلك في العربية على هذه الطريقة من اسم عشتار لقلنا ان astronomy هو (العَشْتَرَة) [٤] .

٥ – Techné أي الفنّ . ومنه technology في اللغات الاوربية الحديثة . وأصلها العربي (التِقْن) بمعنى المَلَكة و الجِبِلّة . ومنه قالت العرب « ان الفصاحة من تِقْنه » أي من طبعه . ولا أدري من هو

---

٤ – اسم عشتار ما زالت منه بقية في لغة نيبال ، فان إلاهة الحب والجمال عندهم تدعى بالنصف الثاني من اسم عشتار : « تارا » .

أول من استعمل (التِقن) مقابل (تكنيك) لأهنئه على سلامة ذوقه، لانه اختار هذه الكلمة لشبهها لفظاً وقربها معنى . لكننا نعتقد أن هذه الكلمة العربية هي أمّ هذه الكلمة الاغريقية فعلاً .

نكتفي بهذه الخمس الكلمات من الاغريقية ، وإليكم خمساً أخرى من من اللاتينية :

١ — Solidus وعربيّها : الصُّلْب و الصَّلْد و الصَّلُود .

٢ — Ululo وعربيّها : وَلْوَل .

٣ — Capesso وعربيّها : قبض .

٤ — Tabum وعربيّها : طاعون .

٥ — Genius وعربيّها : جِنّي (الواحد من الجن) .

وهذه خمس أخرى من الانكليزية :

١ — That من : ذاك .

٢ — Cut من : قطّ ، أي قطع .

٣ — Earth من : أرض .

٤ — Tall من : الطول ، بمعنى الطويل .

٥ — Wine من : وَيْن (العِنَبُ الاسود) .

الاصل المشترك :

واني لفي نشوتي أتخبط بين المعاجم ، فرحاً بما اكتشف من نفائس التحف

اللغوية التي تعزز هذه الفكرة عندي وتزيدها رسوخاً في ذهني - أعني فكرة فضل العربية على اللغات الاوربية - واذا بعقبة كالجبل تنتصب أمامي ذات يوم لتقلب الاوضاع وتذهب بكل جهودي أدراج الرياح الاربع. ذلك اني وجدت في بعض مطالعاتي ان بعض المستشرقين قد لحظوا الشَبَه ، لا بين العربية واللغات الاوربية وحسب ، بل بين الساميات والآريات كافة ومنهن السنسكريتية - أي الهندية القديمة . بل ان منهم من طابقوا جميع الكلمات الاصيلة في اللغات الساميّة مع نظيراتها في اللغات الآرية فوجدوا ان معظم جذورها الثنائية مشتركة بين الطائفتين . اما الكلمات التي لم يجدوا لها جذراً ثنائياً مشتركاً فقد صاغوا لها جذراً ملائماً افترضوا انه كان موجوداً في غـــابر الدهر ثم اندثر . والمقصود بالجذور الثنائية للكلمة هو ان الكثيرين من علماء اللغة يعتقدون أنّ أصل الكلمات كان أول الأمر يتألف من حرفين تقليداً لاحد الاصوات الطبيعية ثم زيدت في كل لغة حروف أخرى بمرور الزمن .

وقد اختلفت آراء المستشرقين في تعليل هذه الظاهرة اللغوية ، أي ظاهرة التشابه بين أصول الالفـاظ الساميّة والآرية ، فبعضهم استنتج ان الآريين والساميين كانوا يتكلمون لغـــة واحدة بادت منذ زمن سحيق بعد ان انشعبت شعبتين . وبعضهم قال ان الاصل البشري الذي انحدر منه الساميون والآريون كان يتكلم لغة بدائية قديمة فلما انسلخت هاتان الطائفتان سلكت كل واحدة منهما طريقها في تطوير لغتها ، وبقيت أثارة من اللغة القديمة الأمّ تظهر في هذه الجذور الثنائية . لكن أكثر علماء اللغة ينكرون المسألة من أساسها ويرفضون فكرة انتماء هاتين المجموعتين من اللغات الى أصل واحد بحجة ان النظرية غير علمية لانها افتراضية ولان أدلتها غير قاطعة ، ومن ثم كان الأخذ بها ضرباً من العبث .

والآن ما موقفنا نحن ، إخواني وأخواتي ، من هذه المعضلة الجديدة ؟ هل نصدق هذه النظرية فنقول ان الشَبَه بين العربية والآريات يرجع الى الاساس اللغوي الاول الذي لا نعرف عنه شيئاً ومن ثم لا فضل للعربية على غيرها ؟ أم

هل ننضمّ الى خصوم النظرية من علماء اللغة ونهمل هذه الظاهرة الصريحة التي لا يمكن انكارها مهما تغاضى بعضهم عنها وعن النتائج المترتبة عليها ؟

لا هذا ولا ذاك .. فنظريتنا القائلة بفضل العربية على الاوروپيات صحيحة ، ونظريتهم القائلة برجوع الطائفتين الى أصل واحد صحيحة ايضـــاً . فكيف كان ذلك ؟

اليكم البيان .

اذا أمعنا النظر في الالفاظ المشتركة نجدها تتألف من صنفين متمايزين ، أولهما الكلمات البدائية كأسماء الحيوان واعضاء البدن وما الى ذلك . وثانيهما الالفاظ الحضارية الراقية .

فلنعاود الآن ذكر هذه الالفاظ الحضارية التي مررنا بها منذ قليل : historia أي الاسطورة ، muthos أي المـَثلة ، techné أي التقن ، و astrologia أي علم الفلك . وهذه الالفاظ موجودة في الاغريقية واللاتينية معاً . ولنضف اليها alphabetha أي الالفباء التي نعلم جميعـــاً ان الاغريق اقتبسوها من العرب الفنيقيين . فهذه تعابير حضارية لا يمكن اعتبارها من الالفاظ البدائية ، لا من حيث القيمة اللغوية ولا من حيث الرقي المعنوي .

وعلى هذا لا يمكن أن تكون هذه الالفاظ الحضارية المشتركة بقيةً أثرية من لغة قديمة عفـّى عليها الزمان . ولا أجد حلاً للمشكلة إلا أن نعترف بفضل العربية على هاتين اللغتين وفضل العرب على هاتين الامتين المتحضرتين في أوربا في العصور القديمة . والدليل كما قلنا هو أولاً قدم الحضارات العربية من أكدية وآشورية وحميرية وفنيقية وأرمية . وثانياً : ان أصول هذه الالفاظ موجودة كلها مع تفرعاتها في العربية بينما هي في هاتين اللغتين الاوربيتين فروع بـــلا أصول .. مما لا يدع لنا مجالاً للريب في حقيقة نسبها . ولولا ضيق المقام لأتيناكم من الامثلة الكثيرة بما يكفي لاقناعكم .. وإملالكم .

اللغة الأم :

بعد أن اطمأن بالنا على نظريتنا في فضل العربية في العهود الحضارية نعود الى التساؤل عن هذا الشبه الآخر بين جذور الالفاظ البدائية في العربية والآريات ومنها السنسكريتية الهندية التي كانوا يظنونها أم اللغات الآرية جميعاً ومنها الفارسية (ثم قرروا أخيراً ان الفارسية أخت السنسكريتية - لا بنتها - أو شيئاً بهذا المعنى) . نعم ، هذه الظاهرة اللغوية العجيبة ما معناها ؟ وكيف نفسّرها ؟

ساءلت نفسي : **هل التقت العربية بالهندية ؟ في أي مكان ؟ هـــل العرب أصلهم هنود ؟ هل الهنود أصلهم عرب ؟ هـــل هاجر أحد الطرفين الى بلاد الآخر في الماضي السحيق ؟ في أي زمان ؟** هذا هو السؤال الآن : في أي زمان .. لا في أي مكان فقط .

أجل لا بد هناك من هجرة .. في زمان .. من مكان الى مكان . ثلاثة ألفاظ : **هجرة ، زمان ، مكان .**

أيها الاخوان والاخوات ، لقد انحلت المشكلة ..

مكان المسرحية أو المأساة هو الجزيرة العربية . وزمانها قبل نحو أحد عشر ألف سنة . وخاتمتها هجرة ، نعم هجرة مروّعة .

وجدتُ المفتاح في حقيقة تاريخية معروفة ، كثيراً ما مررنا بها وتحدثنا في شأنها دون أن يخطر لنا أن نتساءل عن نتائجها اللغوية العظيمة .

من المعلوم أن الجزيرة العربية كانت في الماضي البعيد غابةً لفّاء كغابات الهند وأواسط افريقيا ، تخترقها أنهار عديدة كبيرة وصغيرة ، وتغاديها أمطار غزيرة ، فكانت كثيرة السكان وافرة النبات والحيوان . وكان هذا في زمان كان الثلج فيه يغطي شماليّ أوربا فلا يترك فيها فرجة لمعيشة ذي روح من انسان

أو حيوان . فلما ذاب ذلك الدثار الزمهريري من الثلج عن أوربا فأسفرت أرضها لترى وجه الشمس كانت هذه النعمة الاوربية والانسانية الكبرى كارثة كبرى على الجزيرة العربية ، لأن ذلك سبّب تغيّر اتجاهات الرياح ، واذا بالسحاب المطار الذي كان يغدق بركاته على العرب يتحوّل الى اوربا ، واذا بتلك الجنة الفيحاء تصوّح تحت اشعة الشمس التي أصبحت ناراً تلظّى على الجزيرة العربية وبرداً وسلاماً على اوربا . . واذا بالغابة تصبح الصحراء القاحلة المحترقة التي تعرفون.

فماذا كانت النتيجة ؟ ماذا يفعل الملايين من ابناء الجزيرة العربية الذين اعتادوا العيش الرخيّ الهنيء في تلك الجنة ؟ النتيجة الطبيعية انهم صاروا ينزحون عنها بسرعة تتناسب مع سرعة انتشار الجفاف والقحط فيها . فلا بد ان منهم من هاجر شمالاً الى الشآم والعراق ، وان منهم من هاجر مشرّقاً الى ايران وما وراءها ، ومنهم من هاجر مغرّباً الى مصر وما وراءها ، ومنهم من اتّجه الى اوربا عبر البرّ الاناضولي او البحر المتوسط . ويظهر ان بعضهم هاجر الى الهند . ولا نعلم الاحوال الارضانية (اعني الجيولوجية) في تلك الايام ، فلعلها كانت اصلح للسفر الى الهند مما هي عليه اليوم . ومهما يكن فان عبور الخليج العربي لم يكن بالامر العسير ، ولا سيما من اضيق نقاطه عند مضيق هرمز . ولئن كان الاوربيون قد ساروا في الاصل من الهند حتى بلغوا السويد والنرويج وايسلندة فان هجرة العرب الى الهند ملاحةً عبر الخليج العربي او مسيرةً عبر بلاد فارس امر يغدو طبيعياً هيناً لا غرابة فيه . هذا الى ان وطن السنسكريتية الاول غير معروف بالضبط هل هو الهند ام غيرها . ونرجح بناءاً على مقتضيات نظريتنا في الهجرة العربية ان موطن الآرية الاولى بصبغتها العربية قد كان في موضع من ايران اولاً ، ثم في مكانٍ ما من المنطقة التي تجتمع فيها ايران بالافغان وباكستان.

ولا بد ان العرب كانوا يومئذ ، كما كانوا ابداً ، على جانب كبير من الحيوية . . ألعدد القليل منهم يملأ المكان الفسيح ويغمره ، كالذي رأينا مثلاً في شماليّ افريقيا والاندلس على العهد الاسلامي . وكان للغتهم من الحيوية ما لأصحابها . ويبدو

انهم استقرّوا وتوطد لهم العيش في شبه القارة الهندية ، أو قريباً منها ، بحيث ان لغتهم التي كانت على الاغلب في مرحلتها الثنائية عهدئذ ، طغت على اللغة او اللغات المحلية التي لعلها كانت ضعيفة جداً بدائية جداً .. او ربما لم يكن السكان المحليون يملكون لغة اصلاً . بل لعل أولئك الاعارب نزلوا ارضاً خالية نموا فيها وترعرعوا فكانوا امةً وحدهم اول الأمر لهم لغتهم وحدها .. ثم كثروا وانتشروا .

وهذا اخواني وأخواتي، هو التفسير الوحيد الذي يتراءى لي في ظلمات التاريخ لهذه الظاهرة اللغوية ، ظاهرة تشابه الالفاظ السنسكريتية في جذورها الثنائية مع الالفاظ العربية .

كون الجزيرة العربية جنة غنّاء قبل احد عشر الف سنة حقيقة تاريخية لا ينكرها احد من العلماء ، وتحوّلها الى صحراء مجدبة حقيقة تاريخية جغرافية لا يماري فيها احد من العلماء ولا الجهلاء . واما أن الجدب يسبب الهجرة وخاصة في الجزيرة العربية فحقيقة تاريخية جغرافية اجتماعية اقتصادية ثالثة تكررت مراراً، لا على اثر انكسار سدّ مأرب وحسب ولكن في مناسبات كثيرة اخرى. كلما اناخ على الجزيرة العربية بلاء من قحط او حرب او زيادة سكان .. اي كلما عصرتها الظروف خرجت منها مـــوجة مهاجرة كما يخرج معجون الاسنان من الانبوبة حين تعصرها باصبعيك .

ان المسألة ايها الاخوة والاخوات ليست جوازية بل وجوبية . اعني ان الهجرة من الجزيرة العربية لا بدّ أنها وقعت ، وان وقوعها لا بد ان يكون قد ترك آثاره اللغوية المبينة . وهذا نفسه هو تفسير الشبه بين اللغة العربية واللغات الحاميّة أيضاً .

الجذور الصوتية :

لكني مع هذا ، اجل مع كل هذا ، لا اكتم عنكم انني اعترضت على نفسي في

هذا الاستنتاج الخطير ، وقلت لنفسي : إفترض يا صاح ان هجرة الاعارب الى الهند او غيرها من الاصقاع وزرع لغتهم فيها لا يعدو أن يكون وجهاً من وجوه الاحتمال ، إن لم يكن لدينا برهان يفنده فليس لدينا برهان يؤيده . والبحث العلمي لا يبيح لنا بناء الحقائـــق – وخاصة مثل هذه الحقيقة الضخمة – على الاحتمالات والافتراضات ، محاباةً لفكرة قَبْليّة غازية أو بَعْدِيّة واهية ، ولا اندفاعاً وراء عاطفة وطنية او عصبية قومية . وانما قصارانا في مثل هذه الحال ان نقول ان الامر يحتمل ان يكون كذلك ونترك تمحيصه للزمن وللناس . فلنفترض كذلك انه يحتمل ان يكون العرب هم الذين اقتبسوا لغتهم من الآرية الاولى في ظروف تاريخية لا علم لنا بها .

لكن ما العمل وقد انتصب امامي دليلان كبيران يؤيّدان حوّائيّة العربية بالرغم من اعتراضاتي ؟

اما الدليل الاول فهو أننا في العربية وحدها نجد الاصول التي نشأت منها الكلمات المشتركة بين العربية والآريات على نحو ما رأينا في الالفاظ الدالة على العطاء وكيفية انبثاقها من (اليد) . بل اكثر من هذا اننا نجد في العربية النبرة الصوتية التي نبتت منها الكلمة منذ يوم ولادتها . اليكم مثلاً فعل (فَرّ) الذي يحكي صوت اجنحة الطائر عند فراره . وما زالوا في العراق يقولون في وصف فرار الهارب : عمل فررررر . . وطار مثل العصفور ! ومن هذه الكلمة يقول الانكليز مثلاً (فلاي – fly) بمعنى يطير ، و (فلايت – flight) بمعنى الفرار . ولا يمكننا ان نتبيّن الاصل الصوتي في هاتين الكلمتين الانكليزيتين المحرفتين دون استدلال بالاصل العربي (فرّ) .. الذي يحكي الصوت الطبيعي ويصوّره تصويراً دقيقـــاً ، ومن ثم لا يمكن أن تكون الكلمة الانكليزية (flight) هي اصل الكلمة العربية (فرّ) .

الاصوات العربية :

واما الدليل الثاني فهو الاصوات العربية التي لا وجود لها في اللغات الاعجمية

ولا سيما الاصوات الحلقية منها . فاذا وجدنا الفاظاً مشتركة منشؤها هـــذه الاصوات الحلقية الطبيعية ورأينا الاعاجم قد اضطروا الى استبدالها باصوات يقدرون عليها أفلا يدل ذلك على اصلها العربي ؟

كثيراً ما سمعنا الاجانب ينتقدون اللغة العربية لوجود اصوات العين والغين والخاء والصاد والضاد وغيرها فيها ، مما يجعلها في زعمهم غليظة خشنة لانها يصعب نطقها عليهم . وفاتهم أن هذه الحروف طبيعية ، اي ان الطفل في كل بلاد العالم ينطق بها عفواً ، لكنه حين يكبر لا يجد هذه الاصوات في لغة أهله فيهملها الى ان تتعطل بالتدريج اعضاء النطق المكلفة بأدائها ، كما تتعطل اليد او الرجل او اي عضو يهمَل استعماله منذ الصغر .

فلنضرب بعض الامثلة على نشوء الكلمات من الاصوات العربية ، الصعبة على غير العرب . . وهي نفيسة كالعملة الصعبة لاهميتها في تصوير بعض الاصوات الطبيعية . لنأخذ صوت (الحاء) ، فهو احد هذه الاصوات الحلقية الغريزية ، ينبعث تلقائياً عند التنحنح فيقول الصغير (اح) لمجرد تنقية حنجرته دون ان يريد مخاطبة احد او التعبير عن شيء . فمن هذا الصوت صاغ العرب فعل (أحّ) بمعنى سعل ، ثم اصبحت بمرور الزمن (قحّ) و (كحّ) وهما صيغتان مندثرتان في العربية الفصحى فيما يظهر لكنهما ما زالتا مستعملتين في بعض بلاد الشرق الاوسط . ومن (قَحّ) صاغ العرب الاقدمون فعل (قَحَبَ) و (قَحَفَ) ، وما زال المغاربة يقولون (الكَحْبَة) بمعنى السعال . لكننا لا نشك أن الجذر الثنائي الاصيل هو فعل (أحّ) لانه هو الذي يصور الصوت الطبيعي للسعال تصويراً واقعياً . وفعل (قحف) يطالعنا في الانكليزية بصيغة (كف — cough) بنفس المعنى . ويقول المعجم الانكليزي ان هذه الصيغة منحدرة من الانكليزية الوسطى (Middle English) التي ورد فيها بصيغة (coghen) ، وهذا منتهى علمهم . فهل نستطيع او يستطيعون ، ان نقول او يقولوا ، ان cough أو coghen هما الاصل الذي اخذ عنه العرب فعل (قحف) ثم جعلوه

(قحّ) ثم اعادوه الى الاصل الطبيعي (أحّ) ؟ ان البذرة يمكن ان تنمو فتصبح شجرة لها فروع ، ولكن الفروع لا يمكن أن تعود الى شجيرة ثم بذرة .

الطفل العربي :

واعرض لكم الآن نموذجاً رائعاً من ثمار الحفريات اللغوية ، إسمحوا لي هذه المرة ان أعدّه دليلاً قاطعاً . وهو فوق ذلك يعود بنا الى منبع من أقدم منابع اللغة ، وأجملها ايضاً . وسنرى في هذا النموذج كيف تنبت البذرة وتنمو وتورق وتزهر تحت سمعنا وبصرنا . وبعبارة اخرى سنرى بأم عيننا كيف تنبثق اللغة وتتكون .

الآن آن أن ننجز لكم ما وعدناكم به من الحديث عن فضل الطفل العربي — الرضيع العربي — على لغات بني آدم ..

ها هو طفلنا الوليد قد استوفى نصيبه من الرضاع بعد نومة هنيئة ، فشاع في نفسه الجديدة شعور غامر بالسعادة ، فاذا به يرفع عقيرته بالغناء ، كما يفعل الكبار من العرب غالباً في امثال هذه المناسبات ، ويصيح دون سابق انذار : **غا غا غا غا غا ...**

وكثيراً ما تطغى عليه النشوة فيرتقي طبقة اخرى في الغناء ويصيح معلناً رضاه عن الدنيا وعن سير الامور فيها بقوله متحمساً: **لغ لغ لغ لغ لغ لغ لغ...**

وأظننا كلنا قد لحظنا مراراً هذه الاغرودة وطربنا لها . وهذا الصوت الحلقي ، اعني حرف الغين هنا ، ليس خاصاً بالطفل العربي ، بل هو عالمي يترنم به عفوياً وفطرياً أطفال جميع الشعوب كالذي قلنا . وبكلمة اخرى ان الطفل يولد على الفطرة: عربياً في نطقه .. وأبواه يفرنسانه أو يؤغرقانه أو يهنّدانه ...

فلننظر أيها الإخوان والأخوات .. الأصح هنا تقديم ذكر الاخوات على الاخوان لان الموضوع موضوع اطفال هنّ أوْلى به .. نعم أيتها الاخوات والاخوة .. ما معنى هذه الظاهرة الانسانية وما قيمتها ، أو قيمها ؟

انها قبل كل شيء (كلام) بالنسبة الى قائلها – الطفل – لانها (تعبير) عن شعوره بالوجود وفرحته بالحياة التي أخذ يستطيبها . وهي ثانياً (لَغْو) بالنسبة الينا لا تعبّر عن معان محدّدة كالفاظنا القاموسية التي اعتدنا التعبير بها . وهي مع هذا وذاك (غناء) .. يبدأ به الانسان من تلقاء نفسه دون تعليم . وهي رابعاً (دعوة) من هذا الآدمي الصغير للكبار من الآدميين تبتعث أواصر (التعاطف) الانساني والشعور بالرحمة في نفوسهم ولاسيما نفوس الامهات .

ثم فلننظر هل ادرك العرب الاقدمون في تلك العصور الحجرية والعهود الغابيّة السحيقة .. هل ادركوا هذه المعاني في (لغلغة) الطفل هذه ؟ العجيب أيتها الأخوات والاخوة انهم ادركوها كلها أصحّ ادراك ، وعرفوا قيمتها أمتع عرفان ، وتركوا لنا ذلك واضحاً في لغتهم – لغتنا .

أما تقديراً للقيمة (العبثية) في هذه اللغلغة فقد صاغوا منها اول الامر فعل (لغا لغواً) اي قال الصغير (لغلغلغلغلغ) . ثم عمّت الكلمة فاستعملت للكبار والصغار جميعاً بمعنى الهذر والتخليط في الكلام . وليعذرنا أنصار (العبثية) في الفن الحديث ، فان العرب عدّوا ما لا يُفهم ولا معنى له (لغواً) ..

على ان تسمية لغلغة الوليد (عبثاً ولغواً) امر عادي لا براعة خاصة فيه . واما الذي يستحق التسجيل لما فيه من دلالة على عمق الاحساس وسلامة الفهم فهو ان العرب منذ عهدهم البدائي البعيد ادركوا نفسانياً وعقلانياً ما في هذه اللغلغة من قيمة كلامية ، فاعتبروها تعبيراً وخطاباً من هذا الكائن الجاهل الابكم المهذار ، إذ قالوا (لغا لغواً) بمعنى تكلم ، أيضاً ! ولعلكم تستغربون ذلك . فمن انكر هذا منكم فما عليه الا ان يراجع أقرب معجم عربي من محل الحادثة ، ليرى ان (اللغو) يعني الكلام كما يعني الهذر والتخليط . ولكن الرغبة في تجنب اللبس ادت الى اهمال معنى (الكلام) عند المتأخرين .

والدليل الدامغ على اهتمامهم بالمعنى الكلامي التعبيري انهم من هذا المعنى

صاغوا كلمة (اللغة) على جلالة قدرها ، وسنرى انها اصبحت كلمة عالمية كثيرة الخصب .

ثم تحوّر فعل (لغا لغواً) فأصبح (نغا نغواً ، ونغى نغياً ، وأنغى إنغاءاً) – بالنون – بمعنى الكلام أيضاً. ولا ندري هل الكبار هم الذين ابدلوا اللام نوناً ، ام ان العربي الصغير هـــو الذي فعل ذلك ، لانه في الواقع يقول احياناً – كغيره من اطفال العالم – نغ نغ نغ .. أو : دغ دغ دغ.. او غير ذلك من المكررات . ولكن الكلمة من صنيع لغويّنا الطفل على كل حال ، مباشرةً أو مواسطة .

ثم ان هذه اللغلغة من الرضيع الطروب هي ينبوع الغناء الانساني . وما غفل العرب عن معناها الموسيقي هذا بل قدّروه كذلك وقيّموه ، ومن ذلك أنهم استعملوا (النغو والنغي والانغاء) بمعنى الغناء أيضاً اول الأمر ، وقد بقي في المعاجم دليلاً على ذلك انهم صاغوا منه (النغية والنغوة) بمعنى (النغمة) الحسنة ثم تطور فعل (أنغى إنغاءاً) فصار (غنَّى غناءاً) .

ونأتي الى ما في هذه اللغلغة الثمينة من قيمة انسانية عاطفية لا يصمد امامها حتى أقلّ القلوب نصيباً من رقة وعطف . فمن الذي يلوم قلب الام اذا هو خفق نشوةً وماع حناناً عند سماعها ؟ ان الام لا تكاد تسمع هذا الصوت الساحر حتى تقبل على وليدها بكل جوارحها فتجلس اليه وقد هبطت الى مستواه اللغوي ، بل العقلي أيضاً . فاذا هو قال لها ضاحكاً : لغ لغ لغ لغ لغ ... شعرت بان الدنيا لم تعد تسعها من فرط السعادة . فتجيبه على البديهة : لغ لغ لغ لغ ...

ويظلان على ذلك ، مشتبكين في حوار (عبثي) ليس له معنى قاموسي ، وفيه كل معاني التخاطب والتعاطف بين أعزّ إنسانين . وتراهما مستغرقين في الضحك كأنهما يتبادلان النكات والملح في حوار يتجاذبانه من وضع موليير . فهذا اللغو، أعني تبادل اللغلغة او النغنغة هو اصل (المناغاة) بين الام وحشاشتها.

أيتهـــا الاخوات . ينغّى الطفل فتناغيه امه ، اي تنغى معه . ومن تطور (المناغاة) بين الام ووليدها صيغت كلمة (المناجاة) بين الحبيبة وحبيبها .

أفبعد ان رأينا كيف نشأت هذه الالفاظ التي ذكرنا ، نستطيع أن نخطىء في معرفة اصلها اذا نحن وجدناها في لغة او لغات اجنبية ؟ هل يحق لي بعد كل هذا ان اعترض على نفسي مرة اخرى لافنّد نظريتي ؟

فلنرحل الآن الى اوربا نبحث في لغاتها عن عطايا الطفولة العربية . ها هي كلمة (لغو) العربية بمعناها الكلامي قد صارت في الاغريقية (logos) بمعنى (الكلمة) .

وها هي كلمة (لغة) قد صاغ اللاتين منها كلمة (lingua) بمعنى اللغــة أيضاً واللسان . وهي ما زالت كذلك في الايطالية مبنى ومعنى . ومنها صيغت (langue) الفرنسية بمعنى اللسان واللغــة ، و (langage) الفرنسية و (language) الانكليزية ، بمعنى اللغة .

وفعل (غنّى) ينطقه اللاتين (cano) بمعناه ، والمصدر بلغتهم (canare) و (cantare) ، وما زال هذا المصدر بنفس المعنى والمبنى في اللغة الايطالية . وقد صاغ منه الفرنسيون فعل (chanter) ، وعنهم اخذ الانكليز فعــل (chant) بنفس المعنى .

وثمة ما هو اهم من هذا . فلنعد الى (لوغوس — logos) الاغريقية فقــد صاغوا منها (لوغيكا — logica) في الاغريقية واللاتينية معاً بمعنى (المنطق) ، وهو (لوجيك — logique ، logic) في الفرنسية والانكليزية .

ولنعد الى كلمة (اللغة) ، فقد صاغوا منها (لوغيا — logia) في الاغريقية واللاتينية ايضاً بمعنى (الكلام والمكالمة) ، وألحقوها ببعض الاسماء للدلالة على العلم ، وهي تنطق في اللغات الحديثة (لوجي) في مثل : biology و psychology و geology و technology . وكلمة (لوجي — logie ، logy) هذه

شائعة الآن في اللغات الاوربية وغير الاوربية . بل اننا نحن العرب نستعملها احياناً ، مضطرين ، في بعض الكلمات التي لا نجد لها مقابلاً عربياً ، ونحن لا ندري انها عريقة في العربية . ولو درينا لتسامحنا معها، بل لاحتضنّاها وقبّلناها في غرّة جبينها بعد إذ اجتمع شملنا بهـــا اليوم . ولئن كانت بعض الكلمات (الملـَوَّغة) اي الملوَّجة – المنتهية بكلمة logy – هجينة نصفها عربي ونصفها اعجمي مثل : psychology ، فإن technology عربية خالصة النسبة ، لأن نصفها الاول (التّقْن) عربي كالذي قلنـــا قبل ، ونصفها الثاني (لوجي – logy) عربي كالذي رأينا توا . ولو ترجمنا الكلمة عن الاغريقية ترجمة دقيقة لقلنا (كلام التقن) . وما أحسن التقن إذا تكلم .. كلاماً (لوغـَويّاً) .. أي منطقياً !

هذا كله أخواتي إخواني ، من صنيع جدكم الأعلى .. الطفل العربي . فللّـه درّه ! إنه أستاذنا اللغوي النحرير .

الفرُّوج العربي :

والآن جاء دور الفرُّوج العربي ، الذي وعدناكم بالتحدث عن عبقريته . هو أيضاً سيد الفراريج ، أعني من الوجهة اللغوية . انه ككل فراريج الأمم يكون حين يغادر بيضته من أجمل فراخ الطيور وأقربها الى النفس . وطالمـــا أطربتنا أنشودته الجميلة : صي صي صي صي صي ...

فمن نبرة (صي) هـــذه قال العرب : (صَأى الفرخُ و صأء) بمعنى : صـــوّت . وتطورت كلمة (صاء) فأصبحت (صات) ، و (صاح) ، ثم (صَحَل) ، ثم (صَهَل) .. الى آخر ما هنالك .

وعندما نتتبّع مآثر فرُّوجنا الغالي في أوربا نجد الفعل الماضي (صوّت) قد غدا في اللاتينية (Sonitum) باضافة النون ، و (sono) بحذف التاء وما

بعدها ، بنفس المعنى العربي . وقد تبيّن لي في كثير من الحالات أن إقحـــام النون بغير داع في وسط الكلمات المقتبسة من العربية هو عادة نطقية عند بعض الاوربيين ، كما رأينا في كلمة lingua مثلاً . والواقع أن حشر النون أو غيره من الحروف عادة عربية أيضاً ، ونظنها أصـــل العادة الاوربية . مثال ذلك (جَدّل) أصبحت : جندل وجحدل .. و (أدّى) صارت : أندى وأهدى .. وهكذا .

ومن (sono) تلك اشتقت كلمة (سوناتا – sonata) بالمعنى الموسيقي المشهور في اللغات الاوربية . وكثيراً ما نستعملها نحن أيضاً – على كره – لأننا لا نعرف صلة القربى بيننا وبينها ولا نجد في لغتنا كلمة تناظرها .

ونجد منها في الفرنسية sonde و sondage و sonder و sonner وغـــير ذلك . أما في الانكليزية فنجـــد كلمة (الصوت) الفرّوجية العربية تنطق (ساوند – sound) بنفس المعنى . وهنا أيضاً أقحموا النون في الوسط . لكن توجد في الانكليزية كلمة أخرى بغير نون وهي (شَاوْتْ – shout) بمعنى (الصوت) العالي ، أي الصياح . كذلك نجد في الانكليزية كلمة squeal بمعنى (الصهيل) ..

وقد طال بنا الحديث فلا أريد التوسع في مناقب فرّوجنا زيادةً على هذا . وهو في الحقيقة لا فضل له على غيره من فراريج الله سوى أنه عربي ، أعني أن العرب الذين كان له شرف النشوء بـــين ظهرانيهم هم الذين لحّنوا معزوفته الساذجة العذبة (صي صي صي ..) ووهبوها الطاقة التعبيرية والغنى اللغوي . فالفرّوج العربي كسائر الفراريج يولد على الفطرة أيضاً ، أبـــكم في تصائيه ، وأصحابه يعرّبونه فيبدعون من نغمته البسيطة ذات النبرة الواحدة أنواعاً مختلفة من الاصوات ، من صياح الانسان .. الى صهيل الحصـــان .. الى سوناتات فيردي و باخ و شوبان .

تصحيح تسمية :

من كل ما تقدم يتضح ان اللغة العربية لغة عربية . ولا يمكن أن تكون إلا عربية .

لا تقولوا لي هذا شأن جميع اللغات، فهل اللغة الفرنسية مثلاً ليست فرنسية، وهل الانكليزية غير انكليزية ؟ نعم ، ان معظم اللغات ان لم نقل كلها ، ليست هي نفسها .. ولا تنطبق عليها الأسماء التي تطلق عليها ! فاللغة الفرنسية ليست فرنسية واللغة الانكليزية ليست انكليزية .. بل كلتاهما كغيرهما من اللغات خليط من لغات أجنبية ومحلية ، والمحلية أيضاً مجلوبة غير أصيلة .

أما اللغة العربية فلغة عربية . العرب هم الذين صنعوها في جزيرتهم العربية نفسها ، وهي الارض المصدّرة للعرب والعربية منذ نحو مئة وعشرة قرون . ولا يمكن لهذه اللغة أن تكون مستوردة من مكان آخر ، لأننا نراها هنا تصنع من مادتها الطبيعية الغُفْل الأولى ، تحت سمعنا وبصرنا ، بأفواه كبارهم وصغارهم .. من أصواتهم في مختلف حالاتهم ، من قهقهة وغناء وتمطّق وسعال .. وبمناقير فراريجهم وفحيح أفاعيهم ، وزقزقة عصافيرهم ، وقعقعة رعودهم . هم وحدهم الذين ينطقون بكل هذه الاصوات ، حلقيّة وغير حلقيّة . وكل أعجمي اقتبس كلمة من لغتهم اضطر الى تغيير هذه الاصوات ان وجدت فيها . وهذه الاصوات نستطيع فيما أظن أن نطلق عليها علمياً اسم (**الاصوات العربية**) . وان كانت بعض الشعوب تستطيع أن تنطق ببعضها ولا سيما من الشعوب المجاورة للعرب فلا توجد أمة على وجه الارض غير العرب تستطيع النطق بها كلها .

واذا كان علماء الاجناس قد قرروا أن الاوربيين كانوا قد نزحوا في الاصل من آسيا أو من الهند بالذات ، مستدلين على ذلك بالتشابه بين اللغات السنسكريتية والاوربية حتى لقد سموها اللغات (الهندية / الاوربية) ، فليس

بوسعهم الآن إلا أن يأذنوا لنا بأن نستعمل نفس المعيار ونستنتج نفس الاستنتاج فنقول ان الشبه بين العربية والسنسكريتية يمكن أن يكون تفسيره كذلك هجرة العرب على أثر جفاف جزيرتهم الى الهند وغــيرها – حيث استقروا واستقرت لغتهم .

وعلى هذا يحقّ لنا بنفس الاسلوب أن نسمي السنسكريتية باللغـــة (العربية / الهندية) . وأما اللغات الاوربية التي سموها (الهندية / الاوربية) فلعله قد آن أوان تعديل تسميتها لتطابق واقع التاريخ فيكون اسمها الصحيح منذ اليوم هو اللغات (العربية / الهندية / الاوربية) .

وأدرك شهرزاد الصبـــاح ..

فسكتت عن الكلام المباح ..

علم التدريس

التأثيـــل :

العلوم اللغوية التي يشملها « **فقه اللغة** » العالمي كثيرة ، أحـــدها سماه الاوربيون : « Etymology » وترجمه المعاصرون من اللغويين العرب : « **علـــم أصول الالفاظ** » لانه يبحث عن الاصل الذي تأتـّت منه كل لفظة في المعجم من لفظة أخرى ، من لغة أخرى على الاغلب .

والعادة حين يؤصلون الالفاظ ، في الانكليزية مثـــلاً ، أن يرجعوها الى السكسونية أو الفرنسية أو بعض اللغات الاخرى . وقد يعودون بها بعيداً الى احدى اللغات القديمة كالسنسكريتية (= الهندية القديمة) أو اللاتينية ، وفي بعض الاحوال يردّونها الى الاغريقية . وكثيراً ما تكون اللاتينية هي طريق انتقال الكلمة من الاغريقية الى الانكليزية ، او غيرها من اللغات الاوربية الحديثة .

ونرى أن نستعمل كلمة (**التأثيل**) اصطلاحاً مقابل كلمة Etymology الاوربية هذه بمعنى (التأصيل) . لان لكلمة (الاصل) ومشتقاتها معاني عامة نستعملها في مختلف الاغراض من حياتنا اليومية ، فلا نريد أن نحمّلها الآن معنى آخر له صبغته العلمية التخصصية في حين أن لغتنا قد كنزت لنا ذخيرة طالما تحدثنا عن غزارتها وباهينا بها الامم . وبامكاننا الآن أن ننتفع بمفرداتها ومتشابهاتها التي تتخم جوف المعجم حتى ليكاد ينفجر امتلاءاً ، ويكاد أكثر ألفاظه حتى المأنوس السائغ منها يموت اهمالاً . ومنها هذه الكلمة التي نقترحها (**الاثل**) والتي لا نذكر أن أحداً من كتّابنا استعملها أو استعمل أحـــد

مشتقاتها إلا في وصف المجد بالأثيل أو المؤثّل . أما بقية الصيغ والاشتقاقات فمهجورة لا يعبأ بها أحد .

ومهما يكن فان هـــذه الكلمة تفي بالدقة بغرضنا في تسمية علم التأصيل اللغوي . فان (الاثـْلـَة) في المعجم : الأصل . و تأثـّلَ الشيءُ ، و أثـَل : تأصّل .

والكلمة بعدُ تزخر بطاقةٍ اشتقاقية سخيّة لا تملكها نظيرتها الاوربيـــة (Etymology) التي لا توجد لها عندهم صيغ أخرى فيما يظهر . ففي وسعنا أن نشتقّ من كلمتنا العربية هـــذه : (١) الاثـْل : بمعنى الأصل اللغوي ، و (٢) الاثـْلـَة : الكلمة الأم ، و (٣) التأثيل : التأصيـــل اللغوي ، و (٤) المؤثـّل و المؤثـّلة : اللفظ المؤصّل واللفظة المؤصّلة ، و (٥) المؤثـّل : من يؤثـّلها ، و (٦) الاستئثال : البحث عن الأثل أو المطالبة به ... وتمكن النسبة الى بعض الصيغ بالياء كالاثـْليّ و التأثيليّ ...

و التأثيل بهذا المعنى علم أوربيّ في الواقع وإن كان العرب قد سبقوا اليه . وإنما اهتمّ الاوربيون بتأثيل لغاتهم لأن أكثر مفرداتها مقتبس من لغات أخرى فكان طبيعياً أن يبحثوا عن أثـُول الكلمات الاجنبية الدخيلة . ولم يَعْظـُم أمر التأثيل عند العرب لان الكلمات الدخيلة في العربية قليلة نسبياً ، لا تكاد تبلغ الثلاثة من المئة من مجموعة الالفاظ العربية [١] .

---

١ – الاب رفائيل نخلة اليسوعي ، في كتابه « غرائب اللغة العربية » – ط : ٢ – تمكـّن من جمع (٢٥٠٣) كلمة قال انها تؤلف أكثر الالفاظ الدخيـــلة في العربية من مختلف اللغات الاعجمية . لكننا نجد أكثر هذه الألفاظ غير مستعمل بل غير معروف لدى معظم قراء العربية. كما أننا شخصياً نخالف جمهرة اللغويين في تأثيل بعضها من لغات أعجمية، لاننا نعتقد أن عدداً منها أثيل في العربية غير دخيل ، وأن الأعجميات هي التي اقتبستها منها . وربما كانت لنا عودة الى الموضوع . وسنـَعْرِض في حديثنا هذا لبضعٍ منها ونصحّح تأثيلها .

الترسيس :

هذا التأثيل الاوربي ليس لنا فيه مَقْنَع ولا كفاية . فلئن قال المؤثلون الانكليز مثلاً إن sing (يغنّي) أثلها singan بالسكسونية ، و river (نهر) أثلها ripa (ساحل) باللاتينية ، و copper (نحاس) أثلها kupros (قبرص) بالاغريقية ، و aquarium (حوض المائيات) أثلها appa بالسنسكريتية .. قلنا : لكن هذه الكلمات الاجنبية لم تنبت من عدم . اننا نروم أن نعرف الرّسّ البدائي الاول الذي نجمت منه هذه الالفاظ السكسونية واللاتينية والاغريقية والسنسكريتية .. التي وقف عندها المؤثلون كأنما هي بداية اللغة كما وقف الاقدمون عند ساحل المحيط كأنه بداية اللانهاية .

من حقنا أن نسألهم : هذه الاثول ما أثولها ؟ كيف نطق بها الناطق الاول فطفقت تتطور وتتنقّل على ألسنة الاجيال والشعوب حتى صارت : ripa و singan و plough و air و kupros وcalcium ؟ ...

هذا ما يجيب عليه علم (الترسيس) !

وعسى ألاّ يُذْعَر القارىء الكريم لهذه الكلمة الغَريبة ، فانها لا عيب فيها سوى انها جديدة عليه . لكنها تجري على قياس معقول مقبول ومجرّب ، ولا تحتاج إلا الى شيء من التكرار ليصقلها الاستعمال فتغدو أليفة أنيسة . فكما قالوا التأسيس من الأسّ نقول (الترسيس) من (الرّسّ) . وهي كلمة نقترحها الآن إضافةً الى (التأثيل) الذي لم يعد بمعناه الاوربي يفي بحاجتنا في البحث اللغوي .

والذي نعنيه بالترسيس إرجاع اللفظة العربية أو الاعجمية الى رسّها ، أي بدايتها .. فان (الرّسّ) في اللغة : ابتداء الشيء .

وابتداء الكلمة هو بذرتها ، أي الصوت الذي حاكاه الانسان الاقدم بحروف

نطقية عبّر بها عن ذلك الصوت ، أو عن الحيوان أو الشيء الذي أحدث ذلك الصوت ، أو الحادثة التي سببته ، وما الى ذلك من أمور تتصل به .

فالتأثيل (Etymology) اذن ردّ الكلمة الى أمها المباشرة أو الى جدتها المباشرة او القريبة . أما الترسيس فاعادة اللفظة الى جدتها الاولى — حوّاء — في صورتها التي نطق بها أول انسان نطق بها ، مع تعقيب المراحل التطورية التي قطعتها تلك اللفظة حتى وصلت الى الصورة التي نعرفها بها في احدى اللغات .

ويمكننا أن نضرب من تطور الاحياء مثلاً على التطور اللغوي ، فالتأثيل يشبه البحث عن الاصل المباشر الذي نشأ منه الانسان أو الكلب أو غيرهما من الاحياء . فأثل الكلب مثلاً هو الذئب .

وإذا كان (أثل) الانسان حيواناً شبيهاً بالقرد فان (رسّ) الانسان هو الخلية الفردة ، على قول علم التطور .

ولترسيسه علينا أن نبحث عن جميع حلقات السلسلة حتى نصل من الانسان الى (الاميبة) المائية الاولى .

ونقترح كلمة (Radixation) للانكليزية وغيرها من اللغات الاوربية مقابل كلمتنا العربية (الترسيس) باعتبار أن (radix) هو (الرسّ) بالانكليزية ، وأثل الكلمة من اللاتينية بنفس المبنى والمعنى .

ولئن وقف اللغويون الاوربيون عند حدود التأثيل فلأنهم لا يعرفون حدوداً أبعد منها ، وبتعبير آخر لانهم لا يعرفون اللغة الام التي انحدرت منها الالفاظ الاثلة ، وبتعبير ثالث لانهم لم يتعمقوا في درس العربية التي كشف لنا تقليبنا النظر فيها وفي ظروفها القبتاريخية (= قبل التاريخية) انها أمّ اللغات الآريات، لا الساميّات والحاميّات فقط .. كالذي مرّ بنا .

بالرغم من انقراض الكثير من أنواع الاحياء ، ما تزال تعيش الاميبة الاولى والكثير من ذراريها من الاحياء التي تسلسلت في التطور حتى كان منها أرقى

المخلوقات الانسان . فكذلك الامر في اللغة العربية : بالرغم من انقراض الكثير من ألفاظها الرسّية وذراريها ما تزال توجد في المعجم بداياتٌ كثيرةٌ من الالفاظ الصوتية الاولية وما يليها من الحلقات الموصلة التي تسلسلت في التطـــور حتى تكونت منها الالفاظ الحضارية في العربية وغيرها من اللغات المتفرعة منها .

وايضاحاً للفكرة .. إليك بعض النماذج الانكليزية من تأثيلهم وترسيسنا :

AQUARIUM حوض المائيات :

اذا وجدتَ كلمة (آب) في معجم عربي فلن يخطر لك ان معناها : الماء .. لانها بهذا المعنى من اختصاص المعجم الفارسي . أما في المعجم العربي فمعناها : الأقنوم الاول بالتعبير النصراني ، أو الشهر الخامس باللسان البابلي ، الذي يقابل عندنا الشهر الثامن بالتقويم الميلادي . (ولما كان البابليون يبدؤون سنتهم بالشهر الرابع — نيسان — في أول الربيع فقد كان آب نفس الشهر من السنة عندنا وعندهم ، تقريباً) .

لكننا شخصياً لن نتردد في إدراج كلمة (آب) بمعنى الماء في الموسوعة العربية (التأصيلية) — نعني الترسيسية — المأمولة [٢] .

نلاحظ قبل كل شيء هذا الشبَه بين كلمتي (آب) و (ماء) ، فهما كلمة واحدة في الاثل ، تكونت احداهما من الاخرى بقلبٍ وإبدال .

ولا نريد أن نقول ان (آب) متطورة من (ماء) لان العكس هو الصحيح في الواقع . أما الجذر البدائي لكلتيهما فهو صوت (الهواء) !

ولنبدأ الحكاية من أولها ، فان للآب لحكايةً غريبة حقيقـــة بالنظر . واسمح لنا أن نبدأ الحكاية بك أنت أيها القارىء الكريم . تصور انك تخاطب

٢ — نوهنا برغبتنا في وضع هذه الموسوعة آنفاً تحت عنوان « رؤى لغوية » .

انساناً لا تعرف لغته ولا يعرف لغتك وليست بينكما لغة ثالثة مشتركة تعرفانها، وأردت ان تخبره بهبوب الريح بواسطة محاكاة صوتها بصوتك .. فكيف ستعبّر له عن ذلك ؟ لا نشك انك ستقول له : هُو و و و ...

سل من شئت كما سألنا ، فسترى ان كل انسان تسأله لا يجد طريقة لتصوير صوت الريح غير أن يقول مثلك : هُو و و و ...

يحقّ لنا اذن أن نستنتج أن هذا ما فعله جدنا الانسان العربي الاول ، وكل انسان أول . وقد بقي من ذلك في المعجم العربي (الهَوّ) - كالجَوّ - بمعنى الكُوّة أي الخرق في الجدار يدخل منه الهواء . ونعتقد ان كلمة (الهَوّ) كانت قبلاً تعني الهواء نفسه .

وبعد أجيال لا نعرف عديدها وتقلب أحداث لا يمكننا التكهن بها ، حين تكوّنت اللغة العربية وأخذت تنمو ، صاغوا من (الهَوّ) كلمة (الهواء) . وبسبب تنقل أبناء الجزيرة العربية واختلاف طرائقهم في النطق تطورت الكلمة كما تطور غيرها من الكلمات فصارت لبعضها صور متعددة في بعض الاحوال .

انقلب الواو باءاً في لفظة (الهواء) فاذا بها تغدو (الهباء) ، وهذه أيضاً تطورت فصارت (الهباب) ، وهذه أيضاً تطورت فصارت (الأباب) .

كم من الزمان والمكان والأناسيّ تطلّب هذا التطور ؟ لا ندري ايضاً .

والذي نعتقده انهم استعملوا هذه الالفاظ الاربعة كلها بمعنى (الهواء) أول الامر . ثم جرى التخصص كما يحدث غالباً للألفاظ المتوالدة على هذا الغرار .

ضيّعت (الهوّ) معنى الهواء في المعجم فصارت تعني الكوّة كما قلنا ، أي منفذ (التهوية) ، وأخذت مكانها الكلمةُ التي استُحدثت منها أي (الهواء). وتخصصت (الهباء) في الدلالة على ذرات الغبار المعلقة في (الهواء) . وتخصصت (الهباب) في الدلالة على الهباء الاسود خاصة أي الجُسَيْمات الفحمية السابحة في

(الهواء) التي تحدث السخام في القدور والجدران والسقوف ، في الدار .. أو ربما في الغار ، قبل أوان الدور والقدور .

وأما (الأباب) فصارت تطلق على السراب ، ومن ثمّ الماء . وهي طريق تطورية منطقية ، لان السراب مرحلة" وسط" بين الماء والهواء . تراه بقِيعةٍ من بعيد فتحسبه ماءاً ، فاذا أتيته وجدته هواءاً . لقد كان السراب عند البدوي العربي : الهواء المنظور ، وهو كذلك علمياً أيضاً . وهو في نفس الوقت مـــاء موهوم . فلا غرابة انهم أطلقوا لفظ (الأباب) على السراب أولاً والماء ثانياً . وما زالت الكلمة تحمل هذين المعنيين في المعجم العربي . ومن (الاباب) صاغوا (العباب) : معظم الماء .

والذي نراه انهم خففوا (أباب) بعد ذلك فنطقوها (آب) بنفس المعنى أولاً ، أي بنفس المعنيين : السراب والماء . ثم خصّوها بالماء فانقطعت صلتها بالهواء والسراب . ومن ثمّ نقلها المهاجرون منهم الى ايران مع بقية مفردات لغتهم التي لا يزال الكثير من آثارها واضحاً في الفارسية مما اندثر بعضه في اللغة العربية الأمّ نفسها بعد ذلك ، مثل كلمة (الآب) التي نتحدث عنها . لكنها قبل اندثارها أنجبت للعرب كلمة (ماء) بعد إبدال بائها ميماً فصارت (آم) ، ثم قلبوها فصارت (ماء) .

ودليلنا على ان الابدال قد جرى على الكلمة قبل القلب هو أن (آم) مـــا زالت لها علاقة بالماء لان معناها : شدة العطش، أي تطلـّب الماء. ومنها (عام): سبح في الماء ، و (غامت) السماء : ظهر فيهـــا (الغيم) و (غام) البعير : عطش ، ومثلها (غانَ غـَيـْناً) . ومن (الغين) نجد في الانكليزية rain : مَطَـر.

أما لماذا اندثرت كلمة (آب) في العربية بمعنى الماء فلعل بنتها كلمة (الماء) هي التي قتلتها ، حيث صادفت ظروفاً لغوية ملائمة فشاعت على الالسنة شيوعاً كاسحاً . وربما كانت كلمة (الآب) قد اقترنت بمعنى مكروه او حدث مشؤوم فزهدوا فيها .

وليس هذا كل ما لدينا دليلاً على عروبة (الآب) . فالى جانب جدّاتها اللائي سبق ذكرهن أي : الاباب ، الهباب ، الهباء ، الهواء – نجد لها بنات ما زلن يحتللن مكانهن في المعجم العربي ، بعد أن جرت عليهن تطورات مماثلة .

فمن (الآب) صاغوا (الآل) الذي اختص بمعنى السراب ، وهذا مصداق ما قلنا آنفاً من أن (الآب) كان أول الامر يعني السراب بالاضافة الى الماء . ونظن في نفس الوقت ان (الآل) أيضاً كان مزدوج المعنى أي أنه استـُعْمِل بمعنى الماء ذات زمان بدليل اشتقاق بعض الالفاظ المائية منه . وقد أُبدِلت همزته باءاً فنشأ فعل (بال) بمعنى أفرز (ماء) الجسم . ولا غرابة في هـــذا الابدال لان العرب وغيرهم لم يبدلوا الحروف بما يقاربها ويجانسها فقط بل كثيراً ما أبدلوا الحروف المتباينة المتنافرة بعضها ببعض . ومن أمثلة إبدال الهمزة باءاً في العربية : أجَلْ وبَجَل (= نعم) ، اللائق واللابق ، أنـّق الكلامَ وبنـّقه ، هَذَأ الشيء وهَذَبه (= قطعه) .

ومثل ذلك يقال عن إبدال همزة (آل) – او باء (بال) – راءاً فظهر من ذلك فعل (رال) : أفرز (ماء) الفم .. ومن هذا فيما يبدو صاغوا (راق) الماءُ على وجه الارض : تردّد وانصبّ .. و (راق) السرابُ : جرى واضطرب فوق الارض ، ومن ذلك (الرَيْق) – كالعين – وهو الماء ، و (الريق) – كالعيد – وهو ماء الفم أيضاً .. ثم (الريّ) : السقي ، وهـــو مرخم من (الرَيْل) ، أو (الريق) على الارجح .

ومن (الآب) أيضاً صاغوا فعل : لاب لـَوْباً . و (اللـَوْب) – كاللون – هو الحوم حول (الماء) دون الوصول اليه . ومنه (اللـُواب) – كاللعاب – وزناً ومعنى ، أي (ماء) الفم .

وواضح أن كل واحدة من هاته البنات – بنات الآب – أي : الآل ، والبول ، والرَيْـــل ، والرَيْق ، والرِيق ، والرِيّ ، والأوْم ، والعَوْم ، واللـَوْب ، واللـُوَاب .. تعني الماء ، أو تعني شيئاً له صلة شديدة بالماء ، مـــع

انقطاع صلتها بالهواء . وواضح أيضاً انها قد تكونت وتطورت بسبب اختلاف القوم في نطق الحروف والحركات ، ثم تخصصت كل واحـــدة منهن بمعنى .. كالذي نوهنا به .

ويلاحظ ان توليد هذه الالفاظ نشأ من إبدال الحرف الاول او الثاني من كلمة (آب) او احدى بناتها .

فهذه المتشابهات التطورية المتشابكة الألفاظ والمعاني تفسر لنا تفسيراً شائقاً جلياً تلـــك الظاهرة اللغوية الشهيرة التي أدهشت القدامى من اللغويين العرب وأثارت إعجابهم وحيرتهم أيضـــاً والتي سمّوها « تصاقب المعاني لتصاقب الالفاظ » . وسنرى بعد من أمثالها الكثير ، المقنع المشبع ..

على ان كلمة (آب) ما ضاعت في العربية ، لكن الذي ضاع منها أو كاد هو معنى الماء فقط ، لان الكلمة بذاتها موجودة بصيغة (آبَ يؤوب أوباً) بمعنى الرجوع . بل ان (الماء) أيضاً لا يزال موجوداً فيها ، لكنه تخصص بعد أن كان عاماً ، ذلك أن فعل (آب) أصبح يعني : وَرَدَ (الماءَ) ليلاً ، أو تناوب المرء مع غيره على وروده . ولعل هذا هو الذي أعطاها معنى الرجوع . فصلتها بالماء لم تنقطع وإنما انتقل معناه الى معنى وروده ليلاً أو التناوب على وروده ، مثل انتقال معنى الهبـــاء والهباب من (الهواء) الى الجسيمات المعلقة فيه ، وانتقال معنى (العوم) من الماء الى السباحة فيه ...

غير ان الدليل العجيب على ان (الآب) أمّ (الآل) هو أن البنت أيضاً — الآل — تعني الرجوع بالاضافة الى معناها السرابي الحاضر والمائي الغابر الذي لا يزال موجوداً في بناتها .. فقالوا (آل يؤول أوْلاً) مثلما قالوا (آب يؤوب أوْباً) .

يضاف الى هذا ان لفظة (آب) قد أنجبت عن طريق إبدال همزتها بناتٍ أخريات ، بعضهن من معنى (الرجوع) مثـــل : تاب ، ثاب .. وبعضهن من معنى (الماء) مثل ذاب ، و زاب (= جَرَى . ومنها : نهرا الزاب في العراق،

ومنها ايضاً : المثزاب الذي توهموا انه من الفارسية) ، و ساب (ومنها : سال) ، و صاب (ومنها : الصيِّب - كالسيِّد - أي الغيث) ، و لاب ...

هكذا حصرنا لفظة (الآب) بين طائفة من أسلافها من جهة وطائفة من أخلافها من جهة . وهي بين الطائفتين الحلقة المفقودة - سابقاً - والموجودة منذ اليوم . فهل يكفينا هذا دليلاً على انها عربية ؟

وأما (آب) بمعنى الشهر المعروف فمن معنى الماء أيضاً ، وقد دخـل الفارسية باسم (آبان) أي بصيغة الجمع .. لكن لهذا حديثاً آخر . فالى اللقاء في الموسوعة الترسيسية ...

ووردت كلمة (آب) متطورة في اللاتينية بصيغة (أكْوا - aqua) أي الماء ايضاً ، ومنها كلمة (aquarium) اي معرض الاحياء المائية او الحوض الذي تُرَبّى فيه او ما كان من قبيل ذلك .

هاهنا سيظن القارىء لا محالة أننا أفرطنا في التظنّي وأبعدنا في التقصّي . لكن المؤثلين الاوربيين هم الذين لحظوا أن هـذه الكلمة (aqua) نسبة الى نظيرتها في اللغة الكلتية (ach) ، وهذه نسبوها الى السنسكريتية (appa) وكلها تعني الماء . ومشابهة هذه الكلمة الاخيرة للكلمة العربية (آب) من الوضوح بحيث لا تحتاج الى دليل .

وقد وردت الكلمة في بعض اللهجات الفارسية بصيغة (آو) ، وهي كذلك من العربية التي بقي من صورها فعل (أوَى إيواءاً) وهي من أخوات : آب ، ثاب ، آل .. ومنهن صاغوا : المآب ، والمثاب ، والمآل ، و المأوى .

وعلى هذا نستطيع الآن أن نرسس كلمة (aquarium) ترسيساً تقريبياً ، من الالفاظ المتيسرة لدينا ، على هذا الغرار :

aquarium (انكليزية ، وهي مقتبسة من الفرنسية بمعناها) - aqua (لاتينية) - ach (كلتية) - آو (فارسية وعربية) - appa (سنسكريتية)

– آب (فارسية وعربيــــة) – أباب – هباب – هبآء – هواء – هَوْ (أي حكاية صوت هبوب الهواء) .

يا للعجب . كم من القرون يا ترى غبرت منذ ولادة هذه الكلمة ؟ وكم من الملايين من الألسنة تداولتها حتى طوّرتها من (هو) الى (aquarium) ؟

يا لسحر الماضي ، ولا سيما اذا كان مجهولاً .. ويا لروعة المجهول ، ولا سيما اذا كان ماضياً ! ..

وتوجد الكلمة في الفرنسية بصيغة (أو – eau) . وتقول معاجمهم التأثيلية انها من (aqua) اللاتينية . والحق معهم ، لانهم لا يعرفون : (آو) .

فبعد اليوم لا يستطيع الايطاليون ان يجهلوا أصل كلمتهم (aqua) – وهي كاللاتينية – والفرنسيون أصل (eau)، والهنود أصل (appa)، والايرانيون أصل (آب) ، والعرب أصل (ماء) . انها جميعاً ترجع الى لفظ واحد وضع حجره الأساسي جدّهم الاعلى .. الوحش العربي .. يوم قال لصاحبته وهـــو يحاورها ، في الغاب : هو و و و و و و ! ...

RIVER : نهر :

ويؤثلونها من الفرنسية القديمة rivier ، وهذه من اللاتينية ripa : ساحل . هذا تأثيلهم .

أما ترسيسنا فيتساءل : من أين جاءت ripa اللاتينية هذه ؟ مـــا علاقة (الساحل) بهذه الحروف : r-i-p-a ؟ بديهي ان الكلمة ليست من صنـــع الناطق الاول .

فلأجل ترسيسها نقترح أن نسير في تأثيلها خطوة أخرى .

يقول المعجم العربي ان لديه كلمة عربية مبينة بنفس اللفـــظ والمعنى : « الريف : ما قارب الماءَ من الارض » ، وهذا يعني الساحل . والدليل الصراح على ذلك إن كان الامر بحاجة الى دليل صراح هو ان (الساحل) أيضاً يعني في

المعجم : « ريف البحر وشاطئه » ! ومن هذا المعنى قالوا : **ريف مصر** ، **وريف البصرة** ، **وريف المغرب** .. بالضبط كما يقول الاوربيون اليـــوم : **الرفييرا** (riviera) الايطالية والرفييرا الفرنسية .

ثم ان العرب أطلقوا (**الريف**) مجازاً على « الارض فيها زرع وخصب » لان ذلك شأن الارض القريبة من الماء . ثم ساروا خطوة أخرى في تطوير المعنى فأطلقوا (**الريف**) في المشرق على المناطق القروية بوجه عام .

إن **الريف** كلمة مائية من أسرة **الريق** (كالعبيد) ، و **الرَيْق** (كالعَيْن) ، و **الرَيْل** (كالعين) و **الرّي** ، وغيرها من الالفاظ المائية التي تحدثنا عنها توّاً .
وعلى ذكر (**الريّ**) نقول ان (الريف) تنطق بالاسبانية (rio) ومنها اسم عاصمة البرازيل (ريو دخانيرو – Rio de Janeiro) [3] .

فعلى هذا يسعنا ان نُرسِّس كلمة river الانكليزية هكذا :

هَوْ (صوت الهواء) – **هباء – هباب – اباب – آب – آل – رال – راف**
(ومنها : **الريف**) – ripa (لاتيني) : ساحل – rive (فرنسي) : شاطىء ، ضفة – riviera (ايطالي) : ساحل – rivier (فرنسي) قديماً : ساحـــل ، وحديثاً : نهر أيضاً – river (انكليزي) : نهر .

والمقصود بهذا الترسيس طبعاً هو القول ان كل واحدة من هاته اللفظات تمثل صورة لمرحلة اجتازتها الكلمة منذ بدأ الوحش العربي الأقدم يحاول التعبير عن الاشياء بمحاكاة أصواتها فقال (**هو و و و ..**) ليمثل صوت هبوب الريح .. الى ان جاء المتنبّي فقال (**ريف**) .. ثم جاء شكسبير فقال (river) !

SING : **يغنّي** :

يؤثلونها من السكسونية Singan . ولا يقول المعجم الانكليزي الذي في حوزتنا الآن من أين جاءت هذه الاخيرة .

---

٣ – الاسبان ينطقون الجيم خاءاً ، مثل : Don Joan : دون خوان .

لكن المعجم العربي يحل لنا المشكلة حيث يقول لا فُضّ فوه : « صَجّ : ضرب حديداً على حديد فصوّتا » . والكلمة فعلاً أدقّ تصوير نطقي لصوت الحديد المسطح اذا صكّ حديداً مثله . ويمكننا أن نفهم من هذا أن الكلمة حديثة نسبياً ، بالقياس مثلاً الى قدم (الهوّ) من صوت الهواء ، لان (الصَجّ) نجمت في العصر الحديدي ، أو ربما قبل ذلك في العهد النحاسي ثم انتقل المعنى الى الحديد ، وهذا ما نرجحه ترجيحاً ليس لنا عليه برهان يؤبه له .

عسى ألا يتعجل القارىء فيرفض هذا الترسيس بسبب زيادة النون في اللفظة الانكليزية (sing) بالاضافة الى اختلاف معناها . ذلك أن النون من العربية نفسها ، التي تطورت فيها الكلمة مبنى ومعنى قبل أن تنتقل الى السكسونية . فمن (الصَجّ) بالمعنى الآنف صاغ العرب (الصَنْج) : آلة الطرب المعروفة ، أي القرص المعدِن يُضْرَب بمثله فيحدث صجاً حسن الوقع في السمع . ومن باب المجاز التطوري سمّوْا به آلة عزفيـــة وترية أيضاً . و الصَنّاج (كالطيّار) و الصَنّاجة (كالطيارة) : ضارب الصنج . وقـــد أسبغوا على شاعرهم المشهور أعشى قيس لقب « صنّاجة العرب » لانهم كانوا يجدون شعره شجياً مطرباً ، أي صجّاجاً ، كعزف الصنوج .

لا عجب اذن أن يكون معنى song بالانكليزية : أغنية ، مثـــل شعر الاعشى . وربما كانت صيغة الماضي sang (غنّى) هي الصورة الانكليزية الأثلة لانها أقرب الى (الصَنْج) ، ثم صاغوا منها المضارع : sing ، والمفعول : sung . ربما . .

على هذا يكون ترسيسها : صجّ – صنج – singan بالسكسونية – sing و sang و song و sung بالانكليزية .

وقد زعموا – اللغويون ، العرب وغيرهم – ان الصنج كلمة دخيلة في العربية ، وانها معربة عن الفارسية (چنگ – chang) وهي آلة عزفية وترية . وهذا شأنهم في ادانة العربية كلما وجدوا كلمة مشتركة بينها وبين احدى اللغات

المرموقة ، وحتى غير المرموقة أحياناً ، بالرغم من اشادتهم أجمعين بأصالة العربية وتعجبهم الكثير من ثرائها الفاحش . وها نحن قد رأينا في ترسيس هذه الكلمة مصداق خطئهم فيها . فمن الواضح ان (چَنْگ) الفارسية هي المقتبسة من (الصنج) العربية بمعنى المعزف الوتري الذي ألمعنا إليه . بل اننا نزيد أصدقاءنا اللغويين أن الفرس قد اقتبسوا من (الصنج) كلمة (زنك — zank) بمعنى الجرس ، أيضاً .

ونزيدهم مرة أخرى فنقول ان الفرس انتفعوا بهذه الكلمة في مجال آخر بالاضافة الى ما تقدم . ذلك ان العرب استحدثوا من (الصنج) كلمة (الصنجة) وهي القرص المقعر الذي جعلوه كِفّة للميزان ، وهذه أنجبت (سنجة الميزان ، أي الثقل الذي كانوا يتخذونه عياراً فيضعونه في الكِفّة ، ومن هذه أخذت الفارسية (سنگه) بمعناها . ولما كانوا في القديم يتخذون العيار من الحجر على الاغلب كما لا يزالون يفعلون في بعض القرى فقد صاغ الفرس منها (سَنْگ — sang) بمعنى الحجر .

فعلى تخريجنا هذا — إن صحّ — تكون (سَنْگ) : الحجر ، من (سنگه) : العيار بالفارسية ، وهذه من (السنجة) : العيار ، وهذه من (الصنجة) : كفة الميزان ، وهذه من (الصنج) .. أي بعكس التسلسل المظنون تماماً .

والخلاصة ان الفارسية اقتبست من (الصنج) أربع كلمات هي : چنگ : المعزف ، و زنك : الجرس ، و سنگه : العيار ، و سنگ : الحجر . لكن اللغويين غفر الله لهم حسن نيّتهم يقولون مع ذلك ان العربية اقتبست (الصنج) نفسه من (چنگ) !

PLOUGH : يحرث :

يؤثلونها من السكسونية ploh : قطعة أرض . والذي يزعمه ترسيسنا أن

الكلمة العربية (فلح) أقرب الى الانكليزية معنى والى السكسونية مبنى . ومنها (الفِلاحة) : الحراثة ، و (الفلاّح) : الحارث . ونرجح ان الكلمة السكسونية (ploh) أيضاً كانت تعني الفلاحة أول الامر ثم أطلقت على قطعة الارض كما حدث في العربية إذ أطلقوا (الفدّان) وهو الآلة المستعملة في حرث الارض ، على القطعة من الارض .

وفعل (فَلَحَ) يعني (شقّ) في العربيـة . و (الأفلح) المشقوق [illegible] . ومن اخوات (فلح) نذكر : فَلَعَ الشيء و فلحه [illegible] . شقّه . ثم فَلَذَه : قطعه . وفَلَغَ الرأسَ : شَدَخَه أي كسره ...

وآثل واحدة بين هذه الاخوات هي (فَلَقَ) التي نؤثلها من (فَرَقَ) — كضَرَبَ ونَصَرَ — ومنها فَرَقَ البحرَ : فَلَقَه .

أما (فَرِقَ) — كفَرِحَ — فتعني : خاف ، وهو أصل معناها فيما نعتقد. ومادة (ف ر ق) التي تعني الفَلْق و الفراق و الخوف - أثلها (فرّ) أي محاكاة صوت أجنحة الطائر عند فراره : فر ر ر ر ر ر ...

ومن بنات (فرّ) نذكر : فرا ، فرج ، فرح ، فرخ ، فرد ، فرز ، فرش، فرض ، فرع ، فرق ...

و (فرّ) نجدها في الفارسية بصيغة (پَرْ – par) بمعنى يفرّ أو يطير ، ومجازاً بمعنى الريش الذي هو أداة الطيران .. واسم الفاعل منها (پرنده — parandeh) : الطائر ، يقابله بالانكليزية : bird .

ومنها في الفارسية أيضاً (پَرْوانه – parvaneh) : الفَرَاشة . ويلاحظ ان (الفراشة) أيضاً تبدأ بالفاء والراء ، ولا عجب لان اسمها فيما نرجح من نفس المادة أي من (فرّ) . فلعلها سميت بذلك لانها منفرشة الجناحين . ولعل بعض العرب سموها (الفرّارة) أول الامر لأنها دائمة الفرار في كل اتجاه . ومهما يكن فان (الفرّارة) بلغة الموصل لعبة للأطفال دوّارة لها ما يشبه أجنحة

المروحة الدوارة ونحوها . وفي الفارسية ايضاً يطلق اسم (پروانه) مجازاً على المروحة الدوارة ونحوها . وقد اقتبسها العراقيون في لغتهم الدارجة لمثـــل مروحة الطائرة والسيارة .

ويلاحظ ان العراقيين استعملوا (الفرّ) بمعنى الدوران والتدوير ، فهم يقولون (يفرّ الشيءَ) بمعنى يديره .. و (افترّ الشيءُ ، أو الشخصُ) بمعنى : دا[illegible] (الفرارة) [illegible] الدوّارة . ويبدو لنا ان هذا الاستعمال العراقي أصيل فصيح ، أي قديم بتعبير أصح .

وتوجد في الانكليزية ألفاظ من مادة (فرّ) ، ومنها : fear : يخاف .. flea : يفرّ .. free : يطلق ، يحرر .. flee : برغوث (لانه فرّار ؟) .. fly : ذبابة ، أو يطير .. flight : فِرَار ، و fright : خوف .

ونعود الى كلمة plough (يحرث) فنقول انها يمكن ترسيسها بوجـــه التقريب على هذا النحو : فرّ – فرق – فلق – فلخ – فلغ – فلع – فلح – ploh بالسكسونية – plough بالانكليزية .

أما نطق هذا الفعل وأمثاله بتسكين أوله في السكسونية والانكليزية فعادة عربية قديمة فيما نظن . وهي ما زالت موجودة في لغة المغرب مثلاً ، ومن ذلك أنهم ينطقون هذا الفعل الماضي بالذات بتسكين الفاء (فْلَح – flah) .

SOLICIT : يناشد ، يغري :

أثلها من اللاتينية solicitare بنفس هذين المعنيين اللذين يطابقان الأثـــل العربي للكلمة اللاتينية وهما (السُؤل والسؤال) . فقولك « لي إليك مسألة » يعني لي إليك رجاء .. وقولك « اسألك المغفرة » يعني أناشدك المغفرة ، بل ان (السؤال) يعني حتى الاستجداء . وأمـــا معنى الاغراء فمن قولك :

سوّلت له نفسه ، و سوّل له الشيطان . ومعنى التسويل متطـــور من معنى السؤال و السُؤل ، ومما يؤيد ذلك ان فعـــل (سأل يسأل) ينطقونه في المغرب : (سوّل يسوّل) .

يمكن ترسيسها اذن من صوت الفرّوج بشيء من هذا القبيل : صي صي صي – صأى الفرخ (= صات) – صال (= صهل) – سعل – سال – سوّل – Solicitare : L. — Solicit E. (والظاهر أن صلب الكلمة هو « sol » وحسب) .

PLATE : لوحـة ، صحن :

يؤثلها المعجم من platta : طبقة أو صفيحة باللاتينية الدنيا اي الحديثة (٦٠٠ – ١٥٠٠ م) . ونحن لا نعرف في الترسيس فرقاً بين اللغات علياهـــا ودنياها ، لان الدنيا والدارجة والعامية قد يكون بعض ألفاظها أقدم من الفصحى . وقد اتضح لنا في كثير من المناسبات اللغوية ان الكثير من التعابير التي نسميها عامية ليست تحريفاً من الفصحى كما كنا نتوهم قبل ، بل انها أفصح من الفصحى ، اي ان الفصحى هي المحرفة (العامية) المتطورة منها . وسوف تصادفنا نماذج من ذلك تزيد الامر وضوحاً .

وفي الانكليزية كلمة أخرى هي plateau : السهل من براح الارض ، وهي من الفرنسية . وتوجد في الفرنسية والانكليزية كلمة place : الساحة أو الميدان او المكان ، ويؤثلونها من الاغريقية platus : مسطح ، عريض .

ونخال هذه الكلمات كلها من رسّ واحد كما يوحي تصاقب مبانيها ومعانيها، ولعلها قد دخلت الفرنسية والانكليزية عن طريق واحد أو طرق مختلفة ، لكن أقدمها فيما يظهر platus الاغريقية .

ويبدو أن platta اللاتينية هي أثل الكلمة الايطالية piazza : الساحة أو

الميدان . وهذه الكلمة دخلت الدارجة العراقية بصيغة (پياسه – piasah) بمعنى التمشّي للرياضة أو التسلية .

ننتقل الآن الى العربية لنجد ان قولك (بَطّ الجرحَ) يعني : شَقّه . ويخيل لنا أن لفظة (بطّ) ليست إلا محاكاة لصوت انبعاج حيوان صغير – ونحسبه الضفدع – حين يطؤه انسان . وما زال العراقيون يقولون : ينبطّ فؤاده أو قلبه .. بمعنى ينفجر غيظاً أو كمداً .

والباء حرف انفجاري لكنه غير قوي الصوت فهو يمثل بداية الانبعاج ، أما الطاء فحرف انفجاريّ صخاب . وان الاعرب الاقدم – الرسام الصوتي – الذي صوّر هذه الكلمة بفمه ليمثل الصوت الذي أحدثه بقدمه – ويبدو أنه كان صبياً – لجدير بالكثير من اعجابنا برهافته الموسيقية وكفايته النطقية . وإنما نرجح انه كان صبياً لان وطء الضفادع استمتاعاً بفرقعة انبطاطها من عمل الصبيان في غالب الاحوال ، ولو اننا لا نبرىء وحش الغاب (الراشد) – عربياً كان او أعجمياً – من أمثال هذا العبث بما فيه من قسوة ، لان أهل الحضر والحضارات ما زالوا يلهون بما هو أشنع من ذلك من قتل مختلف صنوف الحيوان باسم الصيد والرياضة .

وواضح أن الكلمة قديمة من عهد الغابات والغياض التي تكثر فيها الضفادع ، أي في أحقاب خصوبة المعربة (= الجزيرة العربية) قبل جفافها عند انحسار الجليد عن أوربا .

وربما كان اسم (البطة) ناجماً من تكوُّر جسمها ككل شيء ينبطّ أو يغريهم شكله بأن يبطّوه . غير اننا نرجح ان الضفدع هي التي سميت (بطة) أول الامر ، ثم أطلِق الاسم على هذا الطائر المائي لانه بالاضافة الى ما تقدم يعوم ويغوص في الماء كالضفدعة . وقد زال الاسم عن الضفدعة وغلب اسم الضفدع والقُرّة عليها .

ومما يؤيد ان لفظة (بطّ) نشأت من صوت الانبطاط اي الانبعاج الذي يحدثه وطء الضفدع هو انهم صاغوا منها بعد ازمان لا نعرف مداها كلمةً تعني الفعل الذي أحدث الانبعاج : (وطأ) ، وكلمةً أخرى تعني الشيء الذي أصابه الانبعاج: (بطن) ، وكلمة ثالثة تعني نتيجة عملية البطّ والبعج: (بطح) أي بسط الشيء وسطحه .. وكلمات أخريات ...

فاذا أنت قلت « وطأ بطةً فبطّ بطنها وبطحها » .. فقد عبّرت عن مرامك بخمس لفظات هنّ في الاصل كلمة واحدة تطور بعضها من بعض مع تشاكل المبنى وتقارب المعنى .

هذا الى ان كلمة (بطّ) – التي أبدعها العربي الصغير – أنجبت ألفاظاً أخرى بمعنى شق الشيء ، مثل : بطر (ومنها : البيطرة) ، و فطر ، و بضّ ، و بضع (ومنها : بعض) ...

ولما كان وطء الضفدع وبطّ بطنها يجعلها مسطحة الشكل كالذي قلنا ولا سيا بعد جفافها فقد نشأت من الكلمة ألفاظ أخريات تدل على معنى الضغط والتسطيح والتعريض ، منها : (فطىء الرجلُ) أي : دخل ظهره وخرج صدره (كأنما تشبيهاً بالضفدعة الموطوأة) ، ومنها : بطح ، فطح ، فرطح ، فلطح ، بلطح .. بلط .

و (بلط) هذه هي التي تعنينا في هذا المقام . فالبلاط هو : « الارض المستوية الملساء » على تعبير المعاجم . وقد قالوا : بَلَطَ الدار (بتخفيف اللام أو تشديده) : فرشها بالبلاط . ومن هنا جاء (البلاط) بمعنى الجص أو الحجارة التي تبلط بها الدار لتسوية باحتها ، ومن ثم استعيرت الكلمة للقصر الملكي بمعناه الرسمي ، وربما كانت قد أُطلقت اولاً على قاعة المعبد أو دار الكاهن او الرئيس الذي كانت داره تُبلَّط من دون الدور في أحقاب ما قبل التاريخ .

ومن (البلاط) بمعنى الارض المستوية الملساء أطلقوا « بلاط الشهداء » على

السهل الذي وقعت فيه معركة (بواتيه) بقيادة عبد الرحمن الغافقي لكثرة من استشهد فيها من جيش المسلمين .

كذلك من (البلاط) أو احدى أخواتها جاءت الكلمات الاوربية الآنفة الذكر : platta (صفيحة) باللاتينية ، و piazza (ساحـــة) بالايطالية ، و place (ساحة ، مكان) بالفرنسية والانكليزية .

وأقرب منها جميعاً الى (البلاط) مبنى ومعنى كلمة plateau : السهل ، أي الارض المستوية .

TABLE : منضدة :

أثلها من اللاتينية tabula : لوح ، منضدة . وقد أصبحت في الايطالية tavola ، ومنها كلمة (طبلة) المستعملة في بعض الدارجات العربيـــة بمعنى المنضدة الصغيرة التي توضع عليها أطباق الحلوى والنقل للضيوف . ولما كانوا يضعون عليها كذلك منفضة السكاير فقد صارت المنفضة ايضاً تدعى (طبلة) .. في العراق ، وربما في غيره أيضاً .

ومن هذه الكلمة الايطالية — ربما عن طريق التركية — يطلقون في سورية وبعضهم في العراق وغيره كلمة (طاولة) على المنضدة عامة وعلى علبة الخشب المستطيلة التي يلعبون بها الـــنرد خاصة ، ويسمونها في العراق (طاولي) تأثراً بالطريقة الموصليـــة والسورية في النطق على ما يبدو — أي كسر آخر الاسم المؤنث .

ونؤثل الكلمة اللاتينية (tabula) في العربية من (الطَّبْل) ، وهو عادةً مسطح وأجوف ، لكن التسطيح كان الصفة الاساسية فيه وانما جوّفوه فيما بعد تضخيماً لصوته فيما يبدو . فكثيراً ما كانوا ولا يزالون يقرعون أي شيء مسطح من المعدن — أو الخشب عند بعض القبائل الافريقية مثلاً — لإحداث الضجة المطلوبة .

وليس هذا كل ما يدل على الصلة التأثيلية بين الكلمتين الاوربية والعربية ، وإنما توجد بينهما صلة أخفى وأشدّ تعقيداً . ذلك أنهم بالدارجه السورية يقولون « طبّل في المشي » أي أعيا ، وهي بالفصحى « بلّط » بتشديد اللام . فكيف جاء معنى الاعياء ؟

نجد من تطورات كلمة (بطّ) قولهم (بَطْوَ) بمعنى تأخر . وعند انعام النظر يلوح ان سبب ذلك على الأرجح هو ان القوم حين كانوا يسيرون أو يرحلون كانت كثرة الضفـــادع في تلك الاحراج تستهوي صغارهم فينهمكون في مطاردتها، يطؤونها بأقدامهم لاعبين ليبطُّوها، فكانوا بذلك يتخلفون عن زمرة الكبار الذين يريدونهم على الاسراع واللحاق .

ويظهر أن هذا هو الذي أفضى الى اكتساب صيغة (البطء) معنى التأخر . والأغلب ان معنى البطء والتأخر كان موزعاً على ألفاظ أخرى من هذه المجموعة، ومنها لفظة (بلّط) التي استُعمِلت كذلك بمعنى الاعياء لأنه يسبب البطء والتخلف بدوره . ولما كانت (بلّط) تعني التسطيح أيضاً فقد صارت مقلوبتها (طبّل) تعني مثلها : الاعياء والتسطيح معاً . وقـــد بقي ذلك واضحاً في الدارجة السورية حيث يقولون ان الشخص (طبّل في المشي) بمعنى أعيا ، كما يقولون (الطَّبْل) بمعنى تلـــك الاداة المسطحة التي يقرعونها طلباً لصوتها المدوّي . أمّا في الفصحى فقد زال معنى الاعياء من الكلمة وبقي في مقلوبتها أي أمها (بلط) كالذي ذكرنا .

لذلك كانت tabula تعني اللوح باللاتينية أصلاً مثل مقلوبتها platta التي سبق الحديث عنها ، ثم أُطلِقت على المنضدة أي (اللوح) ذي الأرجل ، مجازاً أي تطوراً .

هكذا ترسيسها اذن: بط – بلط – طبل – tabula باللاتينية – tavola بالايطالية – table بالفرنسية والانكليزية .

CALCIUM : كِلْس :

أثّلوها من اللاتينية : calx أو calsis ، وهما من الاغريقية khalix .
ويظن اللغويون – العرب وغيرهم – ان كلمة (الكلس) دخيلة في العربية ، وقد أحصاها الأب نخلة من جرّاء ذلك ضمن مقتبسات العربية من الاغريقية [٤] .
غير اننا نرى أنها عربية وأنها الأثلة ، وهي من (الكَسّ) – كالدسّ – أي : دقّ الشيء حتى يكون كالسويق .. ومنه بالمغربية طعام (الكُسْكُس) المشهور . والسويق (أي : الناعم من دقيق الحنطة) شبيه بالكلس كما هو معلوم من حيث انه مدقوق ومن حيث انه أبيض . ويخيل لنا أن (الكَسّ) كان يعني الكلس في زمن ما ، لا لعلاقة معناه بالسويق الشبيه بالكلس فقط بل لأن (الكَسّ) أثلا من (القَصّ) الذي يعني الكلس بالذات ، ومنه (تقصيص) الدار : تجصيصها .

ويظهر ان العرب سمّوا هذه المادة قصاً لأنها (تقص) جلدة راحة اليد حين يعمل الفَعَلة فيها جَبْلا وخلطاً لاستعمالها في البناء . ولعل في تسمية الكلس بالقص شيئاً من مبالغة ، لكن أمثال هذه المبالغة مألوفة في التطورات اللغوية ، وما زال العراقيون يعبّرون عن مثل هذه الحال بقولهم : تذبّحت يده .

ومعلوم ان بعض العرب كانوا ينطقون القاف جيماً وما زال البدو والجنوبيون من أهل العراق يفعلون ذلك في كثير من الالفاظ ، ومن هنا ظهرت كلمة (الجصّ) . وشبيه بذلك ان بعض البدو يقولون (جَطْ راسه) أي قَطّه .

فالجص ايضاً عربية اذن – بنت القص – وليست معرّبة من (گچ – gatch) الفارسية كما قال اللغويون ومنهم حتى المجد الفيروزابادي . فالعكس الصحيح .. أي ان (گچ) الفارسية هي المقتبسة من (الجص) أو (القصّ) .

---

٤ – الحاشية رقم : ١ – آنفا . ص ٢٠٤ .

على ما تقدم بنا من القول نرسّس الكلمة من صوت القطع – أي قطع عظم أو عصا بضربة سيف او فأس او ساطور . وقد صوّر العربي هذا الصوت بهذين الحرفين القويين : القاف والطاء : قَطّ . والكلمة حديثة ، أي مما بعد انقضاء العهد الحجري ، لأنها نشأت في إبّان استعمال اداة حادة متينة للقطع – من النحاس او الحديد ، ونستبعد أن يكون مثل هذه الآلة من الحجر :

قَطّ – قصّ (ومنها : جصّ) – كسّ – كلس – .calcium : E. — calx : L. — khalix : G.

OS : عظم :

ومنها ossoeus : عظميّ أو متعظم ، و osein : المادة العضوية اللينة التي يتكوّن منها العظم . وأثلها من اللاتينية بصيغتي os و ossis : عظم .

و (العَصّ) – كالقَصّ – في العربية تعني الأصل ، ومنه مجازاً (العُصَعُص) – بضم العين وفتح الصاد او ضمه : أصل الذنب . ومنه (العُصْعُص) – كالبلبل – و (العَصْعَص) – كالمرمر – و (العُصعوص) – كالعصفور : عظم الذنب .

وقد أخذ اللاتين كلتا الصيغتين : os من العَصّ ، و ossis من العُصص ، فيما يظهر . (مع العلم بأن العراقيين ينطقون العَصّ بضم العين كاللاتين ، حيث يقولون ان الشخص عُصّ ، او : يده عُصّ – اي بخيل) .

و (العَصّ) الذي قلنا انه يعني الاصل نؤثله من (الأسّ) . وهكذا نرى كيف انتقل المعنى من : الاصل ، الى أصل الذّنَب ، ثم الى عظم الذنب خاصة ، ثم الى العظم عامة .

رسّها اذن من همزة التنبّه * : آ – أسّ – عَصّ – os : L. – عصص – .os : E. — ossis : L.

* – سيأتي الكلام عن « الأسّ » وهمزة التنبّه في الفصل اللاحق « أسرار الضمائر » .

المعجم الانكليزي يؤثلها من الاغريقية (aêr) : طبقة الهواء السفلى القريبة من الارض . ولا ندري لماذا تخطّى معجمُنا اللاتينيةَ هذه المرة ، فمن عادتهم رفع الكلمة الى اللاتينية اولاً ومنها الى الاغريقية كلما وجدوا كلمة لهم في هاتين اللغتين معاً ، ولا سيما أن هذه الكلمة وردت في اللاتينية بنفس الصيغة (aêr) . وهي بالايطالية (aerea) ، ومن يتسلم من ايطاليا رسالة بالبريد الجوي يجد عليها لصيقة (Per via aerea) .

يرون – ومنهم الاب نخلة اليسوعي ، وهو من محبي اللغة العربية المعجبين بمناقبها كما يتضح من كتابه الآنف الذكر – ان العرب اقتبسوا (الهير) بمعنى ريح الشمال من الكلمة الاغريقية (evros) وهي على قوله : « ريح تهب في اليونان من الجنوب الشرقي وفي بـــلاد العرب من الشمال » . وهي تنطق (الهـَيْر) – كالطير – و (الهـَيّر) – كالسيّد .

والذي نعتقده ان أثل هذه الكلمات جميعاً (باستثناء evros) هو (الاير) – كالهير بصورتيه المذكورتين – الذي كنا قرأنا في مقاييس ابن فارس انه يعني الريح الحارة أو الباردة . ولا نذكر الآن أيهما كان أرجح عنـــده لأن الكتاب ليس في متناول يدنا الآن . والأصح عندنا ان الاصل منهما هو الريح الحارة ، ثم شمل الريح الباردة تطوراً .

ذلك بأن الأثل هو (الارّ) – كالشرّ – وهو إضرام النار ، وهو رسُّها أيضاً ، اي جذرها الصوتي الأول . فان النار حـــين تتأجج تنبثق من حطبها نفثات قوية تقول : (أرررررررررر ...) . وما زال العراقيون يقولون : (ورّت النار) ، أو : (فلان يورّ مثل النار) ، أي سرعان ما يهتاج . ومنها في الفصحى : ورّيت الزنـــد ، وأوريته : أخرجت ناره . ومنها أيضاً

(الأوار) : بضم الهمزة اللهب، وحرّ النار أو الشمس، والدخان ، والعطش ، وريح الجنوب .

والذي نتوهمه أن العرب قالت اولاً (أرّ الحطبُ) بمعنى احتدم ضرامه حتى خرج منه صوت : أرررررر . لكن هذا المعنى قد انقرض في الفصحى وبقيت منه الكلمة العراقية (ورّ) ، ولعلها مستعملة في أقطار عربية اخرى . أما الذي بقي في المعاجم فصيغة الفعل المتعدّي (أرّ النارَ) : أوقدها . ولا يصعب علينا ان نتخيّل كيف نشأت من (الأرّ) كلمة (الاير) بمعنى الريح الحارة ، وقد رأينا انهم صاغوا منها (الأوَار) وأطلقوها على الريح الجنوبية ومعانٍ حرارية أخرى . ولا شك انهم في أول الأمر قصدوا بها الريح الحارة لا الباردة ، فما زالت الريح الجنوبية كذلك في العراق ، وهي أسوأ الارواح وأوخمها . ولعل ذلك شأنها في جميع الساحل الجنوبي من جزيرة العرب . وقد استعيرت من (الأرّ) معانٍ أخرى تفرعت منها كلمات أخرى ليس هنا محل ذكرها .

فترسيس (air) اذن شيء من هذا النحو : أرّ — أير (ومنها : الهير) — aêr في الاغريقية واللاتينية (ومنها : aerea) في الايطالية — air في الفرنسية والانكليزية .

وأمـــا الكلمة الاغريقية evros التي تعني الريح الهابّة من الجنوب الشرقي بالنسبة الى اليونان والتي ظنّوها أثل (الهير) .. فواضح ان أثلها العربي هـــو (الاوار) الذي سبق ذكره بمعنى ريح الجنوب، أو جمعه : الأور .

CAESARISM حكم استبدادي :

اكتسبت الكلمة معناها هـــذا في الانكليزية من اسم يوليوس قيصر (Julius Caesar) وهو أول من سُمّي به .

يقول معجم هوف : « ربما سمّي بذلك لأن رحم أمه شُقّ عنـــد موتها لاخراجه »[٦] .

فما علاقة عملية شقّ الرحم – المسماة بالعملية القيصرية – باسم قيصر ، ومن ثمّ بكلمة القيصرية التي صارت تعني العظمة والجبروت حتى لقد انتحل اسم قيصر كثيرون من حكام الرومان الذين خلـفوه وأولهم ربيبه وابن أختـــه اوكتافيوس قيصر ، ثم انتحل اللقب بعد انقراضه في موطنه حكام الروس والالمان ؟

قالوا ان الكلمة في اللاتينية من مادة caesum ومعناها القطع . ونحن نقول بتعبير ترسيسي ان هذه الكلمة اللاتينية أثلها من العربية : **القصم و القص** . وهم يقولون ان caesum هذه من مادة (caedo) ومعناها القطع أيضاً . وبوسعنا أن نصحح لهم هذا فنقول ان هذه الاخيرة من (القَدّ) وهو القطع كذلك ، غير انها كلمة مستقلة عن (القص) ولو أنهما من رس واحد : (قطّ) .

وهذا يعني ان الرومان كانوا يستعملون المترادفين العربيين : (قـــدّ) و (قصّ) كليهما .

فعلى هـــذا نرسّس الكلمة هكذا : **قطّ** – قصّ (و : قـــدّ) –
· Caesarism : E – Caesar : L. – (caedo : و) caesum : L.

TOP

لها في الانكليزية معنيان : (١) قمة ، ويؤثـلونها بنفس اللفظ والمعنى من السكسونية ، (٢) خذروف ، ويؤثـلونها من الجرمانية topf .

ويمكننا تتبع المحطات التي نزلت فيها الكلمة خلال هجرتها الطويـــلة في

٦ – هذه ترجمة العبارة التي كنا نقلناها عن مادة (Caesar) من معجم :
« Hugh's Dictionary of Islam »

الزمان والبعيدة في المكان ، وبتعبير آخر يمكننا تشخيص الصور التي تجسدت فيها أثناء تطورها ، على هذا النحو :

الكرة بالفارسية (تـُوپ – tûp) ، وهي بالعراقية الدارجة (طوبة – tobah) . فلهذا يعتقد كل انسان كما كنا نعتقد شخصياً قبل اهتدائنا الى فكرة الترسيس ، ان الكلمة العراقية مقتبسة من الفارسية ، ولا سيما انها وردت في العراقية الدارجة وليس لها سند من الفصحى . لكننا اذا انتقلنا مرحلة اخرى غرباً ، الى الشآم ، وجدناهم يسمونها (طابة) . فاذا نحن سافرنا القهقرى في الشآم نفسها ثلاثين قرناً أو أربعين وجدنا الكنعانيين يسمونها (طاو) ، وهو اسم حرف الطاء أيضاً عندهم لأنهم كانوا يرسمونه على شكل الكرة ، كالذي كنا قرأناه في « المعجم الكبير » الذي ذكر أن الكلمة من مادة (طوى) .

فبعد هذا التسلسل في اللفظ والتدرج في المكان والزمان لم يعد في وسعنا ان نخطىء أثلها العربي . ونخال ان رسّها قد نبت من محاكاة صوت انكسار غصن دون انفصال طرفيه احدهما عن الآخر : (طـَوْ) . وهذا الصوت مفقود في المعجم العربي ، لكننا نفترض أن كلمة (طو) كانت موجودة ثم انقرضت قبل ان يدركها المعجميون ، او وجدوها في احدى الدارجات فأنفوا من تدوينها فأهملوها كما فعلوا بأمثالها . ومما يؤيد لنا انها كانت موجودة هو وجود بناتها ، وأولاهن فعل (طـَوَى طيّاً) ، وثانيتهن (طاو) الكنعانية . ومن بناتها أيضاً : التـّوّ ، و الزّو . أما (التـّوّ) فتخصصت بمعنى الفرد الواحد من القرينين من أي نوع (كأنما المقصود أحد طرفي الغصن المَطـْويّ) . والطـّيّ في الفارسية : (تا) التي يظهر أن أثلها من الطيّ ، أو الطاو ، أو التوّ ..

وأما (الزّوّ) فتعني القرينين معـــاً ، من معنى طرفي الغصن المطويّ كليهما . ومنها نشأ فعل (زَوَى) ومنه (الزاوية) لأنها تتكون من ضلعين كطرفي الغصن المكسور ، وقلبوا فعل (زَوَى) فصار (وَزَى) ومنـــه (وازى) ، و (وزن) . ومن (وازى) قالوا (واسى) ، ثم (ساوَى) ..

و تساوَى الشيئان فكان كل منهما سِيٌّ الآخر أي صنوه .. ومن ثمّ قالوا : **هما سيّان** .

ومن (الزوّ) أيضاً صاغوا (**الزوج**) بمعنى القرينين أو الواحد منهما ، أي ان كلمة (الزوج) تجمع معنيي الزوّ و التوّ . ثم انهم قلبوا (الزوج) فصارت (**الجوز**) كما ينطقها بعض العرب اليوم ولا سيما في سورية ومصر .. ومنها (**الجوزة**) الثمرة المعروفة لأنها فلقتان كالزوجين . ومن الجوز أو الزوج نشأت في الفارسية صيغة (**جُفْت** – joft) بمعنى القرينين . وهذه أيضاً اقتبستها العراقية الدارجة في بعض الاستعمالات .

ومن (الطوّ) نشأت كذلك (**الطَوْق**) و (**الطاق**) وكلتاهما تحمل معنى الانثناء والانحناء . وربما كان بعض الأقدمين قد صوّر صوت انكسار الغصن بلفظة (طَقْ) الى جانب من صوّروه بلفظة (طو) ، وما زال العراقيون يقولون (**طقّ الصحن**) بمعنى انكسر أو انفطر ، فاذا كان صوت الكسر شديداً مدّوا حركة الكلمة فقالوا بلغة الموصل مثلاً (انكسر وعمل طاق ..) . فعلى هذا ربما كان (الطوق) و (الطاق) من (طق) .. كما ان (طاو ، وطَوَى) من (طَوْ) .

و (**الطاق**) بمعنى القوس في البناء يظنونها من الفارسية بينما كان وجود شقيقتها (**الطَوْق**) في العربية خليقاً بأن يهديهم الى عكس ما توهموا . و (**الطاق**) الى جانب معنى الانحناء يحمل معنى التفرد ايضاً – من معنى أحد طرفي الغصن المطويّ – كقول المعجم (**طاقُ نعلٍ**) أي طبقة منها . والكلمة مستعملة في الموصل في مثل « طويت الورقة **طاقين** » ، وفي مثل « برم الخيط **طاقين** » . وأما في بغداد وسائر أنحاء العراق فينطقونها مقلوبة : (**قاط** و **قاطين**) .

ومن (الطاق) بهذا المعنى ، أو من مرادفتها (التوّ) الآنفة الذكر ،

اقتبست الفارسية كلمة أخرى هي (تَـكْ – tak) : وحيد ، فرد . وهذه أيضاً عادت العراقية الدارجة فاقتبستها من الفارسية .

وعدا (تـُوپ) توجد في الفارسية من هذه المادة : (تـَپّـه – tappeh) : القِمّة ، مثل (top) الانكليزية .

أما قول المؤثلين الانكليز ان الأثل الثاني لكلمة (top) التي تعني الخذروف هو (topf) الجرمانية ، فيبدو أن الجرمان هم الذين استعملوا الكلمة مجازاً بمعنى الخذروف فأخذ الانكليز عنهم هذا المعنى .

وتوجد في العراقية الدارجة كلمة (طوب – tob) بمعنى المدفـــع ، وهي مقتبسة من الفارسيّة (توپ) التي سبـــق ذكرها بمعنى الكرة ، لأن الفرس استعملوها مجازاً بمعنى المدفع أيضاً ، والأرجح أنهم أطلقوها أول الأمر على قنبرة المدفع ، ثم انتقل معناها الى المدفع نفسه .

يكون ترسيسها حسب المراحل التي تيسرت لنا اذن شيئاً كهذا : طو (منقرضة ؟) : صوت انكسار الغصن – طَـوَى طيا – طاو (كنعانية) – طابة (سورية) – طوبة (عراقية) – توپ (فارسية) : وهذي الأربع تعني الكرة – تپّه (فارسية) : قمـــة – (١) top (انكليزية) : قمة – topf (جرمانية) : خذروف – (٢) top (انكليزية) : خذروف .

TWO : اثنان :

يؤثلونها من السكسونية twa ، وهذه نؤثلها لهم من (طَـوَى) . ولا غرابة في استعارة معنى الاثنين من الطيّ بعد الذي رأينا ، ولا سيا ان (الاثنين) في العربية أيضاً من نفس المعنى : (ثنى) . بل ان العربية نفسها قد استعملت

(طوى) بهذا المعنى فقد جاء في المعجم الوسيط ان « المقدّس طُوَى » تعني المقدس مرتين [٧] .

ونجد نفس الكلمة (طوى) بمعنى الاثنين في اللغات الآرية بوجه عام بإبدال طائها دالاً ، فهي في السنسكريتية والفارسية (دُو – du) ، وفي الاغريقية واللاتينية (duo) ، وفي الايطاليـــة (دُوّه – due) ، وفي الفرنسية (دو – deux) ...

PESAGE : اجرة وزن البضاعة :

مـــالَ رفيقي الى الميزان الآلي في الصيدلية فاعتلى قاعدته ، واذا بالنبل (المؤشر) يقفز فجأة من مخبئه كأنما هبّ من رقاده بلسعة عقرب . وترنح يميناً وشمالاً ثم استقر مائلاً كأنه مات وهو واقف، يكاد يقع لولا قوة سحرية تسنده .

وبدا لي ان أحذو حذوه ، أعني رفيقي ، فقد مضت أعوام وأنا لا أعرف مدى ما أضافه الى ثقلي على نفسي طولُ الركود الجسماني والالتهاب العصبي والفكري . فارتقيت قاعدة الميزان ، وهبّت النبلة تعيد تمثيل مهزلة الموت بعد البعث . وبرزت لي من سرّة الميزان بطاقة صغيرة ، لفتت نظري عليها دعوة بالفرنسية الى تكرار هذه التمثيلية : (Pesez vous) أي : زِنْ نفسك .

وكما قفزت النبلة من مهجعها الى الرقم الذي يدل على مقدار ثقلي على الكرة الارضية ، المعلقة بقدميّ، حيثما ذهبت – قفز ذهني من كلمة (Pesez) الفرنسية الى كلمة (وزن) العربية . نعم ، انها كلمة واحدة [٨] .

---

٧ – الاستاذ ادريس العلمي الموظف بمكتب التسويق والتصدير بالدار البيضاء ، نقـــل لنا هذه الكلمة مشكوراً من المعجم المذكور تأييداً للفكرة .

٨ – مصدر الفعل هو Peser ، والراء زائدة كما هو معلوم ، وتنطق الكلمة بدونهـــا أي (بيزيه) . وفعل المضارع المفرد هو : Pese .

بـــل ان خلوّ الكلمة الفرنسية من النون ساعدني على تأثيل (وزن) من (وزي) .. فالظاهر أن قدامى العرب كانوا يشترطون على البائع استواء طرفي الميزان ، أي تعادلها .. ومن هنا كان (التوازن) من (التوازي) .

وعند البحث عن نسب الكلمة الفرنسية (Pese) وجدنا ان أثلها من فعل Penso (= يزن) باللاتينية الرسمية ، وهو Peso باللاتينية الدارجة . وبتعبير آخر ان اللاتين كانوا يستعملون الصيغتين العربيتين (وزى) و (وزن) معاً — اذا اعتبرنا ان Penso تقابل (وزن) . وبتعبير أغرب ان اللاتينية الدارجة هنا أفصح وآصل من عربيتنا الفصحى ، او أعرق على أقـل تقدير ، لأنها تستعمل (وزى) بمعنى الوزن ، بيـنما يستعمل العرب بنتها (وزن) التي هي أحدث عهداً .. والأحدث في التطور اللغوي يمكننا دائمـاً ان نسميه تحريفاً او تحويراً للأقدم .

وما زالت الكلمة الفرنسية (Pese) أيضاً على الصيغة الأثلية ، ويبدو انها منحدرة من اللاتينية الدارجة Peso لا من اللاتينية الرسمية Penso .

وقد مرّ بنا ترسيس (وزن) آنفاً من صوت انكسار الغصن ، فعلى هذا نرّسس هذه الكلمة اللاتينية هكذا :

طَوْ – تَوّ – زَوّ – زَوَى – وَزَى – Peso باللاتينية الدارجـة — Pese بالفرنسية – Pesage بالانكليزية ... — وزن – Penso باللاتينيـــة الفصحى .

WEIGHT : وزن ، ثقل :

حينئذ خطر لي هذا السؤال : ما أثل الكلمة عند الانكليز يا ترى ؟

ان فعل (وزن) في الانكليزية هو (Weigh) ومعناه : يزن ، يحمل ، يضطهد ، يضغط ضغطاً شديداً . ويدّعي معجمنا ان مأتاها من السكسونية

(wegan) أي : يحمل . ومعنى ذلك انها من العربية (وَجَنَ) التي تعني : رمى بالشيء ودقّه وضربه . ومنها (توَجّن) : ذَلّ وخضع . ومنها أيضاً (الميجنة) : المِدقّه ، وهي ما زالت تستعمل بهذا المعنى في العراق .

وأما (weight) أي الثقل بالانكليزية فواضح أنها من فعل (weigh) الآنف الذكر بزيادة التاء فقط ، غير ان المعجم يعزوها الى أثل آخر في السكسونية هو (wiht) وهذه على زعمه – المعجم – من (wegan) التي مرّ ذكرها .

اننا نرجح ان (wiht) هي أثل الكلمتين الانكليزيتين كلتيهما ، وأثلها العربي فعل (وَهَت) الذي يعني : ضغط الشيء وداسه دوساً شديداً . ومن أفراد أسرتها في العربية : وهث ، وهز ، وهس ، وهص ، وهط ... التي تعني أموراً متقاربة من ضغطٍ او دقٍ او إضعاف ...

ونرسسها من صوت (القطع) هكذا :

قطّ – قد – هدّ – هتّ – وهت – wiht بالسكسونية – weight بالانكليزية .

أما (wegan) السكسونية التي أثلناها من (وجن) فمن مادة لغوية أخرى – غير مادة (وهت) – بالرغم من تشابه معناهما . وهي من أثل (وزن) التي رسّسناها تواً من (طو) . وعلى هذا فهي قريبة النسب من (Penso) اللاتينية و (Pese) الفرنسية اللاتينية .

وهذه الاسرار الخفية والعلاقات المنسية ما كنت لأتوصل الى فضحها لولا اني وزنت نفسي ، أعني جسمي ، لأقيس درجة التجاذب غير الودي بيني وبين الكرة الارضية .

SAXON : السكسون :

ولم لا ؟ فلنبحث عن نسبة كلمة (سكسون – Saxon) أيضاً فلعلها تهدينا الى شيء عن الأمة السكسونية او تلقي ضوءاً على نسبهم او سبب تسميتهم. وما اسماء الأعلام إلا ألفاظ من اللغة تخضع لمـــا تخضع له ألفاظ اللغة من قوانين الاقتباس والتحريف والتطوير .

فما الذي يمنعنا من التحرش بالأسماء الأعجمية بحثاً وامتحاناً ، لعلنا نجد ما وراء الأكمة ، ان كان وراءها شيء يعنينا ؟

يقول المعجم ان كلمة (سكسون – Saxon) أثلها Seaxan و Seaxa باللغة السكسونية نفسها ، وان هاتين الكلمتين من أثل seax . والى هنا ما زال الأمر يبدو عادياً لا شأن له بنا . لكن المثير هو معنى الكلمة . انه السكين! والسكين هي المدية طبعاً . والسكّان – كالحدّاد – هو صانع السكاكين . وكلمة السكين تشبه Seaxan لفظاً وتطابقها معنى . وأما ان كان النون زائداً في هذه الكلمة الأعجمية وان مادتها الأصيلة هي seax وحسب فان هذه الأخيرة أيضاً تطابق في العربية (الشاقص) أي القاطع ، لفظاً ومعنى . وكما قالت العرب : الباتر ، والماضي ، والحسام ، والقرضاب .. وغيرها من معاني القطع في تسمية السيف ، لا يستبعد ان يكون قداماهم قد قالوا (الشاقص) في تسمية السكين . ولعل قبيلاً منهم قد هاجروا بهذه الكلمة بصيغتيها (السكين والشاقص) فنشأت منها الصيغتان Seaxan و Seaxa ، او هاجر باحدى الصيغتين فنشأت منها الثانية . ولعلها دخلتا – او دخلت احداهما – أواسط أوربا في احدى الهجرات مستقلاً عن هجرة (الهنود / الأوربيين) الذين كنا سميناهم في فصل سابق : (العرب / الهنود / الأوربيين) .

هؤلاء السكسون لماذا تسموا او سمّاهم الناس باسم السكين ؟ هـــل لأنهم اشتهروا بصنع السكاكين ؟.. او القتال بها ؟..

وهل لنا ان نسميهم بالعربية (السكّاكين) او (السكّينيين) او (الشاقصيين)؟ من الواضح انه لا ضرورة لهذه التسمية الآن . لكننا لو فعلنا لما جافينا الحق ، بشهادة معاجمهم .

وسواء أكان الاسم من السكين أم الشاقص أم كليهما ، فان هاتين الكلمتين ترجعان الى رسّ لغوي واحد أيضاً على الأغلب . ذلك بأن النون زائد في (السكين) .. ونقولها مع الاعتذار الى النحويين والمعجميين العرب الذين يوردون الكلمة في مادة (سكن) ، لأن أثل السكين في رأينا من (سكّ) لا من (سكن) ، شأنها شأن (الغسلين) من (غسل) .

ومن (السكّ) صيغت (سكة) المحراث التي تشق الارض . و (السّك) أثلاً من (الشق) ، وهذا فيما يبدو من (الشقص) ، وهذا من (القص) على الأغلب ، وهذا من (القطّ) وهو اللفظ البدائي الذي قلنا ان العربي الأقدم صوّر به صوت القطع .

وربما كانت احدى الكلمتين السكسونيتين من (الشق) والاخرى من (السك) ولو ظنوا ان الاثنتين من seax ، كما ظنوا مثلاً ان (wiht) من (wegan) دون ان يفطنوا الى ان الاولى من (وهت) والثانية من (وجن) .

وأياً كانت الحال فقد ورد (السك) في اللاتينية أيضاً بصيغة (sica) أي السكين أيضاً او الخنجر . وربما كان معنى الخنجر في اللاتينية يؤيد فكرة قتال السكسون بسكاكينهم ، فلعلها كانت أقرب شكلاً الى الخنجر ، او حجماً الى السيف او الساطور . من يدري ؟

وواضح ان (sica) اللاتينية هذه متأثلة من (السكة) العربية لا من (السكين) . ويبدو ان (السكة) كانت تعني في العربية السكين ايضاً او نحو ذلك من الادوات القاطعة .

ولكلمة (sica) صلة بكلمة (sicilian) أي المنجل ، ومنها في الانكليزية (sickle) أي المنجل ايضاً . .

ووردت في اللاتينية كلمة (seco) أي يقطع ، وهي أقرب الى صورة (شقّ) فيما يظهر ، بينما (sica) أقرب الى (سكّ) .

على اننا لا نقصد ان اسم السكسونية مقتبس عن طريق اللاتينية ، بل نرجح ان هجرة عربية انشعبت في زمن من الازمان فذهب شطر منها الى ايطاليا وشطر الى أواسط أوربا . بل ربما كانت هجرتين او أكثر .

فان صحّ ان اسم السكسون عربي الأثل كان في مقدورنا ان نسلسل نسبه على المنوال التالي مثلاً ، من صوت (القطع) :

قَطّ — قصّ — شقص — seax — Seaxa — Saxon .

او هكذا : قطّ — قصّ — شقص — شقّ — سكّ (ومنها : سكّان ، او سكّاكون) ؟ — Seaxan — Saxon !

COPPER : نحاس :

أثلها (Cypress) وهو اسم جزيرة قبرص . وهذا غاية ما يذكره معجمنا الانكليزي (The New Manifold Dictionary) المتيسر لدينا على علاته ، في ظروفنا الراهنة على علاتها أيضاً . ولدى مراجعة المعجم اللاتيني المختصر الآخر الذي في حوزتنا الآن : (Cassel's Latin Dictionary) [٩] — وجدنا ان الكلمة في اللاتينية (Cyprus) وتعني جزيرة قبرص ايضاً . ومنها (Cyprium) : نحاس .. ويؤثلها هذا المعجم من الاغريقية (Kupros) : قبرص ، ايضاً .

٩ — ننوه بقصور المراجع لدينا الآن في حالة التغرب وعدم الاستقرار — في المغرب العربي — ليعذرنا القارىء اذا كانت قد فاتتنا حقائق مهمة نجهلها في المراجع التفصيلية . وعسى ألا يكون فقدانها لدينا قد أوقعنا في أغلاط كبيرة في مثل هذه البحوث المعقدة المتشعبة .

أما في العربية فان (القُبْرُس) – كالقُنْفُذ : أجود النحاس .

ومعلوم ان النحاس الاصفر يسمى في العربية (الصُفْر) ، وهي الكلمة المستعملة في العراق بمعنى النحاس عموماً – لكن بكسر الصاد بدلاً من ضمّه .

والذي يلوح لنا ان العرب كانوا قد سمّوا جزيرة قبرص باسم هذا المعدن (الصُفْر) لشهرتها به ، والاغلب أنهم كانوا يطلقون الكلمة أول الامر على النحاس الذي كانوا يجلبونه منها ، ثم شمل الاسم الجزيرة . وهذه احدى الحقائق التاريخية التي يكشفها لنا البحث الترسيسي – إن صحّ استنتاجنا . ولقد نطقها الاغريق بضم أولها (Kupros) مثل فصحانا – لغة قريش ومن شاكلها لغوياً من العرب – خلافاً للعراقيين ومن شاكلهم من العرب المعاصرين الذين ينطقونها بالكسر . اما (os –) في آخر الكلمة الاغريقية فعلامة إعراب تلحق بالاسماء عندهم، فهي ليست من صلب الكلمة، أي ان متن الكلمة الاغريقية هو (kupr) وحسب – كالعربية: صُفْر . أما نطق الصاد كافاً هنا فيشبهه في العربية قولهم: تشبّص وتشبّك .. واصَبَ وواكَبَ ، بمعنى واظب ..

ومتن الكلمة في اللاتينية (cypr) . والحرف (p) في أمثال هذه الكلمات يقابل حرف الفاء بالعربية كما هو معلوم . ومن الطريف ان الفاء يقابلها الحرف (p) في البابلية ايضاً .

ونرجح ان الاغريق – عرب تلك المنطقة في تلك الحقبة؟ – كانوا قد قصدوا بكلمة kupros : النحاس ايضاً ، لا اسم الجزيرة فقط ، بدليل ان كلاً من الانكليز واللاتين صاغوا من هذه الكلمة اسم النحاس ، بالاضافة الى ان العرب اعتبروا (القُبْرُس) أجود النحاس .

أما الخطأ في نطق (الصفر) بكسر أوله – اذا عددنا ذلك من الخطأ – فقديم عند العرب فيما يظهر لان اللاتين ايضاً نطقوا الكلمة بالكسر: Cypr (us) كما رأينا .

ونعود الى كلمة (الصفر) انرستّسها . انها من (الصفير) ! ولقد أحسن العرب – مرة أخرى – حين مثّلوا صوت الصفير بحَرْفَيْ الصاد والفاء (صف..) لانه في واقع الأمر مزيج عجيب من هذين اللونين ، نعني اللحنين . ويلوح ان هذا المعنى قد اندثر من هذه الصيغة الثنائية (صف) التي كُسِعت بالراء فيما بعد فصارت : صَفَرَ يصفر صفيراً .. ومنها في الفرنسية : sifle !

وكان ان انتقل معنى الكلمة من الصوت الى اللون ، عن طريق النبات . وتفسير ذلك ان النبت اذا يبس اكتسب صفتين : صفرة اللون وصوت الصفير اذا هبت به الريح . فعلى هذا يكون معنى الصفرة منقولاً من صوت صفير النبات ، عند جفافه ، أي اصفراره .

ولا يستبعدنّ القارىء الكريم هذا التخريج منا ، فلقد قالت العرب فعلاً : « صَيَّحت الشمسُ البَقْلَ » بمعنى : جفّفته . والذي نفهمه من هذا ان جفاف شجيرات البقول بحرارة الشمس يجعلها (تصيح) اذا دهمتها الريح ، ولا سيما حين تجف فيها حبوبها . ومن هذا قالوا تطويراً للكلمة (صوّحته الشمسُ) بنفس المعنى ، و (صوّح البقلُ) : يبس .. فزال عن الكلمة معنى الصياح وثبت معنى الجفاف .

ونذكر نموذجاً آخر من ملاحظتهم لصوت النبات في الريح واهتمامهم به ، وهو نبات (العِشْرِق) – بكسر العين والراء – الذي شبّهوا وسوسة الحلي بصوته . واللهُ يعلم كم طرب صاحبنا (صنّاجة العرب) حين ذكّره العِشْرِقُ بوسوسة الحلي عندما تتبختر فاتنةُ لبه – هريرة – بالذات ، الى حدّ أنه كرّم هذا النبات في شعره فنعته بالزَجِل – بكسر الجيم – يوم قال :

تسمع للحَلْيِ وَسواساً إذا انصرفت
كما استعان بريحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ !

فهكذا اكتسب (الصفير) معنى (الصفرة) .. بعد ان تطور فعل

(صَفَرَ) الى (إصْفَرّ) .. مثلما تطور قولهم (صيّحت الشمسُ البقلَ) الى (صوّح البقلُ) .

وانما أطلقوا (الصُفْر) على « النحاس الاصفر » بـــل والذهب ، لصفرة لونها . ونعتقد ان (الصفر) كان قد أطلِق أول الامر على النحاس عموماً كما لا يزالون يطلقونه في العراق ، ثم تخصصت الكلمة بالنحاس الاصفر – البرنز – بعد ان ألصقوا اسم (الصفر) بجزيرة قبرص .

على مـــا تقدم يكون ترسيس الكلمة الانكليزية (copper) من صوت الصفير ، ويكون تتابع المراحل التي اجتازتها والصيغ التي تقمصتها شيئاً يشبه ما يسمونه « تناسخ الارواح » على هذه الوتيرة او ما يقاربها :

صف (مندثرة بهذا المعنى ؟) – صَفَر صفيراً – الصُفرة (اللون) – الصُفْر (النحاس ، ومن ثم جزيرة قـــبرص) – Kupros : G. (قبرص ، والنحاس أيضاً على الأرجح) – Cyprus : L. (قبرص) – Cyprium : L. (نحاس) – Cypress : E. (قـــبرص) – copper : E. (نحاس) – القُبْرُس (أجود النحاس) – قبرص (اسم الجزيرة) .

وجائز ان الكلمة الانكليزية قد تطورت من (الصُفْر) مباشرة أو عن طريق آخر ، غير اللاتينية ، فالشبه بين الكلمتين واضح على كل حال .

اقتبس الاغريق والرومان وبعدهم الانكليز وغيرهم ، هـــذه الكلمة من العربية .. لكن العرب عادوا كما نرى فاقتبسوا منهم اسم الجزيرة (قبرص) وأجود النحاس (القـُبْرُس) . بضاعتهم رُدّت اليهم .

***

ان اختلاف المراحل التطورية في الألفاظ العربية التي دخلت في اللغات الاوربية يدل على موجات متوالية من الهجرات الأعربية ، منذ عهد انحسار

الجليد عن أوربا فيما يظهر – إما من المعربة رأساً وإما من المناطق التي استقرّ فيها بعض الأعربين المهاجرين من الآريين في ايران وشرقيّها ، والحاميين في افريقيا ، والساميين في الشرق الاوسط .

فهل يمكن ولو بوجه التقريب معرفة بعض هذه الهجرات وتعيين القبائل العربية او الاقوام السامية او الحامية او الآرية التي ساهمت فيها ؟

بعض المظاهر اللغوية غريبة خليقة بالدرس . منها مثلاً استعمال المصـــدر بمعنى الصفة في بعض الكلمات الانكليزية ، مثل :

الجود : good ، أي : جيّد .

النُبْل : noble ، أي : نبيل .

العلّة : ill ، أي : عليل .

السقم : sick ، أي : سقيم .

الطول : tall ، أي : طويل ...

فان كانت هذه الألفاظ ، وأمثالها ، قد دخلت أوربا في وقت واحد ، أو عن طريق واحد .. كانت دليلاً على القبيل العربي الذي جاء بها . ومثل هذا يمكن أن يقال في كل طائفة من الألفاظ تجمع بينها خصيصة مشتركة .

***

ان كان (التأثيل) علماً أوربياً الى حدٍّ كبير ، ومن قبل كان علماً عربياً الى حدٍّ ما – فان (الترسيس) علم عربي محض ، وسيبقى عربياً أبداً . فما من لغة غير العربية جعلتها ظروفها الخاصة قادرة على النهوض بهذه المهمة لنفسها ولغيرها من اللغات ، بايجاد الأرساس الحية للكثير من الكلمات الآرية ، وأكثر

منها للكلمات الحامية ، وأكثر منها للكلمات السامية ، وأكثر منها بطبيعة الحال للكلمات العربية نفسها .. مع الحلقات – غير المفقودة – التي تصل هذه الأرساس البدائية بالألفاظ الحضارية الراقية العصرية ، في تسلسل تطـوري منطقي جذاب يرينا بعض المراحل التي تجسدت فيها الكلمة معنى ومبنى ، أو كلها في بعض الأحوال .

وكل لغوي أجنبي يروم دراسة علم الترسيس لا محيص له من تعلم العربية والغوص في معجمها الى الاعماق لكي يصل الى الجذور ثم البذور التي نبتت منها لغته .

وفي إمكاننا الآن ان نتكهن الى أي مدى سيكون إقبال علماء اللغة من مختلف الامم على تعلم العربية ، بالتفهم الذي ستلجئهم اليه هذه البدعة الترسيسية الصغيرة التي نزجيها هنا الى القارىء الكريم .

ولما كان الترسيس هو الأساس الذي سيقوم عليه علم (نشوء اللغة) وما يتصل به من علوم اللغة ، وبما ان الترسيس سيهدم كذلك بعض النظريات اللغوية السائدة ويجلو بعض الغوامض ويملأ بعض الثغرات في (فقه اللغة) البشري – فاننا نرانا مضطرين الى تصحيح ما قلناه تواً من ان اللغة العربية ستكون أساساً لعلم الترسيس ، فالصواب ان العربية وتطوراتها وتفرعاتها وهجراتها ستكون الأساس المكين لعلم فقه اللغة العالمي العام الذي سيعاد النظر فيه بجملته ومختلف فروعه ويعاد تخطيطه وتشييد صرحه على تصميم جديد من قوانين اللغة العربية وإيحاءاتها .

وسيتضح كم سيرتقي علم اللغة ويصحح الكثير من اخطائه ويقضى على الكثير من تلكئه هنا وتردده هناك ، وبأي سرعة ، حالما يأخذون بسلوك الطريق الاستقرائي العلمي الصحيح في دراسته .. ابتداءاً من اللغة العربية .

نرجو ألاّ يظن القارىء أننا نقول هذا بدافع من وطنية أو قومية أو أي نوع من أنواع العصبية ، فان البحث العلميّ لا يخضع لدوافع من هذا الطراز . وما من عربي أو غير عربي يستطيع اليوم أن يعرف مقدار الدماء الأجنبية في شرايينه عبر ألوف السنين ، ان لم يكن من جهة الآباء فمن جهات الامهات ، وخصوصاً في عصور التسري واختلاط الشعوب بالهجرات والمصاهرات وغيرها. فان كان في الأمر مفخرة فهي ليست للعرب وحـــدهم بل لجميع الشعوب التي يزعم علم الترسيس انها انحدرت منهم او امتزجت بهم .

ومرجع الامر كله على أية حال هو الظروف التي جعلت الصحراء العربية تصون لنا أوائل البدايات اللغوية كما جعلت الأقطار الخصبة المجاورة لها تتلقى الهجرات العربية من قلب البادية وتشيد الحضارات حوالي تلك الرمال في داخل الجزيرة العربية وخارجها ، وتصنع الألفاظ الحضارية والمصطلحات الثقافية الراقية من تلك اللغة البدوية وما تفرع منها من لهجات ولغات .

ونحن شخصياً كنا قبل أن نتمعن في درس العربية نظنها هي التي اقتبست المفردات المهمة المشتركة بينها وبين اللغات الأعجمية القديمة الباذخة ، كما لا يزال يظن سائر اللغويين .. الأعاجم والأعارب .

أسرار الضمائر

خطورة الموضوع :

تبدو صيغ الضمائر – أنا ، أنت ، هو ، إلخ – وكأن كلاً منها عنصر بسيط لا يقبل التجزئة ، كالجوهر الفرد : الذرة . لكن الذرة جزّؤوها أخيراً ، وأي تجزئة مثيرة لاغطة. كذلك الضمائر يمكن اخضاعها لتجزئة لا تقل إثارة ولغطاً، في عالم اللغة . ويخيل لنا ان **تفجير الضمائر** ، الذي نحن بسبيله الآن ، سوف ينسف من عالم فقه اللغة مساحة" أكبر مما نسفته القنبرتان الذريتان من مساحة اليابان ، وأعمق مدى ، وأكثر تشعباً وانتشاراً في مختلف الجهات .

كنا تطرقنا الى موضوع الضمائر في كلمة لنـــا بعنوان « لمحات من التأثيل اللغوي » – في مجلة « اللسان العربي » [1] – غير ان الموضوع من الخطورة والغرابة والامتاع بحيث وجدنا ان تلك « اللمحات » التي لا تشفي الغليـــل لم تزدنا إلا تعطشاً الى استئناف البحث والاستزادة منه تعمقاً واستقصاءاً . وكلما تمادينا فيه تأملاً زادت النفس له تفتحاً وعليه اقبالاً ، وزادنا البحث عطاءاً وحسن جزاء.. كأنه المنجم السخيّ من الذهب كلما أوغلت فيه حفراً زادك مكافأة .

واذا بالبحث في الضمائر يتكشف لنا عن اسرار عجيبة حقاً، ويمزق الحجب عن مخبّآت لا نرانا مغالين اذا قلنا انها مذهلة .

ما خرافة نون الوقاية ؟.. ما سرّ التثنية والجمع السالم ؟.. من أين جاءت حركات الاعراب ؟.. ولام التعريف ؟.. والتنوين ؟.. كيف تميّزت الآريات

---

١ – العدد الرابع : غشت (آب – اغسطس) ١٩٦٦ .

عن الساميّات بأفعال الكينونة في الجملة الاسمية ؟.. بل من أين نبعت الضمائر وأسماء الاشارة .. في الآريات ؟...

هذه الاسئلة الكبيرة جميعها — نعم جميعها — يعطينا درسُ الضمائر العربية الجواب الشافي عنها — وعن غيرها — لأول مرة في تاريخ علم اللغة .

واذا بهذه الضمائر السحرية تضرب بأصولها بعيداً في ماضي اللغة ، وتمتـد فروعها وتتغلغل بعيداً في مختلف ارجاء جسم اللغة كأنها العروق الدموية تمدّه بنسغ الحياة .. حتى لا تكاد تخلو جملة في العربية ، او بنـاتها الساميات .. والآريات .. من أثر لتلك الضمائر او بقية من رواسبها !

واذا بالحقائق المتفجرة التي تجبهنا بها دراسة الضمائر تزلزل اللغات وتذرو الكثير من قواعد علم اللغة وبديهياته التسليمية ، في الريح .. وتفتح لنا آفاقاً من المعرفة وطرائق البحث لم تكن ببال انسان .

وصفوة القول ان موضوع الضمائر هذا أخطر موضوع لغوي عَرَض لنا حتى الآن ، ولعله أخطر موضوع لغوي على الاطلاق .

وها نحن نزجي القول الى القارىء الكريم في هذا الموضوع العريض بما يمكن من ايجاز وما لا بد منه من ايضاح وتعليل .

عناصر الضمائر :

اذا نحن استقرينا الضمائر وتناولناها بالتحليل وجدناها — منفصلها ومتصلها — تتألف من عناصر ثلاثة هي : الهمزة (آ) ، والنون (نا) ، والتاء (تا) .

أما الحروف الاخرى التي نجدها في بعض الضمائر فليست بالاثيلة فيها ، وانما هي زائدة او مُبْدَلة . فالحاء في (نحن) زائدة حشرت بين النونين ، والهاء في (هو ، هما) وغيرهما مبدلة من الهمزة ، والميم في (هم ، أنتما) وغيرهما مبدل

من النون ، والكاف في (عندك ، رأيتكم) وغيرهما مبدل من التاء . وسوف يتوضح هذا شيئاً فشيئاً مع استرسالنا في الحديث ، فلا حاجة بنا الى التوكيد عليه والتبسط فيه الآن ، قبل التحدث عن الضمائر نفسها .

الهمــــزة

كان موفقاً جداً ذلك المثقف العربي القديم ، المجهول ، الذي جعـــل الهمزة أول الحروف العربية ، لانه الصوت الطبيعي الذي ينطقه البشر من جميـــع الأقوام ، منذ أقدم العهود ، فيما يظهر .

ويستعمله الانسان العربي – ما يزال – في التعبير عن مختلف حالاته الانفعالية والبيانية ، من أنين (أه) ، وتعجب (آه !) ، واستزادة (إيه !) ، وضحك (أه ، أه ، أه ..) ، ونداء (آ ، أ ..) ، واستفهام (أ ؟) ، وايجاب مع القسم (إي) ...

حتى بعض الحيوانات تنطق بالهمزة أحياناً عندما تصيح ، فتهمز صوتها ، أي تبدؤه بالهمزة .

همزة التنبُّه والتنبيه :

وقد اعتدنا ان نتحدث عن (هاء) التنبيه في بعض المنـــاسبات اللغوية ، وأصلها (الهمزة) أبدِلت هاءاً ، كما جرى للكثير من الهمزات في العربية ، نعني كما جرى للهمزة في الكثير من الألفاظ العربية ، مثل : هـــات (وأثلها : آت) ، وهَيَا (وأثلها : أيا) ، وهراق (وأثلها : أراق) ..

لكننا لا نذكر اننا سمعنا أحداً يتحدث عن (همزة التنبُّه) . فان الانسان

يقول (آ) كلما باغته شيء – أي نبّهه – من ألم جسمي كوخزة لاسعة ، او انفعال كفرحة مفاجئة او ترحة . لهذا نرى ان بالامكان تسمية هذه الهمزة (همزة التنبّه) .

وقد لحظ الانسان الأقدم انه (ينتبه) اذا سمع أحداً يصيح (آ) ، كما لحظ أنه اذا صاح هو (آ) انتبه له الآخرون . ففطن بعد زمن لا نعرف مقداره الى ان بوسعه ان يستعمل همزة (التنبّه) هذه إرادياً بمعنى (التنبيه) أي استلفات نظر الغير الى نفسه .

ولنفترض انه رأى سبعاً مداهماً او صيداً ملائماً ، فأراد أن ينبّه رفيقه عاجلاً الى الأول ليفرّا منه قبل ان يهاجمهما ، او الى الثاني ليهاجماه قبل ان يفلت منهما . فماذا يفعل؟ حتى أنت وأنا المسلحين بلغة وافرة الثروة نختزل المعجم كله من فرط العجلة فنقول في مثل هذه الحالة الفورية : آ ..

وهي هنا وفي كثير من المواطن الأخرى همزة تنبّه وتنبيه معاً .

لهذا نعتقد انها استُعملت منذ أقدم العهود اللغوية للنداء ، فما النداء في الأصل إلا تنبيه .

النـــداء :

ان همزة النداء ما زالت موجودة في العربية ، بنفسها كما لفظها الناطق الأول : (آ) ، او مُبْدَلَةً ياءاً : (يا) . والواقع ان الحرفين كليهما مستعملان في الفصحى للنداء منفردين ومجتمعين : آ ، أ ، يا ، أيا . وهذه الأخيرة وردت مرخمة بصيغة (أيْ) أيضاً .

وان كانت همزة النداء قد زالت من الدارجات في المشرق العربي وحلت محلها الصيغة اليائية (يا) فانها ما زالت مستعملة في المغرب ، وكان أول ما

سمعناها في الدار البيضاء من رجل ينادي صاحبـــا له على الطـُوَار الآخر من الشارع : آ أحمد .

على ان اختلاف عادات النطق من تغيير حركات اللفظة او إبدال حروفها قد جعل بعضهم ينطقها (او – O) كما في بعض اللغات الأوربية . ومما يدل على عروبة هذه الهمزة المضمومة ان بعض المغاربة كذلك يستعملونها الى جـــانب الهمزة المفتوحة ، وطالما سمعنا العسّاس (حارس العمارة – بتعبيرهم) ينادي ولده بأعلى صوته : او إبراهيم ، كما في الانكليزية والفرنسية تماماً: O Ibrahim !

وأما في الفارسية فهي (أيْ) العربية بذاتها ، المرخمة من (أيا) .

لغـــة الاشارات

والذي يراه علماء اللغة ان الانسان بدأ التخاطب بالاشارات الجسمية من يدويّة وغيرها قبل ان يهتدي الى لغة الأصوات . وقد وجدوا قبائل في بعض القارات ما زالوا الى أوائل هذا القرن يتخاطبون بالاشارات ، حتى لتتعطل عندهم لغة الكلام في الليل ما لم يجدوا ضوءاً يستأنفون فيه مطارحة الاشارات . ولعل بعض هذه القبائل ما زال على ذلك حتى اليوم .

والطفل الذي يعتبر ممثلاً للبشرية في طفولتها اللغـــوية يعمد الى الاشارات بحركات يديه وتقاطيع وجهه تعبيراً عما يشتهي وعما يكره قبل ان يتعـــلم الكلام . وكذلك يفعل الطفل الأصم قبل أن يفطن ذووه أحياناً الى أنه أصم . بل لقد وجدوا حتى القرود تعمد الى الاشارة الجسمية تعبّر بها عن بعض ما تروم .

لهذا يبدو لنا أن الانسان – ولنقل العربي ، لأن حديثنا منصبّ عليه منذ

الآن – عندما فطن الى همزة التنبّه ، ذلك الصوت (الانفعالي) الطبيعي ، وصار يستعمله ارادياً أيضاً في (التفعيل) أي التأثير في الآخرين .. عمد الى مزج لغة الصوت بلغة الضوء ، أي انه صار يقول (آ) لينبه الآخرين الى نفسه ويشير بيده الى شيء ما . وبذلك أصبح هذا الصوت (آ) كلاماً معبراً معناه : هذا .

ولا بد أن ذلك كان احدى بدايات اللغة ، لأننا لا نستطيع أن نجزم ان هذا الصوت أو غيره قد كان البداية الأولى بالذات . بل ربما لم تكن هناك بداية أولى ، وإنما هي بدايات مختلفة ، من أصوات مختلفة ، من أشخاص مختلفين ، في أماكن مختلفة ...

الضمير العام

لنتصور الانسان العربي الأقدم – أم الأصح أن نقول الوحش العربي ؟ – لنتصوره يريد أن يقول (أنا) ، فماذا يفعل وهو لا يملك من اللغة في قاموسه غير صوت (آ) وإشارة يده ؟ انه يقول لصاحبه (آ ..) ليستلفت نظره ، ثم يشير الى نفسه أي : أنا . فاذا قال (آ..) مشيراً الى مخاطبه أو مخاطبيه كان المراد : أنت ، أو أنتما ، أو أنتم . وإذا قال (آ..) وهو يشير الى شخص آخر أو شيء ما ، كان المعنى : هذا ، ذاك ، هو ، هي ، هم ...

ومع توالي الأجيال رسخت هذه الهمزة في الأذهان بهذا المعنى ، وتداوله أفراد – عدد من الافراد – حتى صارت الهمزة تعني أيّ واحد من الضمائر : أنا ، نحن ، أنت ، أنتم ، أنتن ، هو ، هما ، هم ... وأيّ واحد من أسماء الاشارة : هذا ، ذاك ، هؤلاء ، أولئك ...

وبتعبير آخر أصبحت الهمزة (**ضميراً عاماً**) [٢] .

رواسب التنبيه والاشارة :

وعندما ثبت هذا المعنى ، أي هذه المعاني ، للهمزة ، لم تعد إشارة اليـــد ضرورية فتركوها . وقد ساعد على تركها من غير ريب حلول الظلام كل ليلة ، فاستغنى الانسان عن لغة الاشارة اضطراراً واكتفى بالصوت : آ .

غير انه يلاحظ ان الانسان ما زال في كل مكان يشفع الكلام في كثير من الأحيان باشارة يده الى نفسه أو مخاطبه أو غيرهما مع قوله : أنا ، أو أنت ، أو هو .. خصوصاً في حالات التأكيد والانفعال . والانفعال هو الذي يردّ الآدميّ الى عهوده الأولى من تصرفاته الفطرية البدائية ، مما ينبىء أن الانسان قد مارس لغة الاشارة دهوراً مديدة ، حتى أصبحت فيما يبدو غريزية فيه . والواقع انه ليس المقصود بالاشارات الجسمية عند الانسان الحديث هو التأثير في السامع كما قد يتبادر الى الذهن ، لأننا نمارس هذه الاشارات حين لا يرانا السامع أيضاً أي عند التكلم في الظلام أو التحدث في التلفون .

ومن عجب أن الآدمي العربي لم يحتفظ باشارة اليد وحدها مع الكلام بل انه ما يزال يحتفظ باداة التنبيه مع الضمائر بالاضافة الى اسم الاشارة أيضاً ، في بعض التعابير مثل : ها أنا ذا ، ها أنتم أولاء ، ها هي ذي ...

وان كانت (ها) تؤدي معنى خاصاً في هذه الأمثلة فانها فقدت وظيفتها تماماً في أسماء الاشارة مثل : هذي ، هؤلاء ... ففي وسعنا أن نقول : ذي ، أولاء .. دون حاجة الى هاء التنبيه ، وخصوصاً ان أسماء الاشارة الدالة على البعيد مجردة فعلاً من هذه الهاء ، مثل : ذلك ، تلك ، أولئك .

---

٢ – يلاحظ انهم في الانكليزية مثلاً يسمون اسم الاشارة وظرف الزمان او المكان « ضمير » اشارة .

فواضح أن اداة التنبيه وإشارة اليد كلتيهما من رواسب العهـــود اللغوية الأولى ، وأن اسم الاشارة وحده يغني عنهما .

ضمائر الهمزة :

قلنا ان همزة التنبُّه استـُعملت أول الأمر اداة تنبيه ثم اسم إشارة بمعنى : هذا ، ذلك ، أولئك .. وضميراً عاماً بمعنى : أنا ، نحن ، أنت ، أنتم ، هو .. الى آخر الضمائر .

ولسنا من السذاجة بحيث لا ندرك أن أكثر القراء يتهموننا الآن بشطط الخيال والاسراف في الافتراض . لكنا ما قلنا هذا الا وعندنا بعض القرائن المؤيدة نسوقها بين يدي مدّعانا ، ونترك للقارىء اللبيب أن يرى فيها الرأي الذي يشاء . وسنكتم عن القراء الكثير من خيالاتنا المماثلة اذا لم تساعفنا الأدلة – أو القرائن على الاقل – على اثباتها او دعمها ، او إثارة الاهتمام بها والتفكير فيها ...

لا بد لنا ، قبل كل شيء أن نقول ان تقليبنا النظر في اللغة العربية وعلاقاتها باللغات الاخرى قد جعلنا نؤمن بأن هذه العربية العجيبة هي أم اللغات الآرية ، لا الساميّة والحاميّة فقط ، كما سبق أن قلنا أكثر من مرة في فصول بارحة .

لقد لحظ العلماء وجود تشابه بين عدد من لغات البشر في بعض الكلمات الاساسية فقالوا منذ القرن الماضي بنظرياتٍ منها ان الاصل الذي انحدر منه الساميون والآريون كانت له لغـــة بدائية بقيت آثارها في اللغات السامية والآرية ، ومن العلماء من قال أكثر من ذلك : ان لغات البشر أصلها واحد . بيد انهم لم يستطيعوا إثبات ذلك ، ولا عرفوا ما ذلك الاصل الواحد . وبعضهم رفضوا فكرة الاصل الواحد من أساسها ، والذين قبلوها قالوا انه أصل بدائي منقرض انشعبت منه اللغات السامية والآرية ، ولم يعرفوا له زماناً أو مكاناً على

وجه التحديد ، ولا حتى التخمين . وها قد تبيّن لنا مع بالغ الدهشة ان ذلك الاصل الواحد ليس منقرضاً ، وانه لم يكن غير هذه العربية ...

لهذا لا نجد حرجاً ولا مفراً ، من الاستعانة بتلك اللغات الآرية في دراسة نشوء أمّهن العربية ، وتطورها ، وتشعبها .

وقبل ضرب الامثلة على الضمائر التي تكونت من الهمزة ينبغي أن نتذكر ان العادة اللغوية في كل العالم ومنه الجزيرة العربية الشاسعة الاطراف، السحيقة التاريخ ، هي ان تختلف اللهجات وأساليب النطق . والتطور اللفظي في اللغات كلها قائم على هذا وأمثاله من التحريف والتحوير . لهذا لا غرابة أن يختلف نطق الهمزة عند مختلف القبائل والشعوب ، فينطقها بعضهم بالفتح أو الضم أو الكسر ، ويبدلها بعضهم هاءاً ، أو ياءاً ، أو واواً .. أو غير ذلك .

وبرهاناً على ما ذكرنا من أن الانسان العربي الاول استعمل الهمزة ضميراً عاماً للدلالة على مختلف الاشخاص او الاشياء نذكر أن الانكليز مـــا زالوا يستعملون تلـــك الهمزة بصورتها البدائية (آي — I) بمعنى : أنا . وينطقها الايطاليون بكسرة تليها ضمة (إيُو — io) ، أما الاسبان فينطقونها بحذف الهمزة (يو — yo) في بعض اللهجات و (جو — jo) في الفصحى ، بينما ينطقها الفرنسيون (جه — je) . أما (إيكُو — ego) اللاتينية فيظهر انها من (io) الايطالية الآنف ذكرهـــا . وقد ورد هذا الضمير في الصينية — ويا للعجب — بصيغة (وو — wo) !

وهذه كلها تعني ضمير المتكلم (أنا) . أما في الفارسية فتظهر الهمزة بصورة (أو — ù) بالضمة بمعنى : هو ، هي .. وينطقهـــا الأتراك (او o) بضمة ممالة . وأما العرب أنفسهم فينطقونها (هو) ! ونجد ضمير الهمزة في الانكليزية بمعنى (نحن) بصورة (وِي — we) ، وبمعنى أنتم (يُو — you) تقابلها في الفرنسية (ڤو — vous) .

ونجد الهمزة في العربية في أوائل الضمائر : أنا ، أنت ، أنتما ، إلخ .. وأوائل

بعض الأفعال كصيغة المضارع المتكلم (أفـْعَل) ، وصيغ الأمر (إفعـــل ، إفعلي ، إلخ) ... وبعض صيغ الأفعال المزيدة مثل: إنفعل، إفتعل، إستفعل. وقد يستبعد القارىء ان تكون هاته الهمزات في الأفعـــال هي همزة التنبيه البدائية ، فلنترك هذا الآن حتى يحين أوانه وبرهانه .

لكن الهمزة انما تطالعنا كثيراً في العربية بعد ان انقلبت هاءاً ، كما رأينـــا آنفاً في أكثر من موضع . وبسبب اختلاف نطق الحركات فتحاً وضماً وكسراً نطقها بعضهم (ها) وبعضهم (هو) وبعضهم (هي) .. وهي موجودة بهذه الصور كلها في العربية . منفصلة ومتصلة .

أما في حالة الاتصال فنجد الصيغ الثلاث (ها ، هو ، هي) في مثـــل : عندها ، بعدهو (بعده) ، عليهي (عليه) .

وأما في حالة الانفصال فقد سبق ان رأينا (ها) أداةً للتنبيه في مثل : ها ؤم اقرؤوا كتابيه ، ها أنتم أولاء ، هاذا (هذا) ..

وكأنما أفضى تماديهم في استعمالها على هذا النحو لغرض التنبيه الى اهمـــال استعمالها ضميراً منفصلاً .

كذلك وجدنا (هو) ضميراً للغائب في العربية مقابل (او) في الفارسية . أي ان هذه الصيغة الهمزية الفارسية أعرق ، او أفصح، او أعرب ، او ما شئت ان تقول . وتوجد (هو) في الانكليزية بنفس النطق (who) بمعنى : الذي .

هـــي :

أما الذي اندثر قبل ان تعيه المعاجم فيما يظهر فهو ان العرب الأقدمين نطقوا هذا الضمير بصورة (هي) بمعنى (هو) أول الأمر . وبمرور الزمن تخصصت هذه الصيغة بالمؤنث ، كما هي العادة في تخصص الكثير من المترادفات من هذا النوع المتوالد بعضه من بعض. ومن أمثلة ذلك تخصص كل من: القطف، والقصف،

والجدع ، والجذم ، والحسم .. بمعنى نوع معين من القطع ، بينما كان أصل معانيها جميعاً هو القطع بوجه عام .

ودليلنا على ان (هي) كانت تستعمل للمذكر أول الأمر أنها ما زالت تعني المذكر في الانكليزية (هِي – he) أي : هو !

ولعل مما يؤيد ذلك ان هاء الضمير المتصل للمذكر تنطق في العربية أيضاً (هي) مكسورة ، كلما سبقتها ياء ، مثـــل : عليهي ، فيهي ، عينيهي ، يعطيهي .

ولعل مما يؤيد ذلك أيضاً ان البابليين أطلقوا هذا الضمير بصيغة (ايا – Ea) على إلاههم الذكر : الإلاه الماء العذب ، او ماء الغمر . وتوجد في اللاتينية نفس الصيغة (ايا – ea) بمعنى (هي) . أي ان هذه الصيغة الهمزية اللاتينية أفصح.. او أقدم من الصيغة العربية الحاضرة .. لكن الصيغة البابلية أقدم منها .

النون

يطالعنا النون في الضمائر العربية : أنا ، نحن ، أنت (المخاطب والمخاطبة) ، أنتما ، أنتم ، أنتنّ ، هنّ .

ونراه ضميراً متصلاً لجمع المتكلم في مثل : انتظرنا ، دارنا ، نفعل .

أما في الاعجميات فنجده كذلك ضميراً للمتكلمين في اللاتينية (نُوس – nos) : نحن ، ومنه في الفرنسية (نوس – nous) وينطق (نُو) . إلا أنه يظهر ضميراً للمخاطب في الصينية بصورة (ني – ni) : أنت .

وفي الفارسية نجد النون في عدد من الضمائر أيضاً منها (آن) : هو لغـــير العاقل ، أو ذلك للعاقل وغيره .. وفي (آنان) : هم ، أولئك .. وفي (مَنْ –

man) : أنا .. و (مان) : نحن ، ضميراً متصلاً .. وفي (أند – and) : هم ، ضميراً متصلاً كذلك .

أما منشأ هذا النون في اللغة فلا نعرفه على وجه اليقين ، لكننا نخاله من إنغاء الطفل حين يقول : دادادا .. تاتاتا .. نانانا .. وغير ذلك . ويبـــدو أنه اتفق قدوم شخص عند قول أحد الاطفال : ماما .. وقول غيره : بابا .. وقول ثالث : دادا .. وقول رابع : ناتا .. فجعل الكبار يكررون اللفظة للطفل كلما قدم ذلك الشخص أو غيره من الاشخاص أو الاقارب حتى تخصصت الاولى (ماما) مع الزمن بمعنى الأم ، والثانية (بابا) بمعنى الأب ، والثالثة (دادا) بمعنى الاخ وتنطق بالفارسية (داداش) ، وهي موجودة بصيغتها الاولى (دادا) بلغة الموصل وبصيغة (داد) بلغة بغداد – وكلتاهما تستعمل في النداء للتودد . وقد وردت في الانكليزية بالصيغة البغدادية ولكن بمعنى الاب (داد – dad) ومثلها صيغة (دادي – daddy) .

أما (نانا) – وهي موضوع حديثنا – فلعلهـــا استعملت بمعنى بعض الاشخاص او الاقـــارب أول الامر مثل بابا و ماما . غير أن الطفل لا يحسن التمييز بين الاشياء المتماثلة بل كثيراً ما يعمم اللفظ على مختلف المدلولات المتقاربة في ذهنه فيدعو كل الطيور مثلاً حمامة وكل الحيوانات قطـــة وكل الثمار عنباً ، وهكذا . وقد اتفق أني دخلت حانوتاً قبل بضعة أيام فاذا طفل تحمله أمه على ذراعها يمدّ يده الصغيرة الى وجهي قائلاً : بابا ! .. ربما لانه وجدني أشبه أباه في شيءٍ ما ، أو لان كل رجل عنده بابا . لهذا كان من السهل ، بل من المفروض ان يعمم الانسان الاقدم في طفولة اللغة لفظاً كان يعني ضميراً أو شخصاً من الاقارب، على جميع الضمائر والاقارب . هذا بالاضافة الى فقره اللغوي الذي يضطره الى استعمال اللفظة الواحدة في عدة معان .

والذي يجعلنا نظن ان النون قد استعمل بمعنى بعض الاقارب قبل استعماله ضميراً عاماً ، او بالاضافة الى استعماله ضميراً عاماً ، هو اننا نجده ما يزال حتى

اليوم مستعملاً بصيغته البدائية الطفلية (نانا) بمعنى زوجة الاب بلغة الموصل ، وبمعنى الوالدة بصيغة (نينه – nenah) بالمصرية ، وبصيغة (نَنَه – naneh) بالفارسية .

ومهما يكن فقد استعمل النون كذلك ضميراً عاماً كهمزة التنبيه ، منذ سحيق الاحقاب ، وتفرقت صيغه المختلفة في مختلف الضمائر العربية ، مفتوحاً ومضموماً ومكسوراً .

أما مفتوحاً فنجده في (أنا) وفي أول (نحن) . ويجيء (نا) ضميراً متصلاً بالاسم والفعل والحرف مثل : دارنا ، قصدنا ، لنا .

ويجيء مضموماً في آخر (نحن) ، وفي أول بعض صيغ الافعال مثل : نقدم ، نعطي .

نون الوقاية :

ويجيء النون مكسوراً بصورة (ني) مفعولاً به في مثل : يسعدني ، انتظرني ، دعاني ...

وقد ظن النحاة ان الضمير في هذه الامثلة ونحوها هو الياء وحدها لانهم وجدوها وحدها ضميراً في مثل : داري ، يدي ، عندي .

وأما النون هنا فأخضعوه لأحد تأويلاتهم المشهورة فقالوا : ان الغرض منه وقاية آخر الفعل من الكسر ، كأنما كسر آخر الفعل أمر مناقض لنواميس الوجود فلم يجد الاعارب الاقدمون مناصاً من تجنبه في كلامهم ، فاخترعوا النون كالدرع لدرئه .

ان الاسم المعرب يكون مفتوحاً أو مضموماً أو مكسوراً حسب موقعه من الاعراب كما هو معروف ، فلو كان الحفاظ على حركة آخر الكلمة من القداسة

بحيث توهموا لكان ذلك شأنه في الاسم أيضاً لا في الفعل وحده وفي هذه الحالة فقط . ذلـــك ان اضافة الاسم الى هذه الياء نفسها في مثل (داري ، يدي) تسبب كسر آخر الاسم في جميع حالات الاعراب أي انها تلغي سائر الحركات الاخرى ومنها السكون عند الوقف لان الوقف في هذه الحالة يكون على الياء .

يقال جاء أبي ، ورأيت أبي ، ونظرت الى أبي . فلو كان نون (أسعدني ، وانتظروني ، وسمعوني) انما أقحموه غيرةً على آخر الفعل من الكسر ، لكان حقاً عليهم ان يغاروا على آخر الاسم ايضاً فيقولوا بنفس الطريقة : جاء أبوني ، ورأيت أباني ، ونظرت الى أبيني .. أو : أبي (هنا سيّان) .

وأين هم من الوقاية ونونها في الحديث النبوي المشهور : « أوَ مُخْرِجيّ هم » ؟ فلماذا يظنون – النحاة – ان (يخرجون) تحتاج الى وقاية و (مخرجون) لا تحتاج الى وقاية ؟

جماع أمر النحويين في هذا وأمثاله إنما هو ما يسمى بالتعليل بعد الوقوع ، لأنهم طبّقوا نظرية « ليس في الإمكان أبدع مما كان » على اللغة فظنوا كل شيء فيها ينطوي على حكمة بالغة فأجهدوا أنفسهم في التفتيش عنها واخراجها للناس.

على اننا مهما خالفناهم في هذا أو غيره فان ذلك لا ينقص من تقديرنا لهم وإكبارنا لجهودهم في تحرّي الحقيقة بحسب علمهم ووسعهم في ذلك الزمان يوم شقوا طريقاً بكراً في أرض وعرة لم يطرقها أحد قبلهم .

واذا أراد القارىء برهاناً ملموساً على مـــا قلنا ، ذكرنا له ان (ني) يظهر ضميراً في الدارجة السورية ملحقـــاً بحرف الجر مثل : فيني (= فيّ) ، وفي اللبنانية في مثل : بني (= بي) . وعسى القارىء ان يكون قد سمع فيروز ترتل (ما ادري شو بني) !

ونجد برهاناً آخر في الانكليزية التي ورد فيها هذا الضمير بصورة (ِمي) في قولهم : aid me : أيّدني .

والنحويون أعلم أهل الأرض بالمفارقات في قواعد اللغة . ولا يسعنا هنا إلا ان نذكـّرهم بواحدة فقط من تلك المفارقات هي ان العرب قد عبّروا عن الجمع الذكور بصيغة الفردة الانثى يوم قـــالوا بكامل وعيهم وسلامة عقلهم : جاءت الرجال !

وان هذه (التقليعة) لتكفي وحدها لنسف كل تمنطقات النحويين ، وليقولوا في تبريرها ما يقولون . وهي (تقليعة) بالنسبة الى النحويين أنفسهم .. أما في لغة طريقتنا في البحث اللغوي فترجمتها ان هذا التعبير أثارة متخلفة من عهـــد استعمال التاء أداةً للجمع عندما كانت ضميراً عاماً قبل ان تتخصص بالمؤنثة المفردة . وهي هنا أخت التاء في قولهم : العدنانية والقحطانية والخيّـــالة والسيّافة ... بمعنى : العدنانيين والقحطانيين والخيّالين والسيّافين .

من أجل ما تقدم نعتقد ان ضمير المتكلم في « متى أضع العمامة تعرفوني » هو النون ، وان اليـــاء اللاحقة به ليست إلا حركة نطقية جعلته (ني) في (صدّقوني) كما جعلته (نا) في (علمنا) كما جعلته (نو) في (نساعد ونؤيّد) .

وأما ضمير الاضافة الى المتكلم في مثل (كتابي، يدي) فهو ضمير آخر وهو الهمزة المكسورة (إي) ، وهذه أثلها (آ) .

إبدال النون ميماً :

ابدال الحروف ظاهرة لغوية تعتور مختلف الالفاظ في جميع اللغات ، وقد رأينا ان الهمزة أُبدِلت ياءاً وهاءاً . وطبيعي ان لا يسلم نون الضمير من هذه الملة .

ويغلب على ظننا ان كل ميم نجده في أحد الضمائر العربية مُبدَل من النون . ولعل الأمر كذلك حتى في الآريات أيضاً بوجه عام .

ففي الفارسية نجد ان (ما) تعني : نحن ، وأثلها (نا) بدليل ان قولك في الفارسية (بنظر ما) يعني بالدقة (بنظر نا) أي في رأينا .

وفي الانكليزية نجد ان ضمير المتكلم الفرد في حالة الاضافة هو (ماي – my)، وفي حالة المفعولية (مي – me) . وعبارة : aid me (= أيّدني) التي ذكرناها آنفاً ترينا بوضوح كافٍ ان ضمير (مي – me) في الانكليزية هو نفس الضمير (ني) في العربية ، بنفس معناه .

وفي الفارسية (مَنْ – man) يعني : أنا ، وأثله فيما يظهر (مَنْ) بالعربية ومعناه (الذي) للعاقل ، وأثله (نن) . أما (مان) فضمير متصل بمعنى نحن ، في مثل (كتابمان) : كتابنا .

وأما (مان – man) في الانكليزية فيعني الانسان او الرجل . وان شاء القارىء ان يظن ان هذه الصيغة الانكليزية متأثلة من الضمائر ايضاً فلن نعارضه في ذلك ، بل اننا نشجعه عليه ، لاننا مثله لم نسلم من هذا الظن ، ولا سيما ان نفس الكلمة في العربية (مَنْ) تعني كما قلنا (الذي) للعاقل أي لجنس الانسان . واستعمال الفُرس (مَنْ) بمعنى أنا ، و (مان) بمعنى نحن ، بالاضافة الى ورود (مان – man) في الانكليزية بمعنى الانسان والرجل ، ثم (مون – mon) في الفرنسية بمعنى ضمير المتكلم المضاف اليه .. يدل على ان الكلمة كانت ضميراً عاماً أطلق على مختلف الاشخاص .

ونرجح ان استعمال الانكليز (مان – man) بمعنى الانسان والرجل قد بدأه العرب في معربتهم من قديم عهودهم . يدل على ذلك قول القاموس « اذا قلت : مَنْ عندك ، أغناك عن ذكر الناس ، وقوله ان (مَنْ) « تأتي نكرة موصوفة ونكرة تامة » . والنكرة الموصوفة مثل قولك : رأيت مَنْ عالماً في الرياضيات ، بمعنى رأيت رجلاً عالماً في الرياضيات . وأما النكرة التـــامة فكقولك : جاء مَنْ ، ورأيت مَنْ ، ونظرت الى مَنْ .. أي جاء شخص ، ورأيت شخصاً ، ونظرت الى شخص .

وهي تستعمل للاستفهام ايضاً كقولهم : من هو ؟ وقد ثنـّوْها فقالوا : مَنَانَ أنتما ؟ وجمعوها جمع المؤنث السالم فقالوا : مَنَات هنّ ؟.. وجمع المذكر السالم فقال شاعرهم :

أتوا ليلاً فقلتُ مَنُونَ أنتم ؟
فقالوا الجنّ ، قلت عِمُوا ظلاما !

وظاهرة ابدال النون ميماً في الضمائر منشؤها المعربة أيضاً ، ونجدها في ضمائر عربية مختلفة مثل (أنتما) وأثلها (أنتنا) ، و (هم) وأثلها (هنّ) ، وهكذا . . .

يؤيد ذلك لنا ضمير (هم) بالذات ، لأن العراقيين ينطقونه بفتح الميم وتشديده (هُمّ – humma) مثل نطق ضمير (هُنّ) في الفصحى .

ويؤيد ذلك على نحو أوضح وأقطع ان القوم في ديار الشام ما زالوا ينطقون الميم نوناً أثيلا في مثل : أخوكم وبيتكم .. فانهم يقولون : أخوكن وبيتكن . وبدلاً من ضمير (هم) يقولون (هنّ) مع فتح النون المشدّد . والأصح ان نقول ان الفصحى هي التي تقول (هم) بدلاً من (هنّ) !

التـــاء

لسنا نعرف عن أثل التاء (تا) أكثر مما عرفنا عن أثل النون (نا) . والارجح انها مثله من قول الطفل : تا تا تا .. فجزاه الله عن البشرية خيراً .

وقد استعملوا التاء ضميراً عاماً كالنون والهمزة . وهي ما زالت موجودة في العربية متصلة ومنفصلة ، أثيلة ومُبْدَلة . غير انها لا توجد منفصلةً كضمير بل

كاسم اشارة وبصيغتها البدائية الاولى (تا) : هذه . وتثنيتها : تان و تَيْن . ومنها نشأت : تي ، تيك ، تلك . وبابدالها ذالاً نتج منها : ذا ، ذو ، ذي .

وأما ضميراً فتوجد متصلة بالفعل الماضي مضمومةً في فعلتُ (للمتكلم) ، و مفتوحةً في فعلتَ (للمخاطب) ، و مكسورةً في فعلتِ (للمخاطبة) ، و ساكنةً في فـَعَلـَتْ (للغائبة) .. كما توجد في ضمائر أخرى . وتوجد كذلك في أول الفعل المضارع للمخاطبين والغائبات في مثل : تكرم (أنت ، هي) ، تكرمان (أنتما ، هما الغائبتان) ، تكرمون ، تكرمن .

واستعمال التاء ضميراً عـــاماً قد أحدث بعض الخلط في العربية نفسها ، كاستعمال التاء المفتوحة في أوائل الافعال المضارعة بصورة واحدة ومعانٍ مختلفة في قولنا : تذهب (أنت الرجل او هي المرأة) ، وقولنا : تذهبان (أنـــتما الحاضران او هما الغائبتان) . فلا تمكن معرفة عائدية الضمير في هاتين الصيغتين (تذهب وتذهبان) دون قرينة مميزة .

وكما وقع الابدال على الهمزة والنون وقع على التاء . وكما أبدِلت التاء ذالاً فنتجت منها اسماء الاشارة : ذا ، ذو ، ذي .. كالذي قلنا آنفاً .. أبدِلـَت كافـــاً في بعض الاستعمالات فنتج ضمير المخاطب في مثل : رأيتك ، عندك ، كتابك ، اليكم . لكن التاء بقيت تاءاً على حالها في الفارسية في مثل (قـَلـَمـَتْ ، دِيدَمـَتْ) بمعنى (قلمك ، رأيتك) أي ان الصورة الفارسية آثل .

وانما توجد التاء (ضميراً) منفصلاً بصيغتها البدائية الاولى (تا) في الصينية بمعنى : هو ، هي .

وتوجد التاء مضمومة بصيغة (تُو — tu) بمعنى أنت ، في الفارسية . ولا بد ان ذهن القارىء قد انتقل الى هذه الصيغة في الفرنسية ان كان من العارفين بها . فالواقع ان (تو — tu) تعني (أنت) كذلك في الفرنسية والايطالية جميعاً . ويظهر أنها منحدرة من اللاتينية فقد وردت فيها بصيغتي : (تو — tu)

و (توته – tute) . وهي تنطق في السكسونية (ذو – thu) ، ثم صارت في الانكليزية (ذاو – thou) بنفس المعنى .

فهكذا توزع الضمير (تا) على مختلف المعـــاني وتفرّق في مختلف الضمائر والافعال ، كيفما اتفق ، أي بناءاً على الظروف التطورية السانحة ، بسبب تداوله على ألسنة مختلف القبائل مما جعل الكلمة تتطور مستقلة عند كل قبيلة على حدة في حالة افتراقها ، ثم تتفاعل التطورات المختلفة كلما التقت القبائل وتأثر بعضها بلغة بعض . ثم كان ما كان من هجرات الاعارب من المعربة وما حواليها فتفرقت لغاتهم معهم في أقطار الارض .

تركيب الضمائر

المشهور ان الالفاظ السامية مفردة لا مركبة كالالفاظ الآرية . أما ما ورد منها مركباً – أي منحوتاً على تعبير النحويين – من الالفاظ التطورية الجاهلية مثل عبشميّ وحضرميّ ، فقليل جداً . وأمـــا الالفاظ المركبة الاخرى من أمثال : بسملَ وحوقلَ ودَمْعَزَ (= قال : أدام الله عزّك) فاسلامية نحتها القوم بدافع الحاجة فهي ليست تطورية بالمعنى الجاهلي العفوي وإنما هي تطويرية أشبه بالعمل الذي تضطلع به المجامع الآن من وضع الالفاظ للمعاني الجـــديدة استجابةً للحاجة الحضارية المعاصرة .

وخلوّ العربية من التركيب يعدّ عند علماء اللغة من أهم خصائصها وخصائص بناتها الساميّات ، المميزة لها عن الآريات التي دأبت على تركيب اللفظة الواحدة من لفظتين أو أكثر .

لكننا نكتشف التركيب اللغوي في العربية قديماً ، أثيلا جـــداً .. في الضمائر .

أنت :

ان النموذج المثالي للضمير المركب هو (أنت) ، لانه يجمع الضمائر العنصرية الثلاثة (آ ، نا ، تا) بصورتها الاولى دون ابدال أحد حروفها ، ودون زيادة مثل (أنتما) او نقصان مثل (أنا) .

ونجد هذه العناصر الثلاثة بنفس هذا الترتيب في الفرنسية (أنت – ent) ضميراً متصلاً بالفعل بمعنى (هم) في مثل (marchent) : يمشون . ونجده في الفارسية بصيغة (أند) بالمعنى الفرنسي في مثل (بَلْعيدَه أند) : بلعُوا...

نشوء التركيب :

لدينا الآن سؤال : كيف ، ولماذا وقع التركيب في الضمائر ؟

نحسب الاجابة على هذا السؤال ممكنة ومقنعة الى حدٍّ غير قليل .

الذي نعتقـــده ان الضمائر العنصرية الثلاثة – آ ، نا ، تا – لم تظهر الى الوجود في وقت واحد ولا في بقعة واحدة ، وإنما وُلِد بعضها قبل بعض في أماكن مختلفة من المعربة . فلما التقى الفريق الذي استعمل الهمزة بالفريق الذي استعمل النون مثلاً جرى خلط الاثنين فنجم منهما ضمير (آ – نا) بمدّ الفتحة على الهمزة أول الامر . ومن عجب أن هذه الصيغة البدائية الاولى ما زالت حية تُنطـَق في جنوبيّ العراق بمعنى ضمير المتكلم : أنا .. فصدّق او لا تصدق انهم ينطقونها (آنا) ! ولا ندري من أي القبائل تخلـّف هذا النطق . وأما في أواسط العراق فقد تطور هذا الضمير قليلاً فصار يُنطـَق بكسر النون ولو ان الفتحة على الهمزة ما زالت مديدة ، أي : (آني) بلغة بغداد وما حواليها . وأما في الشمال أي الموصل وما جاورها فينطقونها بالصيغة الحديثة أي القرشية (أنا) كما ينطقها معظم العرب اليوم في الدارجات .

ومما يدل على ان هذا الضمير المركب (آ – نا) كان ضميراً عاماً يستعمل في

مختلف المعاني انه يوجد في الفارسية بصيغة (آن) بمعنى (هو) لغير العاقل ، او (ذلك) للعاقل وغيره .

كذلك نجد آثار (آنا) في ضمائر عربية مختلفة المعاني : أنت ، أنتما ، أنتم ، أنتن .. (أي المخاطبين عموماً) .

ويبدو ان قبيلاً ثالثاً ممن يستعملون التاء ضميراً عاماً قد خالط الناطقين بضمير (آنا) فظهر من احتكاكهم ضمير (آناتا) . ودأبت الألسنة على صقل هـذه التركيبة وهندمتها حتى أصبحت (أنت) ! وقد سبق ان اتضح لنا ان هذا الضمير هو الآخر قد استعمل بمعانٍ مختلفة ، أي ضميراً عاماً .

وبنتيجة اختلاطات أخرى كثيرة ومعقدة نشأت بقية الضمائر : أنتما، أنتم.. هما ، هم ، هن .

بواعث التركيب :

ويلوح ان عدة عوامل قد تظافرت على تركيب الضمائر أي خلطها عند اختلاط الناطقين بها . ولعل أهم هذه العوامل هو أكثرها بداهة وبساطة، وهو عدم فهم هـذا الفريق لغة ذاك عند اللقـاء ، مع رغبتهما في التخاطب : الفهم والإفهام . فاذا كان هؤلاء يقولون (آ) وأولئك يقولون (نا) وقد تعايش الفريقان في صعيد واحد ، فالأصوب والأضمن – حين يخاطب أحدهم شخصاً لا يعرف من أي القبيلين هو ، او حين يخاطب شخصين أحدهما من هذا القبيل والآخر من ذاك – هو ان يقول (آ – نا) لكي يفهم المخاطب مراده أيةً كانت لغته .

ولا يحسبنّ القارىء ان تأويلنا هذا ضرب من (شطحات) خيال مغامر ، فان لدينا على هذا القول لبرهاناً من صميم واقعنا العربي المعاصر . ذلك ان لدى العرب – في هذا القرن العشرين – مشكلة لغوية مماثلة .. لم يجدوا لحلها وسيلة

أنجع من تلك الوسيلة البدائية العتيقة .. الأثيلة . تلك هي رغبتهم في التفاهم على ما هم فيه مختلفون من اسماء الاشهر الميلادية مثلاً . فـأهل المعربة والهلال الخصيب يذكرون هذه الاشهر بأسمائها العربية القديمة – البابلية : كانون الثاني ، شباط ، آذار ، نيسان ...

أمـا عرب الشمال الافريقي – من القناة الى المحيط – فيذكرونها بأسمـاء أوربية .

فلما اختلط الفريقان (ثقافياً) على صعيد واحد (من المطبوعات) صارت المجلات مثلاً تسجل تاريخ صدور كل عدد منها باللغتين، فتقول: شهر (نيسان – ابريل) .. لكي يفهم عنها قراء الطائفتين . وكذلك صارت تفعل الاذاعات العربية، ولا سيما الصادر منها عن عواصم غير عربية .. بالضبط كما قال الاعربون الاوائل (آ – نا) ليفهم عنهم المتكلمون بالضميرين !

ولما كانت الاقطار العربية في الشمال الافريقي تختلف فيما بينها في نطق اسماء الاشهر الميلادية الاوربية ايضاً فقد اضطررنا – شخصياً – الى ان نفعل ما هو أدهى من ذلك ، يوم ذكرنا اسم الشهر في احدى المناسبات بثلاث لغـات : (غشت – آب – اغسطس) [٣] !

فهل يحق للقارىء الكريم ان يتعجب – او يحق لنا شخصياً على الاقل، بعد ان اقترفنا هذه التركيبة ان نتعجب – من تركيبة : آ – نا – تا (أنت) ؟

ولعل من أسباب تركيب الضمائر ايضاً ان بعضها استعمل بمعنى غير معنى الضمير ، كالهمزة التي استعملوها كما قلنا للتنبيه والنداء والاشارة . وعلى هـذا يحتمل ان الهمزة في (آ – نا) كانت تعني التنبيه فأضيف اليها النون ليؤدي معنى الضمير ، كما هي الحال في تركيبة : هاذا (هذا) ، حيث تؤدي الهـاء معنى التنبيه و (ذا) معنى الاشارة .

---

٣ – مجلة « اللسان العربي » – العدد : ٤ لسنة ١٩٦٦ . حاشية ص ٨ . وذلك مـا فعلناه في هذا الكتاب أيضاً في الحاشية رقم : ١ ، آنفاً من هذا الفصل ص ٢٤٧ .

كذلك يجب ان نضيف الى السببين الآنفين سبباً ثالثاً لتركيب الضمائر هو (التكرار) لغرض التأكيد مثلاً كالذي نجده صريحاً في أداة النداء (أيا) التي هي في الواقع (أ ، يا) ، وكل من جزأيها يغني غَناء الآخر ، ثم صار التخصص بمعنى القريب والبعيد . وقد يكون الغرض من التكرار هو الجمع كالذي سيأتي ايضاحه في أوانه .

وقد أدّى التركيب أحياناً الى تكرار الضمير نفسه بمعانٍ مختلفة مثـــل (إيّاي) وهي تركيبة من : (إي ، يا ، يا) .. وكلها أثلها : آ ..

ونعيد الآن ما سبق أن نوّهنا به من أننا لا نقصد أن ثلاث طوائف من البشر كل منها يتكلم بأحد الضمائر قد اجتمعت في مكان واحد في وقت واحد فالتقت الضمائر العنصرية البسيطة في ضمائر مركبة ، لكن الاغلب ان ذلك قد جرى في أكثر من مكان . وإن استعراض ضمير مطوّل مثل : أنتما (أ ، ن ، تو ، ما) ليساعدنا على ادراك هذه الحقيقة . فالظاهر أن النصف الاول من هذا الضمير (أنْ) قد نشأ على حدة في مكان ، والنصف الثاني (ـ تُما) قد نشأ على حدة في مكان آخر ، ولعل النون قد أبدِل ميماً في مكان ثالث . ونجد النصف الاول في العربية بصيغة (أنْ) المصدرية مثلاً .. وبصيغة (آن) في الفارسية كالذي سبق ذكره .. ونجد النصف الثاني (ـ تُما) في العربية ضميراً متصلاً بمعنى أنتما ، في مثل : (تأخرتما) .. ونجده في الفارسية بصيغة (شُمَا) بمعنى أنتما و أنتم .

هذا عدا الاماكن الاخرى التي غيّرت حركات (آ ، نا ، تا ، ما) حتى كان الحاصل النهائي (أنتما) .

تحليـــل الضمائر

فما دامت الضمائر مركبة فان خير ما نفعله بها لنتمكن من حلّ طلاسمها والنفاذ الى صميم أسرارها هو أن نخضعها للتحليل فنردّها الى عناصرها البسيطة ، البدائية الثلاثة ، التي لا تقبل التجزئة لان كلاّ منها لا يزيد في النطق عـــلى مقطع واحد : آ ، نا ، تا .

الضمائر المنفصلة :

وإليك تحليل الضمائر المنفصلة :

أنا = آ + نا

نحن = نا + ح (زائدة) + نو (أثلها : نا)

أنتَ = آ + ن ، نا + تا

أنتِ = آ + ن ، نا + تي ، تا

أنتما = آ + ن ، نا + تو ، تا + ما ، نا

أنتم = آ + ن ، نا + تو ، تا + م ، ن ، نا

أنتنّ = آ + ن ، نا + تو ، تا + ن ، نا

هو = او ، آ + آ

هي = اي ، آ + آ

هما = او ، آ + ما ، نا

هم = او ، آ + م ، ن ، نا

الضمائر المتصلة :

وأما الضمائر المتصلة فهكذا تحليلها في الفعل الماضي :

ذهبتُ (أنا) = ذَهَبْ + تو ، تا .. (تو = أنا)

ذهبنا = ذهبْ + نا .. (نا = نحن)

ذهبتَ = ذهبْ + تا .. (تا = أنتَ)

ذهبتِ = ذهبْ + تي ، تا .. (تي = أنتِ)

ذهبتما = ذهبْ + تو ، تا + ما ، نا .. (ُتما = أنتما)

ذهبتم = ذهبْ + تو ، تا + م ، ن ، نا .. (ُتم = أنتم)

ذهبتنّ = ذهبْ + تو ، تا + ن ، نا .. (ُتنّ = أنتن)

ذهبَ = ذهبْ + آ .. (أ = هو)

ذهبا = ذهبْ + آ .. (آ = هما الذكران)

ذهبوا = ذهبْ + أو ، آ .. (أو = هم)

ذهبَتْ = ذهبْ + آ + ت ، تا .. (أتْ = هي)

ذهبَتَا = ذهبْ + آ + تا .. (أتا = هما الأنثيَان)

ذهبن = ذهبْ + نا .. (نَ = هنّ)

وأما الضمائر المتصلة بالفعل المضارع فيتألف كل منها من جزأين أحدهما في أول الفعل والثاني في آخره ، وهكذا تحليلها :

أفعل (أنا) = آ + فعلْ + او ، آ

نفعل = نا + فعل + او ، آ

تفعل (أنت ، هي) = تا + فعل + او ، آ

تفعلين = تا + فعلْ + اي ، آ + نا

تفعلان = تا + فعلْ + آ + ني ، نا

تفعلون = تا + فعل + او ، آ + نا

تفعلن = تا + فعل + نا

يفعل = يا ، آ + فعل + او ، آ

يفعلان = يا ، آ + فعل + آ + ني ، نا

يفعلون = يا + فعل + او ، آ + نا

يفعلن = يا ، آ + فعل + نا

وأما الضمائر المتصلة بالاسماء إضافةً و بالحروف جراً فيمكن تحليلها على هذا المنوال :

عندي = عندْ + إي ، آ

عندنا = عند + آ + نا

عندك = عند + آ + كا ، تا

عندكا = عند + كو ، تو ، تا + ما ، نا ... إلخ .

صيغة الامر :

أما أفعال الامر فتسبقها الهمزة دائماً إن كان الامر مباشراً اي موجهاً الى المخاطب . وأما أمر المتكلم والغائب بواسطة اللام فخارج عن موضوعنا الآن :

إفعَلْ (انت) = اي ، آ + فعلْ

إفعلي = اي ، آ + فعل + اي ، آ

إفعلا = اي ، آ + فعل + آ

إفعلوا = اي ، آ + فعل + او ، آ

إفعلن = اي ، آ + فعل + نا

ولئن كانت همزة الأمر مكسورة هنـــا فهي مضمومة في مثل : أنظرْ ، أنظري ... وعندئذ يكون تحليلها : أنظر = او ، آ + نظر ... إلخ .

وقد جزموا آخر فعل الامر فلم تظهر عليه حركة ، من باب الاستعجال ، رغبةً منهم في سرعة إنفاذ الامر ، ربما منذ عهود الغاب بأخطارها ووحشيتها. فمن أجل ذلك حذفوا النون من أواخر صيغ المضارع المنتهية به مثل : تفعلين ، تفعلان ، تفعلون . فبدلاً من القول (أهربين ، إسمعان ، إضربون) قالوا : (اهربي ، إسمعا ، اضربوا) استعجالاً أو عنفاً . والظاهر ان النون كان موجوداً في هذه الافعال أولاً ، ثم زال . وأما صيغة (تفعل انت) فقد كان تخفيف صيغة الامر منها (إفعلْ) بحذف الضمة من آخرها فحسب ، كما يجري عليها عند الوقف ايضاً .

وأما صيغة (إفعَلْنَ أنتنَّ) فلم يحذف نونها الكيلا تلتبس بصيغة المفرد المذكر (إفعَلْ انت) ، ولو أن عامل تجنب اللبس لم ينجع في مواطن اخرى . لكن ربما كانت بعض المشاكل الغابيّة قد نجمت من مثـــل هذا الالتباس فاضطروا الى الاحتفاظ بالنون .

وأما إلحاق النون بصيغة أمر المخاطب (إفعَلَنْ) فيظهر كأنه مناقض لهذه القاعدة ، إلا ان قليلاً من التمعن يرينا أن التأكيد ، لا الاستعجال ، هو المقصود في هذه الصيغة . فمن أجل هذا أسماه النحويون نون التوكيد . وقـد جاء هذا التوكيد على درجتـــين : خفيفة بتسكين نون (إفعَلَنْ) وشديدة بتشديده : (إفعلَنَّ) .

الضمائر المستترة

وقد تتشابه الضمائر في أوائل الافعال كالياء في : يفعل ، يفعلان ، يفعلن .. وكالتاء في : تفعل (انت ، هي) ، تفعلان (انتما ، هما) ، تفعلون ، تفعلن .

ومهما يكن فان النحاة لم يعتبروها ضمائر متصلة ، ولا سيما انهم وجـــدوا لحسن حظهم ضمائر غـــير متشابهة في اواخر الافعال ، كل واحد منها له لفظ خاص ومدلول معين . لكن جابهتهم مشكلة فقدان مثل هذه الضمائر المتميزة في بعض الافعال مثل : أفعل (أنا) ، تفعل (أنت ، هي) ، فـَعَلَ (هو) .. فكان منهم ان حلـّوا المشكلة بقولهم ان فاعل الفعل ضمير (مستتر) تقديره : أنا ، او أنت، او هو، او هي .. ولم يخطر لهم ، والحق معهم في ذلك الزمان ، ان الهمزة والتاء والياء والنون في اول الفعل ، وأن الفتحة والضمة والكسرة في آخره ، إن هي إلا بقايا متنكرة ، لكن غير مستترة ، تمثل ضمائر مندرسة ، كقطعةٍ من فكٍّ يجدونها في كهف قبتاريخي ليستدلوا بها على آدميٍّ كهفيٍّ قديم .

تخصّص الضمائر

لا شك ان الأعرب الغابيّ قد خالجه سرور كثير يوم اكتشف او تعلم (آ)، فصار يستعملها للتعبير عن شؤون مختلفة من حياته ما كان يعرف سابقاً كيف يعبر عنها . ومثل ذلك يمكن أن يقال عن كل من (نا) و (تا) ، لاننا نعتقد كما قلنا ان كل رهط من أهل المعربة كان أول الامر يستعمل واحداً من هذه الضمائر الثلاثة اهتدى اليه حسب ظروفه الزمكانية .

ولعل فرح كل رهط منهم بكلمته السحرية تلك ، التي فتحت له عالماً جديداً

شائقاً من التفاهم والتكاشف ما كان يقل عن فرح الانسان الحديث عنـــدما اكتشف التلفون !

غير أنه – الانسان القديم – اضطر الى استعمال الواحد الذي يملكه من هذه الضمائر الثلاثة الجذرية بمعنى الضمـــير العام كالذي أوضحناه ، للدلالة على كل الاشخاص والاشياء وأسماء الاشارة والموصولات وأدوات النداء والاستفهام والايجاب .. وشؤون اخرى . وسبب ذلك طبعاً هو فقره اللغوي المدقع قبل اهتدائه الى ألفاظ اخرى يستعمل كل واحد منها لواحد من تلك المعاني الكثيرة .. اشبه بالراعي الذي يملك من دنياه عصاه يحمل عليها متاعه عند المسير ، ويتوكأ عليها عند التصعيد في الآكام ، ويركزها في الارض ليستظل تحتها بعباءته عند الهاجرة ، ويهشّ بها على غنمه .. وله فيها مآرب اخرى .

واذا عدنا الى المقارنة مع انساننا المعاصر قلنا ان عربي الغابة استعمل الضمير العام شبيهاً باستعمال الانسان الحديث تلفونه الثمين الذي فتح له أفقاً رائعاً من التواصل والتفاهم حتى ان اكثر الذين حصلوا على الجهاز لأول مرة ، ان لم نقل كلهم ، جعلوا يحدثون به هذا وذاك من اقاربهم واصدقائهم ومعارفهم لا لضرورة لكن لمجرد التمتع بهذه البدعة الحضارية (اللغوية) ! ومن الطبيعي ان هـــذا الانسان الحديث ، الساحر ، المسحور ، استعمـــل التلفون اول الامر لمختلف انواع مخابراته ، القريب منها والبعيد ، قبل اهتدائه الى المحضار (الجهاز الذي يخاطب به الرئيس مرؤوسيه وهم في حجراتهم كأنمـــا يستحضرهم به) ، واللاسلكي ، والمشواف (التلفزيون) ، و المنذار (الرادار) – التي اصبح يستخدم كلاً منها للغرض الملائم ، كما استخدم جـــدّه المعربي كلمة (آ) لمختلف الاغراض قبل ان يكتشف : أنا ، أنت .. ذاك ، اولئك ...

وتخصص الضمائر من احسن الامثلة للتخصص التطوري في اللغة ان لم يكن أحسنها . تُستعمل كلمة في معنى عام ، ثم يظهر لها مرادف فيتخصص احد المترادفين بجزء من ذلك المعنى العام . وكلما ظهر مرادف آخر تخصص بجزء

آخر منه .. مثل تخصص المحضار والمنذار واللاسلكي والمشواف كل في نوع معيّن من انواع الخطاب .

فاذا تمّت معاني الاجزاء كلها وظهر مرادف جديد ، لم يجد له معنى سائباً يتخصص به فيبقى مرادفاً ، وما أكثر الامثلة على ذلك .

ومن التخصص مثلاً : تيك و تلك ، فهما صيغتان مختلفتان مبنىً متفقتان معنىً ، لكن القوم مع انهم قد استوفوا أسماء الاشارة فخصّوا كل واحد منها بلفظة تدل عليه ولم تَعُدْ بهم حاجة الى آخر ، خصصوا من باب الترف اللغوي صيغة (تلك) بالانثى البعيدة و (تيك) بالانثى المتوسطة .. على قول النحاة .

وللتخصص في اللغة طرائق أخرى ليس هنا مكان البحث فيها .

ان أهم العوامل التي ساعدت على تكاثر الضمائر وتنوّع صيغها هو (الاختلاط) الذي أدى الى (التركيب) كالذي قلنا .

وثمة عامل آخر هو (الابدال) أي تغيير بعض حروف الضمير ، مثل ضمير (هنّ) الذي قلنا انهم أبدلوا نونه ميماً فصار (هم) وتخصص كل منهما بمعنى .

وثمة عامل ثالث هو (اختلاف نطق الحركات) فتحاً وضماً وكسراً كما تقدم بنا ، فتخصصت كل حركة بضمير ، وأبسط مثال على ذلك وأوضحه التاء في : فعلتَ بالفتح (أنتَ المخاطب) ، وفعلتُ بالضمّ (أنا) ، وفعلتِ بالكسر (أنتِ المخاطبة) ، وفعَلَتْ بالتسكين (هي) .

بل ان مجرد الاختلاف في اطـــالة الحركة او تقصيرها قد يسبب احداث ضمير جديد ، مثل : سمع وسمعا ، ومثل : ذهبن وذهبنا ، ومثل : يَذهب ويذهبوا (في حالة الجزم) .

صيغ المجهول

وكان من أشكال التخصص المتنوعة ان بعض الضمائر ، المتصلة في أوائل الافعال ، تخصصت بمعنى الفعل المبني للمجهول . ونشأت صيغ المجهولية لأن بعضهم نطق الفتحة في أول الفعل ضمة مثل : أرى ، نسمع ، يَضربون – التي نطقها بعضهم بفتح أول الفعل ونطقها بعضهم بضمّه ، فتخصصت الصورة الثانية بمعنى المجهولية .

أما نطق بعض الفتحات ضمّات فليس بالمستغرب في العصور الاولى ما دام بعض العرب يمارسه حتى اليوم . فالسوريون وغيرهم من بعض العرب ينطقون اسم (بغداد) على شهرته بضم الباء بدلاً من فتحها . بل ان بعض العامة وأشباه العامة من العراقيين أنفسهم ينطقون اسم وطنهم (العراق) بضم العين !

تبـــاين الضمائر

على ان الجماعات العربية لم تتفق قط في تخصيص الضمائر وتحديد وظيفة كل صيغة منها ، إلا في الفصحى ، أي بعد جمع مفردات اللغة وتثبيتها في المعاجم . وأما في الدارجات فلم تتفق حتى هذه الساعة .

ففي المغرب يقولون (نفعل) وهم يقصدون (أفعل) . نعم انهم يقولون (أنا نبغي) أي : أنا أريد . فأما اذا أرادوا جمع المتكلم حقاً قالوا : نبغيو ، نقولو ، نمشيو ...

وفي سوريا والمغرب يقولون (انتي) وهم يقصدون المخاطب الذكر .. هذا بالاضافة الى قول السوريين (هنّ) بمعنى (هم) . والعرب عموماً مـــا عادوا

يفرّقون بين التأنيث والتذكير في هذا الضمير ، غير انهم على عكس السوريين يقولون (هم) بمعنى (هنّ) .

وأما المصريون فيستعملون الميم بدل الواو في مثل : راحوا ، أكتبوا ، ناموا .. ينطقونها : راحُمْ ، أكتبُمْ ، نامُمْ .

وأما العراقيون فعلى العكس من ذلك يستعملون الواو بدل الميم في مثل : أنتم ، رحتم ، جيتم .. ينطقونها : أنتو ، رحتوا ، جيتوا . كذلك يقول العراقيون مثلاً (اسمعا) بمعنى (اسمعه) بلغة بغداد ، وبمعنى (اسمعها) بلغة الموصل ، وهذه الاخيرة لغة برّ الشام .

وجميع العرب فيما يظهر صاروا يعاملون المثنّى معاملة الجمع الآن في مثل : قالا ، يأمران ، أكتبا .. فينطقونها : قالوا ، يأمرون ، أكتبوا .

ولا بد ان أمثال هذه الاختلافات والتطويرات كانت أكثر تنوعاً وأكبر عدداً في غابر الزمان ، قبل ظهور الفصحى المشتركة .

وبسبب كثرة الهجرات القديمة من المعربة الى الاراضي المجاورة وما يليها ، من مختلف القبائل ، وفي مختلف الظروف والاوقات ، كان من الطبيعي ان نجد الضمائر العربية في الاعجميات ايضاً مختلفة المعاني أحياناً ومختلفة المباني أحياناً . وبتعبير آخر ان كلاً من الضمائر الآرية يمثل احدى القبائل العربية القديمة ، كما ان اختلاف العرب اليوم في مباني الضمائر او معانيها يعني ان كلاً منها يمثل احدى القبائل العربية القديمة . (باستثناء ما طرأ عليها بعد ذلك من تطور طبعاً) .

ولنأخذ أهم الضمائر وأكملها من الناحية التركيبية لانه المركب المشترك الاصغر ، وهو (أنت) فهو في العربية — الباقية — ضمير المخاطب الفرد . وهذا الضمير رأيناه يطالعنا في الفرنسية بنصّه وبنفس ترتيب حروفه بصيغة (ent —) ضميرا متصلاً بالفعل للجمع مثل : (aident : يؤيّدون) ، كما رأيناه في الفارسية بصيغة (اند) وهو يستعمل بالمعنى الفرنسي مثل : مَكيدَنْدْ

(= مَكـُّوا ، والمَكُّ هو المصّ) ، ومِيمَكـَنـْدْ (= يمكـُّون ، يمصون) . وتكون همزة الضمير (اند) أظهر في مثل صيغة : مَكِيدَه أنْدْ (= مكـُّوا، في زمن مضى) .

كذلك يختلف معنى ضمير (هو) في الانكليزية عنه في العربية . فقد وجدناه فيها بنفس اللفظ (who) لكن بمعنى : الذي . كذلك بصيغة (هي — he) التي قلنا انها تعني في الانكليزية (هو) . وسوف يمرّ بنا الكثير من النماذج المماثلة حين نستعرض الضمائر في العربية وبعض الآريات تحت عنوان (معانٍ أخرى) ، ونطـّلع على ما بينها من توافق وتباين .

توَحُّـــد الضمائر

وعندما ظهر الاسلام كانت اللغة العربية تجتاز مرحلة تطورية معينة لهـا خطورة خاصة ، حيث كان الشعر السائر والامثال المتداولة المتبادَلة والخُلطة في الحج والاسواق العامة ونحوها قد بَلـْوَرت لغة (فصحى) مشتركة بين مختلف القبائل والبطون ، غير لغة التخاطب المحلي او القبَليّ . وكانت تلك الفصحى تتألف بوجه عام من لغــات بعض القبائل التي كانوا يعدّونها أفصح العرب من سعدٍ وهذيل وتميم .. وكانت تغلب عليها — أي الفصحى — مسحةٌ قرشية بوجه عام ، لاجتماع العرب سنوياً بمكة للحج ولشهود (معرض دولي) يشارك فيه العرب من كل صوب باسم سوق (عــكاظ) . وقلّ من المعارض الدولية اليوم ما يُعنَى بالآداب وفنونها عناية سوق عكاظ بها . فقد كان القوم يتبادلون فيها الى جانب عـُرُوض التجارة ما لا نظير له اليوم في أية عاصمة كبرى من (عـُرُوض) الادب شعراً وخُطـَباً ومواعظ ومفاخرات ومناجزات وكل ما لديهم من أفانين منتجات الكلمة مع مختلف شؤون السياسة والاجتماع والدين.

وقد كان من الاسلام ان أضفى على تلك (الفصحى) العربية صبغة رسمية لظهوره في بؤرة إشعاعها (مكة) ولنزول القرآن بها على الاخص ، فحفظه المسلمون في جميع انحاء الارض العربية وتعلمه حتى الصبيان الذين استقامت ألسنتهم عليه الى ان شبُّوا وشابوا . ثم جاءت العناية باللغة جزءاً من العناية بالدين فتناولوها جمعاً وتدويناً ودرساً وتحقيقاً وتنسيقاً وتقنين قواعد صرف ونحو .. حتى ثبتت القواعد والالفاظ ومنها الضمائر على النحو الذي وعته المعاجم وكتب اللغة .

وقد أدّى ذلك الى أمرين : أحدهما وقف حركة ذلك التطور اللغوي الجاهلي العفوي وإحلال تطور ثقافيّ حضاريّ في محله أقرب الى العمدية والتناسق . والثاني ان الجمّاعين والمدوّنين اللغويين أنفوا من كل ما لم يعدّوه فصيحاً من لغات القوم الكثيرة ولا سيما اللغات التي سمّوها نبطيّة ومولّدة ونحوها ، وبذلك توحدت اللغة وثبتت .. فكان ذلك خسارة كبرى لدارس اللغة وبركة كبرى للثقافة والادب .

الضمائر المتصلة

يظهر ان الأعربين استعملوا الضمائر منفصلة أول الأمر فقالوا : ذهب أنتم ، ذهب هما ، ذهب هنّ .. ثم التصقت الضمائر بالافعال فقيل في حالة الفاعلية : ذهبتم ، ذهبا ، ذهبن . والواقع ان بعض الضمائر المتصلة ليست الا اختزالاً للضمائر المنفصلة كما في هذه النماذج ، او إعادةً لها بنصّها كضمير (هو) في قولهم في حالة المفعولية : رأيتهو (رأيته) ، وكضمير (هما) في : (رأيتهما) ، و (هنّ) في رأيتهن ، و (هم) في : رأيتهم .

ولعل بعض الاقدمين ألحقوا ضمير (هم) مثلاً بالفعل اللازم فقالوا (نام هم) بدلاً من (ناموا) ، لكن هاء (هم) خُفّفت مع الزمن فنشأ النطق المصري

الذي نوهنا به : (عرفُمْ ، نامُمْ ، راحُمْ) أي النطق اليعربي المندرس فيما يبدو ويمثله النطق المصري الراهن . وبعد تخفيفٍ آخر زال الميم ايضـاً وبقيت الضمة وحدها فنشأ نطق الفصحى : عرفوا ، ناموا ، راحوا .

ومهما يكن فان قاعدة إلحاق الضمير بالافعال مختزلاً او معاداً قد اختلـّت فلم تعد قياسية ، ففي قولهم (رأيتها) كان ينبغي ان يعيدوا ضمير (هي) فيقولوا (رأيتهي) ، او يختزلوه فيقولوا : (رأيتي) . لكنهم لم يفعلوا .

كذلك ضمير (هو) الذي استعملوه متصلاً في حالة المفعولية مثل (رأيتهو) لا نجده متصلاً في حـالة الفاعلية فلم يقولوا (ذهبهو) بل (ذهب) . وأغلب الظن ان هاء (هو) قد ذابت تخفيفاً فصار الفعل (ذهبو) ، ولما كانت هذه الصيغة تشبه قولهم (ذهبوا) بمعنى الجمع فقد انبرت قاعدة تجنب اللبس وأفسحت المجال لضمير (آ) الذي كان يَنْطق به بعض الاعربين فراجت صيغة (ذهبَ) بفتح الباء للفرد و (ذهبا) بفتحها ومدّها للاثنين .

وهذا كله عن صيغة الماضي ، فأمـا المضارع فقد استأثر فيه ضمير (أو) بجميع صيغ المفرد هـذه : أذهبُ أنا (= أذهبْ + أو) ، تذهبُ أنت ، يذهب ، تذهب هي .. وصيغة الجمع : نذهب .

وبدلاً من التحدث عن كل ضمير على حدته نؤثر ان نعرض الضمائر المنفصلة كلها لنظر القارىء الكريم مع مـا يقابلها من الضمائر المتصلة في صيغ الماضي والمضارع وأمر المخاطبين ، تاركين له التمعن فيها وملاحظة ما يجري منها على قاعدة وما يجري منها على مصادفات الاعتباط التطوري :

أنا : ذهبتُ ، أذهب

نحن : ذهبنا ، نذهب

أنتَ : ذهبتَ ، تذهب ، إذهَبْ

أنتِ : ذهبتِ ، تذهبين ، إذهبي

أنتما : ذهبتما ، تذهبان ، إذهبا

أنتم : ذهبتم ، تذهبون ، اذهبوا

أنتنّ : ذهبتن ، تذهَبن ، إذهبن

هو : ذهب ، يذهب

هي : ذهبتْ ، تذهب (مثل المخاطب)

هما : ذهبا ، يذهبان

هما : ذهبتا ، تذهبان (مثل المخاطـَبين أنتما)

هم : ذهبوا ، يذهبون

هن : ذهبن ، يذهبن

حركات الاعراب

الزائد اللغوي :

يظهر ان كل نوع من انواع التطور يترك وراءه مخلفات من الرواسب . ومن نماذج رواسب التطور في عالم الأحيائيات أرجلٌ صغيرة خفيّة لثعبان البوأة تحت الجلد لا تبين ولا تعمل ، وغلاصم للانسان يقول التطوريون انها من بقايا مرحلة الحياة المائية .

وما أكثر الرواسب في حياة البشر الاجتماعية في كل بيئة متطورة مما يسمى

بالتقاليد والعرف والعادات تخلفت من آثار عهود سابقة ، اشبه ببقايا الماء في الحُفَر يتركها وراءه السيل الذاهب .

واللغة – كائناً حياً متطوراً – لا تشذّ في هذا الباب عما يجري في عالم الاحيائيات وعالم الاجتماعيات ، ولا سيما ان اللغة كيان حيّ من جهة واجتماعي من جهة .

ومن الرواسب اللغوية زوائد متخلفة من عهد تطوريّ كانت لها فيه وظيفتها ، ثم تقلبت الاحوال ففقدت وظيفتها او اعتاضت عنها بغيرها . وأشهر نموذج لهذا في العربية (ما) الزائدة بعد (اذا) . وهي تكون زائدة كذلك عند وقوعها بعد ألفاظ اخرى فلا تغيّر شيئاً من معانيها ولو انها تغيّر حكم بعضها في الاعراب ، فهي تكفُّ بعضها عن العمل مثل (كي) الناصبة تكفُّها عن النصب اذا صارت (كيما) ، وتحرّض بعضها على العمل مثل (حيث) التي لا عمل لها تجعلها جازمة اذا صارت (حيثما) ، وتترك بعضها على حالها فلا تكف العاملة مثل (أين) الشرطية فلا تمنعها من الجزم اذا صارت (أينما) ومثل (حين) العاطلة فلا تكسب عملاً اذا صارت (حينما) . لكن يلاحظ ان المعنى في جميع هذه الالفاظ لم يتغير بعد دخول (ما) عليها .

واذا اعتبرنا اصل وظيفة (ما) هو الموصولية بمعنى (الذي) لغير العاقل ، فهي في هذه الشواهد قد فقدت هذا المعنى تماماً وبقيت بلا معنى . على انها في شواهد اخرى قد استعاضت عن وظيفتها المفقودة وظائف جديدة في مثل : لمّا ، طالما ، ما دام ...

وهذا عين ما يجري في عالم الاحياء ، فبعض الرواسب التطورية ، اي الاعضاء الأثرية ، تفقد عملها تماماً كأرجل ثعبان البوأة ، وبعضها تستبدل وظيفة جديدة بوظيفتها المفقودة ، كالموظف المحال على التقاعد يفقد عمله المألوف فيجد لنفسه عملاً آخر يلائمه في ظروفه الجديدة ليملأ به أيامه ، ومثل ذلك ما

فعلته غلاصم الانسان إذ أصبحت تحتكر الجراثيم وتكافحها لتخفيف وطأتها عن الجسم .

شين النفي :

ولعل احسن نموذج للزائد اللغوي المعاصر ، في الدارجات العربية ، هو الشين الملازم للنفي في الجملة المغربية والمصرية : مش ناسي ، ما اعرفشي ...

وأثل هذا الشين هو كلمة (شيء) لحقت اولاً بالفعل المتعدّي المنفي لغرض التوكيد فقالوا : ما اعرف شي ، ما قال شي ، ما اكلوا شي ...

وهذا ما لا يزال سائر العرب يقولونه لكنهم يقصدون معنى (شيء) حقيقةً ، اي انهم يريدون ان يقولوا : لا أعرف شيئاً ، ما قال شيئاً ، ما أكلوا شيئاً .

أما في المغربية والمصرية فالمقصود بتلك التعابير وأمثالها مجرد النفي اي : لا اعرف ، ما قال ، ما أكلوا . وبعبارة اخرى ان هذا الشين قد فقد معناه تماماً في الدارجتين المصرية والمغربية وأصبح (زائداً لغوياً) .

فكيف حدث هذا ؟ الواضح أن كثرة استعمال كلمة (شيء) مع الفعل المتعدي المنفي لغرض التأكيد جعلتها تلتصق به وتعمّ كل تعابير النفي ولو لم يقصد بها التوكيد . ثم تعمّ ثانية فتشمل حتى الفعل اللازم الذي لا يجوز ذكر (شيء) معه بصفته مفعولاً به ، مثل : ما جاشي ، ما يروحشي ، ما يمشيش ، ما يصحّش . ثم تعمّ مرةً ثالثة لتشمل جميع حالات النفي حتى في التعابير التي لا فعل فيها ، وعندئذ تلتصق (شيء) بالحروف أو غيرها من الادوات في التعابير غير الفعلية : مش انا ، مش عارف ، ما عندناش ، ما لوش دعوة . وتختلف استعمالات (الشين) في المغربية عنها في المصرية ، وليس هنا مجال التوسع في ذلك .

وبعد ان فقدت كلمة (شيء) معناها على هذا الوجه اضطروا – الناطقون بالشين – الى استخدام كلمة أخرى تقوم مقامها في اللغة لتؤدي معناها في مختلف مطالب الحياة فوقع اختيارهم على كلمة (حاجة) بمعنى الشيء . فاذا قال الحجازي : ما شاف شي ، قال المصري : ما شافشي حاجة (= ما شاف + شي + حاجة) . واذا كان الشين قد سميناه (الزائد اللغوي) فان كلمة (حاجة) يمكننا تسميتها (العوَض اللغوي) وهو الكلمة التي تحلّ محلّ كلمة فقدت وظيفتها . وهذا العوض اللغوي ان لم يكن مرادفاً لسلفه فقد يفقد معناه هو الآخر وعندئذ ينبغي ان يحل محله بدوره عوض لغوي آخر ليؤدي معناه السليب .

على ان (شيء) تظهر في الدارجة السورية في مثل قولهم : اعطيني شي كتاب أدبي .. او قولهم : تعرف شي طبيب أسنان ؟ ولعل القارىء قد سمع نصري شمس الدين يغنّي : « لو بتحاكيني شي مرّه يمكن تحبيني » ! والظاهر ان (شي) في هذه التعابير تعمل كأداة تنكير بمعنى (واحد) ، أي : لو بتحاكيني مرة (واحدة ..) . أي ان (شي) هنا لم تتعطل عن العمل بل أبدلت به غيره .

وفي المغرب (كُلْ شِي) – وينطقونها كلمة واحدة (كُلْشِي) – تعني: كله ، او كلهم ، او كلنا ... فاذا أرادوا مثلاً ان يقولوا (كلنا نريد) قالوا : كلشي نبغيُو .

وفي لغة العراق يوجد الشين في « كُلّش » – بكسر اللام مشدّداً – بمعنى « جدّاً » ، في مثل : كُلّش زين : جيّد جداً .

الضمير الزائد :

أظننا بعد هذا التمهيد المطنب نستطيع ان نقتحم الموضوع الوعر الذي نريد

اليه ، فنقول ان ما جرى على كلمة « شيء » قد جرى ما يشبهه على الهمزة الضمير. لقد تعددت وظائف الهمزة كالذي رأينا وكثر التوكـؤ عليها في الكلام فأضافوها الى الافعال في أولها او في آخرها ، حتى لقد أضيفت الى الفعل الواحد في بعض الحالات في اوله وفي آخره معاً، مثل : أنظرا « = او + نظر + آ » ، ومثل : إذهبي « = اي + ذهب + اي » . بل لقد أضافوها حتى الى نفسها كما رأينا قبل ، في « أيا » للنداء « = آ + آ » .. وفي: إيّاي « = إي + آ + آ »!

فالذي نعتقده ان حركات الاعراب ليست إلا رواسب تطورية من الهمزة في مختلف حالاتها النطقية : آ ، او ، إي .

واليك هذه التعابير نوردها على طريقة النحويين : جـاء الرجلُ ، ورأيت الرجلَ ، ونظرت الى الرجلِ . فاذا نحن حلـّلنا كلمة « الرجل » وجدنا انها في الحالة الاولى : « = الرجلْ + او » ، وفي الحالة الثانية : « = الرجلْ + آ » ، وفي الحالة الثالثة : « = الرجلْ + إي » .

وإذا شق على القارىء العزيز هذا التخريج منا كان علينا ان نذكـّره بما قلناه قبلاً من ان الفتحة والضمة والكسرة في اواخر الافعال ما هي إلا بقايا متنكرة.. من ضمائر مندرسة . واليك تحليل هذه الافعال :

أكـْرِمَا = آ + كـَرِمْ + آ .

أنظروا = او + نـَظـَرْ + او .

إذهبي = اي + ذَهـَبْ + اي .

فالضمائر هنا من الوضوح بحيث لا يمكن انكارها ، او إغفالها .

والضمة التي تلحق بالمبتدأ او الخبر او الفـاعل .. لا تختلف عن الضمة اللاحقة بالفعل . وليس أعون لنا من التحليل في ايضاح الامر ، فلنعد اليه

لننظر من خـلاله الى الحركات الإعرابية الثلاث في العبارات التـالية في الاسم والفعل معاً :

الضمة ، في مثل : ينتصرُ الحقُ « = ينتصرْ + او + الحقْ + او » .

والفتحة ، في مثل : سمعَ النداءَ « = سمعْ + آ + النداءْ + آ » .

والكسرة ، في مثل : إعتصمي بالصبرِ « = اعتصم + إي + بالصبر + اي » .

اي ان نفس الضمير الذي التصق بالفعل قد التصق بالاسم في الامثلة الثلاثة .
الذي يؤيد هذا تأييداً ممتعاً هو وجود حركة الضمّة في اواخر الألفاظ البابلية من الافعال والاسماء على السواء . فقد كانوا يقولون – من الافعال مثلاً :

سَخَنُو (sahanu) : سخّن .

قَلَفُو (Qalafu) : قَلَف (قَشَرَ) .

صَرمُو (saramu) : صَرَم (قَطَعَ) .

ومن الاسماء :

إيدُو (idu) : يد .

مَلاّحُو (mallahu) : ملاّح .

تَربيتُو (tarbitu) : تربية .

حِرْتُو (hirtu) : حرّية .

وهنا تجابهنا نقطة مهمة . ان الفعل لا يعتبر كلاماً مفيداً بذاته ما لم يقترن بالاسم الذي وقع الفعل منه ، او عليه (في حالة المجهولية) ، فاذا غاب ذلك الاسم جيء بنائبه الضمير ليدل عليه . لذلك كان من الطبيعي ان تتصل الضمائر

بالافعال ويظهر بعضها على صورة فتحة او ضمة او كسرة . غير ان الاسم لا يحتاج الى ذكر الضمير معه لان الضمير ما هو إلا نائب الاسم ، يُذكر عند غيابه ليدل عليه . اما عند وجود الاسم فالاسم هو الذي يدل على نفسه . فكيف ظهر معه الضمير اذن ، والتصق به ؟

قالوا بصيغة الامر : إذهب آ ، إذهبْ او ، إذهبْ إي .. لكي يعرف السامع من هو المقصود بفعل الذهاب . فلماذا قالوا : الرجلْ آ ، الرجلْ او ، الرجلْ إي ؟ كيف انتقل هذا الضمير من الفعل الى الاسم ؟

الذي نراه هو أنهم كما استعملوا الضمير مع الفعل ليخبر عن فاعله « المسند اليه » استعملوا الضمير مع الاسم مبتدَءاً مؤخراً فقالوا : صغير أُو ، مريض أُو ، جائع أُو ... بمعنى صغير هو ، مريض هو ، جائع هو .

وقد تكرر ذلك فيما يظهر الى حدّ أنه صار عادة نطقية فلصق الضمـــير بالاسم « الخبر » على هذا النحو وأمثاله ، ثم عمّ فشمل جميع الاسماء مبتدءاً وخبراً بدون تمييز مثلما لصقت الضمة بالالفاظ البابلية من الاسماء والافعال جميعاً فقالوا : سَخَن أُو ، مثلما قالوا : ملاّح أُو . وقد رأينا كيف جرى ما يشبه ذلك على شين النفي الذي لصق بالافعال المتعدية اولاً ثم شمل جميع الافعال ثم الحروف والادوات ، في جميع حالات النفي .

وسوف تزيد هذه النقطة وضوحـــاً عند الكلام على أفعال الكينونة في الفارسية التي التصقت بالاسماء فيها نفسُ الضمائر التي التصقت بالافعال .

وجليٌ ان ظاهرة تحريك أواخر الالفاظ قد نشأت لدى الفريق الذي كان الضمير عنده هو الهمزة . وهنا تجابهنا الظاهرة اللغوية الاخرى التي عرَضت لنا أكثر من مرة في مراحل هذا الحديث ، ونعني بها ظاهرة اختلاف القوم في نطق الحركات . فقد كان من اختلافهم في نطق الهمزة ان كانت عند بعضهم « آ » وعند بعضهم « إي » وعند بعضهم «او — u » وعند بعضهم (أو — o »..

وقد رأينا الضمة في المفردات البابلية التي أوردناها آنفاً. اما الفتحة فنجدها في السريانية الشرقية – العراقية بوجه عام – التي تنطق فيها الاسماء البابلية السالفة الذكر هكذا : ايدا (ida) ، ملوحا (maloha) ، تربيـــثا (tarbitha) ، حِروتا (hirota) . وأما في السريانية الغربية – الشآمية بوجه عام – فتنطق حركة آخر الاسم بين الفتحة والضمة ، اي مزقوفة بالتعبير السرياني ، هكذا : ايـــدو (ido) ، ملوحو (maloho) ، تربيثو (tarbitho) ، حروتو (hirouto) . غير ان الافعال السريانية قد تخلـّص بعضها من هذه الحركة وبقيت ظاهرةً على بعضها مثل : شرمو (sharmo) : شـَرَم او صَرَم .. و فرو (fro) : فرا (قطع) .

ومن عجب اننـــا نجد الضمة علامة اعراب في الاسمـــاء الاغريقية واللاتينية لكن متبوعة بالسين ، ففي اللاتينية تنطق ضمة مستقيمة كالاكدية ، مثـــل : calamus (قصبة) ، Antonius : (انطنيو) . امـــا في الاغريقية فتنطق الضمة مزقوفة كما في السريانية : kalamos ، و logos (كلمة) . وهي تنطق في الايطالية كالسريانية تماماً أي بدون السين مثل: gatto (قِطّ، هِرّ)، و Antonio . ويجوز ان تكون هذه الزقفة الايطالية منحدرة من لهجة لاتينية قـُدمـَى كما يجوز ان تكون ترخيماً من اللاتينية المعروفة ، بحذف السين ، كالذي حدث للسين في الفرنسية حيث أهملوا نطقه ترخيماً بالرغم من انهم لا يزالون يكتبونه في مثل : des ، les ، suis .. ومثل ذلك حال اكثر الحروف التي تقع في آخر الكلمة الفرنسية .

ولا ندري هل بنا حاجة الى القول الآن ان الهمزة نفسها في الأمثلة السابقة كلها قد ذابت واختفت ولم يبق إلا حركتها أثراً يدل عليها . فان الهمزة كما هو معلوم اكثر الحروف تعرضاً للتخفيف او الذوبان . واذا كان بعض اللهجات العربية ومنها الفصحى تعترف بهمزة صلبة لا تمحى في أول الكلمة سمّاها النحاة همزة القطع فـــان بعض العرب كانوا يَصِلون – أي يحذفون – حتى همزات

القطع. وما زال المغاربة يحذفونها عند قراءة القرآن في مثل (في الدنيا والآخرة) يقرؤونها (وَلاَخِرة) من وزن عباقرة ، ومثل (له ما في السموات وما في الارض) يقرؤونها (فِلَرْض) بكسر الفاء وفتح اللام ، كأنها كلمة واحدة من وزن دِمَشْق .

والذي يظهر من المفردات التي استعرضناها من اللغات البابلية والأرَميّة – السريانية – والاغريقية واللاتينية ان كل فئة من ابناء المعربة كانت تنطق باحدى هاته الحركات المستقيمة او المالة . لكن تلك الحركات التقت وتخالطت وتفاعلت في المعربة – ذلك المسبك اللغوي الكبير – مما أخضعها للقاعدة اللغوية الاخرى التي نوهنا بها اكثر من مرة ايضاً وهي قاعدة (التخصص) . ولم يكن من الممكن ان تلتقي مختلف الحركات على أواخر الاسماء وتبقى متعايشة كلها على حدٍّ سواء دون ان يغلب بعضها على بعض ، فكان لا بد لكل واحدة منها ان تتخصص في شيءٍ ما او تندثر . وهكذا أخذت تلك الحركات تبحث لنفسها عن عمل تختص به حتى استقرت كل واحدة منها فأصبحت تدل على مجموعة من حالات الاعراب الكثيرة .

وكانت أقواها الضمة فيما يظهر ، أي ان الجماعات التي كانت تنطق بالضمّة كانت اكثر عديداً او أعزّ جانباً من الجماعات الاخرى، فالتصقت ضمتهم بالاسم في جميع الحالات الاعتيادية المهمة من الكلام سواء في الجملة الاسمية أو الفعلية : الشمسُ طالعةٌ ، يهربُ الغزالُ .. أي في الجمل التي تتكون من كلمتين (مسند ومسند اليه) . حتى المفعول به ما زال يُرفَع اذا تألفت الجملة منه ومن الفعل (في حالة الفعل المبني للمجهول) . أما اذا اجتمع الاسم الاصلي (الفاعل) مع اسم آخر في الجملة الفعلية فان الفتحة هي التي تتولى الاسم الطارىء من المفعولات، والحال ، والظرف والتمييز ...

وبتعبير آخر ان الرفع صار نصيب المسند اليه في الجملة فاعلاً كان او مفعولاً

به، ونصيب ما يتبعه من الاسماء أي الخبر والنعت والبدل . فاذا ظهر مع المسند اليه في الجملة الفعلية اسم آخر او اكثر انبرت له الظاهرة اللغوية الثالثة أي قاعدة (تجنب اللّبس) لتعمل عملها فيه ، واذا بالفتحة تتخصص بجميع الاسماء عدا المسند إليه وخبره ، اي جميع حالات المفعولية وما إليها .

ومن التعميم والتجوّز المبالغ فيه أن نسمي ذلك تخصصاً ، فان حـــالات النصب في العربية من الكثرة والتنوّع بحيث يصعب وصفها او تحديد معناها بتعبير واحد . وانما تبدو أقرب الى التخصص حـــالة الجر التي انحصرت في الاضافة وبضعة حروف .

ونعود لنستدرك فنقول انه ليس حتماً ان تكون الحركات الثلاث قد تلاقت وتخصصت في وقت واحد ، فمن المحتمل بل الاغلب ان اثنتين منها قـــد التقتا وتخصصتا قبل غيرهما . كما أن وجود حركة واحدة في كل من البابلية والأرَميّة لا يدل على ان ظاهرة الاعراب بالحركات الثلاث لم تكن قد نضجت وتبلورت في المعربة ، لكن يجوز انها لم تكن قد عمّت جميع الأعربين ، او كانت قـــد عمّت ثم أخذت تزول عند بعضهم ولا سيما من جاور الأعاجم منهم وخالطهم .

والواقع ان المأثورات الوثائقية تدل على أن ظـــاهرة الاعراب بالحركات الثـــلاث كانت موجودة على أتمّها في المعربة منذ عهد سحيق ، لأن الاكدية نفسها – وكذلك سائر الساميات القُدمَى – كانت في عهودها الاولى خاضعة للاعراب بالحركات الثلاث . وما الحركة الواحدة في البابلية الحديثة والأرمية إلا مرحلة تطورية متأخرة تمثل وشك الاعراب على الاندثار ، فهي تمثل نهاية عهد الاعراب ، لا بدايته .

ومما يدل على قدم الاعراب في العربية وجوده في بعض الآريات على وجه يقارب الاعراب العربي ، ولا سيا في اللغتين الاوربيتين القديمتـــين : الاغريقية واللاتينية ، فان للاعراب في كل منهما ستّ حالات تلقاء الحالات الثلاث المعهودة

في العربية ! وما يزال الإعراب موجوداً في بعض اللغات الاوربية المعاصرة كالالمانية والايسلندية والروسية والدانمركية . والمفروض على كل حال أن الآريين عموماً قد غادروا المعربة قبل الساميين عموماً ، بزمن طويل . فالاعراب قديم جداً اذن في العربية .. اي قبل أن تلد العربية بناتها الآريات !

هذا ويجوز ان تكون الهمزة في حركاتها الثلاث (آ ، أو ، إي) بقية من (آن ، أون ، إين) ذهب نونها تخفيفاً مثل ذهاب النون من (إفعلا ، إفعلوا ، إفعلي) . ويلاحظ اننا ما زلنا نحذف التنوين عند الوقف . ونكتفي من هـــذا الاحتمال بالوقوف عند هذا الحدّ الآن .

تدريس النحـو :

وانه لمن العبث الاستمرار في تعليم قواعد اللغة العربية على الطريقة التفصيلية المأثورة ، التي جعلت علم النحو أصعب العلوم على التلميذ وأبغضهـــا الى نفسه الهشّة وذهنه الجديد .

فالصواب عندنا ان الاسم – المُعْرَب – يكون مرفوعاً في جميع الحالات الأساسية أي حين يكون عماد الجمـــلة أو خبراً له ، إلا اذا نصبته (إنّ) او احدى أخواتها . والذي نعنيه هو أن (إنّ) تنصب الاسم ولا ترفع الخبر ، لأن الخبر مرفوع أصلاً . أما (كان) وأخواتها فلا ترفع ولا تنصب ، وإنما هي كبقية الأفعال لها فاعل . وكونها أفعالاً ناقصة لا يغيّر من الأمر شيئاً . فاذا قلنـــا (أصبح الجو بارداً) كان (الجوّ) فاعلاً لفعل (أصبح) ، وأما (بارداً) فقد نُصب لتمييزه عن الفاعل وحسب .

والدليل المنطقي الواضح على ذلك هو أن بعض أخوات (كان) أفعال تامّة في الاصل مثل : ظل (= بقي) ، و بات (= نام) ... فقولك : ظل الرجل واقفاً ، يوازي قولك : بقي الرجل واقفاً ، ويكون إعراب (الرجل)

انه فاعل و (واقفاً) حال . كذلك قولك : بات الصبي مريضاً ، شبيه بقولك : نام مريضاً ، وهكذا ...

وتوجد أفعال في العربية تعمل عمل (كان) وأخواتها مثل : غدا الرجل راضياً ، أو : راح الرجل مغاضباً .. ففي كلتا الجملتين يعرب الرجـل على انه فاعل ، وما بعده على انه حال .. مع ان معنى (غدا) هنا يحتمل أيضاً أن يكون : صار ، وأصبح ..

وصفوة القول ان الاسم الذي يلي الفاعل في هذه التعابير وأمثالها إنما نُصب تمييزاً له عن الفاعل وحسب، سواء أكان مفعولاً به او حالاً أو ظرفاً أو تمييزاً.. كما في قولنا : ضرب زيدٌ عمراً، وصيَّرت الحرارةُ الماءَ بخاراً، وأقبل السكرانِ مترنحاً تارةً يميناً وطوراً شمالاً ففرّ الاطفال ذعراً ، وأعطى بكرٌ خالداً صدقة صاعاً تمراً .. وأُعطِيَ (بصيغة المجهول) خالدٌ صدقةً صاعاً تمراً ...

وواضح ان اسم (خالد) مفعـــول به في كلتا العبارتين إلا أنه نصب في العبارة الاولى لانه الاسم الثاني في الجملة ، ورفع في العبارة الثانية لانه الاسم الاول فيها .

فبعد ان يقال للتلميذ ان الاسم المعرب يكون مرفوعاً اذا كان عماد الجملة أو خبراً له (بصرف النظر عن كونه فاعلاً أو مفعولاً به) ، يقال له ان الاسم يكون مكسوراً اذا وقع مضافاً إليه أو مجروراً بأحد الحروف المعروفة . وفيما عدا حالتي الرفع والجرّ هاتين يكون الاسم منصوباً في ذلك الخليط الكبير من الحالات الاعرابية الاخرى .. ومنها حتى حالات الجرّ التي حذف منها حرف الجرّ ، أي حين يكون الاسم منصوباً بنزع الخافض على تعبير النحاة .

وبعد أن يتعلم التلميذ ذلك ويتمكن منه ، لا بأس عليهم أن يعلموه ما شاؤوا من التفصيلات اذا هو أراد التخصص في اللغة وآدابها .

ماذا ستكون النتيجة ؟ النتيجة ستكون أن يخسر التلميذ العلم بالقواعد النحوية السقيمة ويربح بدلاً منها المقدرة على الكلام الصحيح والكتابة الصحيحة بغير عناء . فاذا سئل لماذا تنصب (سيفاً) في قوله : اذا كان بعض الناس سيفاً لدولة ؟ .. أجاب : لانه لا مرفوع ولا مجرور ! ولا عليه بعد ذلك أن يجهل انه مفعول به ، أو تمييز ، أو حال .. أو ما يسمونه خبر كان .

المقصود أولاً وآخراً من تعلم النحو هو تعلم صياغة الكلام ، وذلك فيما نظن خير من أن ندهمه – أي التلميذ المسكين الآنف الذكر – بتلك القواعد العسيرة فيخسر تعلم القواعد النحوية العسيرة والمقدرة على الكلام الصحيح معاً ، كما هو شأن أربعة أخماس حملة الدكتوراه والليسانس من خريجي الجامعات العربية .. على أقل تقدير .

التثنية والجمع

قصة (نحن) :

أما ضمير (نحن) فقد طال خلاف البصريين والكوفيين بشأنه ، فقال الأولون ان الاصل فيه هو النون ، وقال الآخرون ان كل حروفه أصل . والذي نراه أنه تركيبة طريفة من كلمة (أنا) أو (نا) . وقصة (نحن) إن صدق حدسنا فيها من أعجب القصص اللغوية .

فلنتصور الانسان الغابيّ العربي ، المحدود الثروة من المفردات اللغوية .. بل لنتصور أنفسنا في مكانه .. نريد ان نقول (نحن) على حين اننا لا نملك كلمة تؤدي معناها سوى (أنا) ، فماذا نصنع ؟

لقد كان من جدنا الأعلى ان حلّ المشكلة بطريقة بارعة تستحق اليوم

اعجابنا ، فقال (أنا أنا) دلالةً على عدد من الاشخاص هو أحدهم ! ولعله انما كرر ضمير (نا) بنفس المعنى فقال (نا نا) . وهذا شبيه بمن كانوا يشدّون الى المركبة حصانين لجرّها قبل اختراع محرك له قوة عدة أحصنة .. أي اختراع ضمير (نحن) الذي يعني عدداً غير محدود من الاشخاص .

ونعتقد ان تكرار اللفظة تعبيراً عن الجمع كان عادة لغوية عربية قُدمى ، استغنى عنها الناطق العربي فيما بعد حين اتسعت به مجالات الكلام . وقد بقي من آثاره الكثير من الالفاظ التكرارية مثل اسم (الجُلْجُل) الذي أطلِق دلالةً على شيء يقول (جُلْ جُلْ جُلْ جُلْ ..) الى عدد لا يحصى من المرات، كما هو معلوم . وكذلك الصرصر ، والجدجد، والهدهد، والبلبل .. والجعجعة ، والصلصلة .. وأمثالها . فقد اكتفوا بذكر الصوت مرتين كنـــاية عن تكرره مرات كثيرة .

ويبدو ان تكرار الكلمة تعبيراً عن الجمع كان الطريقة الشائعة عند أمم اخرى ربما كانت كثيرة . وما زالت موجودة في بعض اللغات حتى الساعة . فاذا كان بعض القراء قد سمع أحد الاندونيسيين يلقي خطاباً فلعله قد لحظ ان الخطيب يستهل كلامه بقوله (سودارا ، سودارا) أي (صديق صديق) ، والمعنى : أيها الاصدقاء! فاذا أرادوا ان يعبروا عن كلمة (رِجال) قالوا: رَجُل رَجُل.. واذا أرادوا التفاح قالوا : تفاحة تفاحة .. واذا أرادوا العصافير قالوا : عصفور عصفور ..

هذا يشجعنا على الاعتقاد بأن الانسان العربي ، الذي بدأ مشروع صنع هذه اللغة الفخمة لنـــا ، قد حلّ مشكلة فقدان لفظة (نحن) في قاموسه الصغير بقوله : أنا أنا ..

وبعد مرّ الازمان وكرّ الاجيال سقطت الهمزتان فصارت الكلمة (نانا) ، او انها كانت (نانا) أصلاً من تكرار ضمير (نا) بمعنى : أنا . ثم انهم أدخلوا

الحاء وسط (نانا) تنغيماً فصارت (نحنا) .. (مصداقاً لقول البصريين ان الاصل في نحن هو النون) . وما زال عرب الشام (سورية) وأهل الموصل في العراق يقولون : نحنا .

ويبدو لنا ان هذا هو أصل (نحن) . أي ان (نحنا) هي الأثل الافصح، اذا اعتبرنا القدم معياراً للفصاحة .

وقد نطقها بعض العرب الاقدمين (احنا) . وما عبثاً يقول اكثر العرب اليوم (احنا) بدلاً من (نحن) . وليس شيوع هذه الصيغة في مشارق العالم العربي ومغاربه اليوم هو دليلنا الوحيد على قدم هذه الصيغة . فان الدليل الآخر – وهو وثيقة مكتوبة – أقطع في البرهنة على ذلك . ونعني الاكتوبة القرطاجية التي وُجدت في البرازيل منقوشة على قطعة رخام – وقد كتبت عام ١٢٥ ق م – وهي تبدأ بالقول : « هنا احنا بني كنعان .. » [٤]

وبعض البدو في الشرق الاوسط ومن تكلم بلهجتهم من أهل الحضر يقولون (حِنّا) – بكسر الحاء وتشديد النون . وكلنا يعرف صوت اسمهان إذ يترنم: حِنّا روينا سيوفنا من الگوم ..

وليس بين العرب اليوم من يقول (نحن) بالنطق القاموسي قط . لكن قلةً منهم ، نعرف منهم بعض القبائل على تخوم العراق وسورية يقولون (نِحِن) – بكسر النون والحاء .

قصة الالف والنون :

وجدنا كلمة عجيبة تؤيد هذه الفكرة وتخرجها من طور النظرية الى ما يشبه اليقين . انها مفتاح باب الجمع وجوهر مادته الاولى . وهي التي تحلّ لنا أسرار

---

٤ – نوهنا بذلك في تحقيق أثل كلمة « فنيقية » في فصل بارح . وقد وردت الاكتوبة القرطاجية كاملة النص في العدد الثاني من مجلة « اللسان العربي » ص ٣٥ – كالذي ذكرنا .

نشوء التثنية والجمع بالألف والنون ثم الواو والنون . وانه لمن حسن حظنا حقاً انها لم تندثر بالرغم من ايغالها في القدم مع ما اندثر من مفردات اللغة . ولو كانت قد اندثرت لكنا استنتجناها استنتاجاً ولكان من الصعب علينا عندئذ إقناع القارىء بها .

هذه الكلمة الساحرة وجدناها في الفارسية . انها (آنان) التي مرّت بنا في مناسبة سالفة وقلنا ان معناها : اولئك للعاقل وغيره ، او : هم لغير العاقل .

وواضح ان (آنان) ما هي إلا تكرار (آن) . وبعبارة تحليلية أوضح ان (آنان) = (آن + آن) .. وان هذا التكرار لم يكن المقصود به سوى الجمع. أي ان أصل المعنى كان (هو هو) بمعنى : هم ، او (ذلك ذلك) بمعنى : اولئك . ولعله كان قديماً يعني (أنا أنا) ايضاً فنشأ منه ضمير (نحن) على النحو الذي رأينا .

لكن بما ان (آن) وحدها تعني الفرد و (آن آن) تعني الجمع فقد وقع في وهم الاجيال اللاحقة التي ورثت صيغة (آن آن) ان (آن) الثانية تعني (أداة) الجمع ، فصاروا يجمعون بواسطتها الاسماء والضمائر الاخرى ، حتى انه لما تطور الضمير (آن) نفسه فصاروا ينطقونه (إين) بمعنى : هذا ، لم يجمعوه بطريقة التكرار على (إين إين) بل أضافوا اليه (آن) الثانية هذه بصفتها أداة الجمع فقالوا (إينان) : هؤلاء (= إين + آن) .

وبعد ان رسخت مكانة (آن) كأداة للجمع شملت جميع الاسماء أول الأمر عند الناطقين بها فيما يظهر . ثم ظهر قوم نطقوها (هان) و (ها) .

وبعد الاختلاط والتعايش تخصصت (آن) في الفارسية بجمع ذوات الروح من حيوان وانسان وكواكب ، (وقد كانت الكواكب تمثل أرواحاً وآلهة عند القدماء كما هو معلوم) . وتخصصت (ها) بجمع الجمادات أولاً ، ثم أخذت

تنافس (آن) اخيراً في جمع العاقل ايضاً ، في الفارسية الحديثة . وأما صيغة (هان) فقد صارت في الفارسية تعني التحذير أي التنبيه ، وسوف تطالعنا ثانية مع أثلها (آن) في مجال حيوي آخر .

ووفاقاً لنظريتنا في أمومة العربية نعتقد ان استخدام (آن) أداةً للجمع قد نشأ في المعربة أولاً . فأول دليل على هذا هو ان (آن) الضمير كان موجوداً في العربية وقد أطلقه الشُمَريُّون (السومريون) على أبي الآلهة (السماء) وينطقه الاكديون بضمّ آخره على طريقتهم (آنو) .. مثلمـــا أطلقوا ضمير (أيا) — هي — على الإلاه الاكدي ، البابلي ، (ماء الغمر) ٥ .

وهذا هو النصف الاول من (آنان) أي (آن) الضمير . أما النصف الثاني أي (آن) أداة الجمـع فمـا زال بنفسه في العربية أداة (التثنية) وهي أدنى الجمع ! بل انه ما زال باقياً في (جمع) الكثير من الاسماء العربية كالأخ والخليل والغلام والفارس والنديم والكثيب والحَمَل والذئب... فهذه الاسماء — كالكثير سواها — مـــا زالت تجمع على : اخوان و خُلاّن و غِلمان و فرسان و ندمان و كثبان و حملان و ذؤبان . و النسوان جمع ضاعت فردته في اطواء الزمان .

ويكثر هذا الجمع على الأخص فيما يدل على الانسان من الصفات التي وردت على وزن (أفعل) كالابيض والاسود والاطرش ، فهي تُجمَع على : بيضان و سودان و طرشان .

---

٥ — لقد أكثر العراقيون القدامى من استعمال الضمائر في تسمية آلهتهم مثل « ننا » إلاهة الجمال التي سميت فيما بعد عشتار ، ومثل : أنكِي وننكي وتوتو ، وأنتُم .. وربما كانت من الضمائر أيضاً صيغة أونـّكي (Anunnaki) التي تطلق في البابلية على مجموعة آلهة العـــالم السفلي ، وكثيراً ما تطلق كذلك على الآلهة بوجه عام . والموضوع بحاجة الى دراسة خاصة . أما الشُمَريُّون فتدل ملاحظاتنا اللغوية على عروبتهم ايضاً، او على شدة اختلاطهم وتأثرهم بالعرب والعربية على الأقل .. بالرغم من قول الباحثين إنهم لا ينتمون الى نسب عِرْقيّ معروف .

ولئن كانت لأداة الجمع هذه صيغة واحدة في الفارسية هي (آن) فما زالت لدينا منها في العربية خمس صور : آن ، أيْن (بفتح الهمزة) ، أون (بضمها) ، إين (بكسرها) ، أوْن (بفتحها) .. نجدها في قولهم : صيّادان ، صيّادَيْن (اثنين) ، صيادُون ، صيّادِين (جمع) ، أعْلَوْن ويرضون .

وقد تخصصت الصيغتان الأوليان بالتثنية كما هو غنيّ عن البيان ، والثالثة والرابعة بالجمع ، والاخيرة بجمع المقصور .

والظاهر ان جميع الاسماء كانت تُجمَع وتُثَنّى بالالف والنون اول الامر عند العرب الذين كانوا يستعملون هذا الضمير . فلما كثرت صور الجمع بسبب اختلاف النطق وأراد الاعرابيّ ان يخص التثنية بتعبير خاص بها يميزها عن حالتي الافراد والجمع ، وربما كان ذلك لاسباب اجتماعية بقصد الدلالة على (الزوجين) من الذكر والانثى عندما اصبحت للحياة العائلية اهمية معينة عنده — اختص الصيغة الاصلية (آن) بالتثنية وترك الصيغة الطارئة (أون) للجمع .

ولئن اصبحت (آن) اداة تثنية للعاقل وغير العاقل ، بعد ان كانت اداة جمع للعاقل وغير العاقل ، فالذي نعتقده ان (أُون) أيضاً كانت اداةً لجمع العاقل وغيره .. وما زالت شواهد من جمع الجمادات على طريقة جمع المذكر السالم تطالعنا في العربية في مثل جمع البُرَة — بضم ففتح — (= الحلقة) على بُرُون وبُرِين ، والسَنَة على سنون وسنين ، والارض على ارضون وارضين ، والمئة على مئون ومئين ...

ثم انه لما كثرت صيغ جمع التكسير عند مختلف القبائل والبطون وراجت ، أخذت (أُون) تتخصص بجمع العاقل .

ويلاحظ ان صيغ (أفْعَل) التي تجمع بالالف والنون (كالسودان والبيضان والعرجان) تدل على الانسان ، فأما اذا اريد بها غيره فهي تُجمَع تكسيراً على :

سود وبيض وعُرْج . وهذا أحد مظاهر تخصص ضمير (آن) بالانسان ، وبحسبه يفسّر لنا تخصصه في الفارسية بذي الروح اول الامر ، ثم بالانسان وحده في الفارسية الحديثة .

ولم تظهر في التثنية صيغ تكسير ، او ظهرت ثم اندحرت ، فبقيت التثنية كلها سالمة ، للذكر والانثى ، والعاقل وغيره .

الجمع في الآريات :

ومن بقايا الجمع بالالف والنون ، او الياء والنون ، في الآريات نجد بعض الاسماء في الانكليزية مثل : child (طفل) وجمعه : children .. و ox (ثور) وجمعه : oxen . . و cow (بقرة) وجمعها : kine . . و brother (أخ) وجمعه : brethren . . .

فالذي يبدو ان القوم كانوا يجمعون بالالف والنون – أو الياء والنون – كقاعدة عامة ، ثم طغت موجة كاسحة من الاعربين كانوا يستعملون السين اداة للجمع، فغلبت طريقتهم وشاعت في بعض اللغات الاوربية كالانكليزية والفرنسية والاسبانية ... وبقيت من النون بقية ، منها هذه الاسماء الانكليزية التي اصبحت تعد شاذة عندهم .

ويلاحظ ان هذه الاسماء الشاذة – باستثناء child – يجوز جمعها بالسين أيضاً ، على القياس .

والجمع في الايطالية يكون بإلحاق الهمزة المكسورة (إي – i) الى الاسماء المذكـّرة ، والهمزة الممالة (ايه – e) الى الاسماء المؤنثة .

واذا جرينا مع القياس على الجمع بطريقة التكرار في العربية امكننا القول ان اصل هذه الهمزة الايطالية كان (إي إي) بمعنى (هو هو = هم) أو

(هذا هذا = هؤلاء) .. ثم اصبحت الهمزة الثانية اداةً للجمع .. كالذي جرى لتركيبة (آن آن) .

وتمشياً مع هذا الافتراض يمكن القول ان الجمع في الانكليزية وشبيهاتها ايضاً كان اصله تكرار السين بصورة (ايس ايس) مثلاً ثم اصبح السين الثاني اداة الجمع . وقد كانت صيغة (ايس) ضميراً في العربية فعلاً بمعنى : هو ! ولنترك السين وشأنه الآن لاننا سوف نتحدث عنه فيما بعد ، وسيتضح لنا أنه كان احد الضمائر هو الآخر ، بهذه الصيغة وغيرها ، في العربية وغيرها .

وهذا مجرد افتراض نذكره بكل تحفظ .

التأنيث وجمعـــه

اداة التأنيث في الاكدية هي التاء يُلحقونها بالاسم المذكر . فمثلاً (بعلو) تصبح (بعلتو) . وهذا عين ما نجده في العربية : (المرؤ) مؤنثه (المراتُو) ، و (الهِرُّو) مؤنثه (الهِرّتُو) ، وهكذا . واما قولنا : رأيت المرأ والمرأةَ – بالفتحة على كليهما – فشبيه بنطق السريانية الشرقية : بعلا وبعلتا .

وقد ظهرت هذه التاء من اضافة ضمير (أتْ) الى الاسماء ، وهو نفسه الذي رأيناه ضميراً متصلاً بالفعل الماضي : (فَعَلَتْ هي) للدلالة على معنى التأنيث أيضاً .. (فَعَلَتْ = فَعَلْ + أتْ) كما أن (الفاعلة = الفاعلْ + أتْ) .

وكان بعض العرب يخففون تاء (المرأة والهرة) فينطقونها أشبه بالهاء او الفتحة المرسلة ، فصارت هي القاعدة عند الوقف عموماً . لكن بعضهم ينطق التاء حتى عند الوقف ، وقد سمعنا محاضرة ذات مرة من اذاعة بيروت كان المحاضر يقول في اثنائها : (الجامعت ، الكليّت ، التربيت) . وهذي هي طريقة الفُرس والتُرك في نطق معظم الالفاظ المؤنثة المقتبسة من العربية مثل:

دولت ، امانت ، محبّت ، مشروطيّت . وهي كذلك طريقة الفرنسيين في مثل : ce (هذا) ومؤنثه : cette (هذه) ، و fils (إبن) ومؤنثه : fillette (إبنة) . اما الايطاليون فينطقونها فتحةً مرسلة في آخر الاسم المؤنث مثل : gatto (قِطّ) ومؤنثه : gatta (قطة)، ومثل : bravo (بارع ، او مرحى للذكر) ، ومؤنثه : brava (بارعة ، او مرحى للانثى) . وهي القاعدة اللاتينية ايضاً .

وقد تحيّر النحاة العرب في أمر علامة التأنيث هذه هل هي الهاء ام التاء . وأخذ بعضهم ومنهم المجد الفيروزابادي في قاموسه المحيط بنظرية الهاء ، لكن الذي يتضح لنا مما تقدم أنها (التاء) ، أي ضمير (أتْ) ذابت همزته وبقيت الفتحة على ما قبله دليلاً عليها .

وأما جمع المؤنث السالم بالالف والتاء فالظاهر انه ناشيء من مدّ فتحة ما قبل التاء مثل : ذئبت، شجرت، حركت.. كان بعضهم ينطقها : ذئبات، شجرات، حركات .

وعادة إطالة الحركات عند بعض العرب ما زلنا نجدها في المغرب ، فان : مدير ، حميد ، كبد ، بالـتّي .. ينطقها الكثيرون : حاميد ، موديْر ، كَبْـاد ، باللّاتي (اي : مهلا) .. وكثيراً ما تسمع في المغرب : والله العاظيم .

ويبدو من هذا القبيل نطق المصريين بعض اسماء الإناث بالفتحة المديدة مثل: زينات و نعمات ، بدلاً من زينت ونعمت .. ومنه قولهم : دمّك شربات ، وأثلها (شربت) كما ينطقها العراقيون ، وتعني عندهم الأشربة الحلوة .. وكذلك قول المصريين (كام) بدل (كم) .

فلما التقى النطقان — اي نطق المؤنث بالقصر ونطقه بالمدّ — تخصصت الفتحة القصيرة (شجرة) بالمفرد والطويلة (شجرات) بالجمع ، الذي سمّوه : جمع المؤنث السالم .

التنـــوين

تنوين الاسماء يُعدّ عند النحويين أمارة على تمكنها من الاسمية. واول مشكلة يثيرها لهم تفجير الضمائر في هذا الصدد هي ان الافعال ايضاً تُنوّن كالاسماء. وان تحليل قولهم بصيغة الامر (إذهبَنْ) يكشف انه (إذهبْ + أنْ) .. كما ان قولهم (رجلاً) = (رَجُلْ + أن) ! ومثل ذلك يقال في « لَنَسْفَعَنْ بالناصية » . ومن تشديد النون نشأت صور اخرى مثـــل : « لأعذّبَنّه أو ليأتِيَنّي بسلطان مبين » .

ويبدو أن التنوين كان اكثر شيوعاً في الافعال مما وصل الينا من مأثورات العرب . وما زال الجنوبيون من اهل العراق يكثرون من تنوين الفعل في مثل : أصُبّن واصومن (= أصُبّ واصوم) .. ومنها الاغنية الشعبية العراقية المشهورة : ما اگدر اگولن آه خوف الفضيحة (= ما اقدر اقولن آه ..) . وواضح ان هذا مجرد تنوين ، وليس المقصود به التوكيد كما هي الحال في الامثلة السابقة . وقد يصلح هذا للتدليل على ما نعتقده من ان الافعال كانت تُنَوَّن قديماً كالاسماء ، ثم اقتصر التنوين في الافعال على حالات التوكيد بوجه عام .

ومن دلائـــل شيوع التنوين في الافعال قديماً تنوين الفعل المضارع في السكسونية ! .. bringan (يحلب) ، beatan (يضرب) ، singan (يغنّي) ، sceawian (يرى) ، وتنطق (شاويان) ، ولعلها من العربية : شاف يشوف .. (شوفن) !

والذي نظنه ان بعض العرب كانوا يُلحقون بالالفاظ ضمير (آن) بالاضافة الى اولئك الذين كانوا يلحقون بها ضمير (آ) . فان صحّ هذا فهو سبب نشوء التنوين ، والا فلا مناص لنا من ان نفترض انهم الحقوا الهمزة اولاً ثم الحقوا بها

النون ثانياً ، أو أنهم ألحقوا ضمير (آن) ثم حذفوا النون كالذي جرى لنون المضارع إذ حذفوه في صيغة الامر .

وعندما التقى التنوين بحركات الاعراب تخصص التنوين بالتنكير وبقيت الحركات غير المنوّنة لحالات التعريف عموماً . ولعل من هذا القبيل ضمير (آن – an) الذي تخصص في الانكليزية بالتنكير مع الاسماء المبدوأة بالهمزة .

فعلى هذا يكون تحليل الاسم المنوّن هكذا :

واقفاً = واقفْ + أنْ .

واقفٌ (بالضم) = واقفْ + أنْ .

واقفٍ (بالكسر) = واقف + إنْ .

أما الافعال فالتنوين فيها صار يعني التوكيد عموماً كما قلنا . إلا انه بالنظر لكثرة الضمائر المتصلة لم يمكن تخصيص صيغة منوّنة لكل منها لان الحركات لا تزيد على الثلاث ، لهذا صار قولك (لتذهبن) بفتح الباء وتشديد النون يعني المخاطب والغائبة ، وبضم الباء يعني المخاطبين والمخاطبات ، وبكسرها يعني المخاطبة . وهذا شبيه بما رأيناه من (تخصص) كل واحدة من حركات الاعراب الثلاث بعدد من حالات الاعراب في الاسماء . أما صيغتا (لَتَذْهبان) و (لَيَذهَبنْ) فيشتد توكيدهما بتشديد النون .

ويلاحظ ان النون يحذف من الاسم المنون عند الوقف ، فمن أجل ذلك كتبوا الفتحة المنونة ألفاً ، أي كتبوها كما كانوا ينطقونها في حالة الوقف عليها . ولم يكتبوا الضمة المنونة واواً ولا الكسرة المنونة ياءاً لان الوقوف عليها يكون بالسكون أي بحذف النون والحركة التي قبله. ومعنى هذا انهم لم يرسموا التنوين في الكتابة الى ان ظهرت علامات شكل الحركات في العربية فجعلوا يرسمون التنوين حركة مضاعفة ، أي فتحتين او ضمتين او كسرتين .

التعريـــف

لم يقتصر استعمال الضميرين (آ) و (آن) على الحالات الآنفة الذكر ، وانما استُعملا للتعريف أيضاً !

أما (آن) فتطالعنا بنصها أداةً تلحق الاسم لتعريفه في لغـــات اليمن المندرسة . و (آن) هذه قد صادفناها اكثر من مرة كاسم اشارة وأداة جمع في الفارسية ، وأداة تثنية وجمع وتنكير في العربية ، وأداة تنكير وجمع في الانكليزية ..

ونرجح ان معنى الاشارة هـــو الذي أعطاها معنى التعريف . يؤيد ذلك لنا ان (آن) التي هي أداة تعريف في اليمنيات القدمى ما زالت تستعمل في الفارسية أداة اشارة . وهذا دليل واهن في واقع الأمر لان الضمائر استُعملت بمعانٍ شتى ومنها ضمير (آن) نفسه . غير اننا نلاحظ ان اللاتينية ليست فيها أداة خاصة للتعريف لان الاسم يعتبر فيهـــا معرفة بذاته كالفارسية وبعض الساميات القديمة ، لكن اللاتين استعملوا في حالات التوكيد مع أدوات الاشارة الاسماء بمعنى التعريف .

يقول الايراني اليوم (آن قلم) بمعنى : ذلك القلم . فكذلك جدّنا ساكن الغاب اذا قال (آن شجرة) – أي هذه الشجرة او تلك الشجرة – يكون قد عرّفها لمخاطبه من بين الاشجار الاخرى . ومع الزمن اصبح قوله (آن شجرة) يدل على الشجرة المقصودة ولو كانت غائبة عن العيان . ودأبت الاجيال على ذلك حتى صارت (آن) أداة للتعريف .

وقد أبدل بعض الاعربين الهمزة هاءاً فنطقوها (هان) . ويظهر الضمير على هذه الصورة أداة للتعريف في العبرية القديمة ، مـوروثاً عن الكنعانية فيما يظهر .

وقد نطقها آخرون من العرب مرخمةً (ها) كما يتضح من أكاتيب بعض اللغات العربية البائدة كاللحيانية والثمودية والصفوية (نسبةً الى روابي الصفا التي اكتشفت فيها بعض الاكاتيب منقوشة على الحجر ، بسورية) . فقد ورد في هذه اللغات مثلاً : ه و ع ل (= الوعل) ، ه ج م ل (= الجمل) ، ه د ر (= الدار) ، ه ب ي ت (= البيت) .

ويحتمل أيضاً ان (ها) لم تتكون ترخيماً من (هان) بل إبدالاً من الهمزة (آ) . ولا نُؤْثِر الانسياق مع الاحتمالات الآن لكثرتها وتشعبها ، فان جذور الضمائر وفروعها من التشابك والتعقيد بحيث يتعذر أحياناً أن نستلّ أحدها من بين اخوانه دون مساس بسواه .

وأياً كان أثل (ها) فقد كانت أداة تعريف في تلك اللغات البائدة . وقد رسموها هاءاً مجردة (ه) ، ويغلب على ظننا أنهم كانوا ينطقونها بالمدّ (ها) في هذه الألفاظ وأمثالها – أو في بعض تلك اللغات على الأقل – لأن القـوم لم يكونوا يستعملون حروف المدّ في كتابتهم ، فقد كانوا مثلاً يكتبون (در) ليقرؤوها (دار) كالذي رأينا ، ومثلها (م ن ت) يقرؤونهـا (مناة) ، و (ي غ ث) يقرؤونها (يغوث) ، و (ع م) يقرؤونها (عام) أي سنة .

وهذا يشجعنا على القول ان من المحتمل أن (ه ج م ل) كانوا ينطقونها (ها جمل) – مثلما نكتب نحن : هذه ، ولكن ، وطه .. لنقرأها : هاذهي ، ولاكن ، وطاها . على أن هذا مجرد احتمال . وإنما يمكننا التأكد إذا اكتشفنا شعراً موزوناً من تلك اللغات يساعدنا وزنه على معرفة حركة الهاء أطويلة هي أم قصيرة .

ولا ندري ان كانت الصيغتان (ها) و (هان) قد اندرستا أم لا يزال لهما وجود في بعض اللغات ، لكن بقي من مخلفاتها على كل حـال : (هان) في الفارسية للتحذير أو التنبيه ، و (ها) في العربية للتنبيه ، و (هاه) للوعيد ، ويا له من تنبيه وتحذير . . .

قلنا ان اللاتينية كانت تستعمل الاشارة أحياناً للتعريف ، وإليك منها هذه الصيغ الهائية الثلاث : haec و hic و hoc (والكاف هنا مبدل من التاء ، كما لا حاجة بنا الى أن نقول) .

لقد افترضنا ان جدنا نزيل الغاب — طيب الله ثراه — قال : (آن شجرة) بمعنى (هذه الشجرة) ثم بمعنى (الشجرة) . ويؤيد هذا الافتراض ما سبق أن قلناه من أن ضمير (آن) قد استعمل أداةً للتعريف فعلاً في لغات اليمن المندثرة. فهنا تنبص لنا لغـــة (أمن آمبرّ آمصيام في آمسفر) المشهورة ، التي سموها طـُمْطـُمانيّة ِحمْيَر ، لتقص علينا حكاية أخرى مفادها ان ميم (ام) التعريف هنا مبدل من نون (ان) التعريف القدمى ، وربما يؤيد هذا أيضاً أنها لغة ِحمْيَر، أي اليمن نفسها .

ولعل هذا الابدال قد جرى عن طريق هذه الحروف الثلاثة (ب، م، ف). وأهل القراءات أعلم الناس بأن النون الساكن ينطق ميماً قبل الحرفين الأولين في مثل : من بعد ما تبين لهم الهدى ، و : من ما رزقناهم (حتى انها لتكتب : ممّا) ، وينطق النون قريباً من الميم قبل الحرف الثالث (الفاء) في مثـــل : ينفقون .

فمن أجل هذا يكتب الأوربيون النون ميماً كما ينطقونه في أمثال هذه الاحوال : ambition و immortal و sympathy و symphony .

وأياً كانت الطريقة التي يكتب بها الاوربيون فان النون والميم من حروف التناوب أو التبادل ، أي ان مخرجيهما متقاربان فلذلك يكثر إبدال أحدهما بالآخر .

وبعد كل هذا لا تثريب علينا اذا نحن استنتجنا أن هذه اللغة الميمية الحميرية قد انحدرت من لغة نونية سابقة كانت تقول : أنـْمكان ، أنـْفِيل ، أنـْبَيْت،

أمِنَ انبِرّ انْصِيامُ في انْسَفَر ! .. ولا سيما اذا تذكرنا أن لغات اليمن القديمة كانت فعلاً تستعمل (آن) اداةً للتعريف ، ولو في آخر الاسم ، ثم انتقلت الى أوله .

وقد بقي من تلك اللغة النونية ان بدو الهلال الخصيب ، وربما غيرهم أيضاً ، ما زالوا يقولون (بيت أنعامر) على حين ان الحَضر ينطقونها : بيت العامر ، و (رَجّال انزين) والحضر ينطقونها : رَجّال الزين ، و (ليل انطويل) والحضر ينطقونها : ليل الطويل . وما زلنا نذكر بدوياً سمعناه قبل ثلاثين عاماً يذكر اسم الأرجنتين ، البلد الذي كان أخوه قد هاجر إليه في صباه ، فينطقه (عِرْج انتين) ظناً منه ان أثل الاسم (عِرْق التين) !

ولا ندري هل نبطت (أل) التعريف عندنا من (أن) أم من (أم) . لكننا نرجح أنها من (أن) ، لان نطق الحروف الشمسية بعد (أل) أشبه بنطقها بعد (أن) منه بعد (أم) .. أي انه يحتمل أن يكون إبدال النون لاماً قد تم بواسطة الحروف الشمسية ، في مثل قولهم : أنذئب ، أنطائر ، أنسماء ...

ومهما يكن فان (أل) هي التي راجت ودامت أداةً للتعريف حتى هذه اللحظة ، لا في المعربة وسائر الاقطار العربية فقط لكن في أوربا وأمريكا أيضاً، نعني في اللغات المنحدرة من اللاتينية : الايطالية والفرنسية والاسبانية .. حيث يظهر اللام أداة للتعريف في عدة صور :

il و la و le و lo و les و los ...

أما في اللاتينية نفسها فقد ذكرنا من اسماء الاشارة التي استعملت للتعريف : haec و hic و hoc ، ونضيف اليها الآن هذه الصيغ اللامية الثلاث : illa و elle و illud (= إل + او + د ، تا) .. ونضيف اليها ايضاً بهذه المناسبة

هذه الصيغ الاخرى : ista و iste و istud ، وسيأتي الحديث عن عروبة هذه الصيغ الثلاث الأخيرة عند الكلام على (ظهور السين) .

ومعنى هذا ان لام التعريف قد استعمل في اللاتينية بمعنى الاشارة ، مما يؤيد ما قلناه آنفاً من ان التعريف أصله الاشارة . وقد استعملوا اللام بمعنى الضمير كذلك مثل : elle (هو) ، illae و illi (هم) .

والأمر شبيه بهذا في بنات اللاتينية فبالاضافة الى استعمال اللام للتعريف في الأمثلة السالفة نجده في الفرنسية مثلاً ضميراً بصيغة il (هو) ، و elle (هي) .. كما نجده أداة (اشارة) بصيغة la (هناك) . وعدا هذا تستعمل أدوات التعريف تلك مع صيغ لامية أخرى كضمائر في بعض الحالات كما في قولهم : montre le moi : أرني اياه .

وقياساً على ما تقدم بنا من الكلام عن الضمائر من أوله يمكننا ان نستنبط من هذا الآن ان كل هذه الصيغ ، وغيرها ، قد كانت موجودة في العربية بهذه المعاني وبمعانٍ أخرى على الأغلب ، ثم اندثر ما اندثر وبقي ما بقي .

وما دمنا بصدد الحديث عن التعريف وأدواته نقول ان الانكليزية قد اختارت لغرض التعريف أحد أسماء الاشارة ايضاً وهو : ذي (the) .

ولما كان اثل التنوين هو (آن) وأثل التعريف كذلك هو (آن) فمن السهل علينا ان نتصور أن التعريف والتنكير كانا شيئاً واحداً اول الامر ، ولا سيما ان (آن) التعريف اليمنية تلحق الاسماء كالتنوين عندنا، بينما (آن — an) التنكير الانكليزية على العكس تسبق الاسم ، كالتعريف عندنا .

ولدينا الآن مثل حيّ على اختلاط التعريف بالتنكير ، وفي لغة واحدة، هي الدارجة المغربية . فهم يقولون : اشتريت واحد الفرّوج (= اشتريت ديكاً)،

وتوصلت بواحد الريسالة (= تلقيت رسالة) ، والمغرب عقد واحد **الاتفاقيات** الاقتصادية المهمة مع الدول العربية (= عقد المغرب اتفاقيات اقتصادية ..) .

هاهنا اقترن الجمع بالإفراد والتأنيث بالتذكير علاوة على اقتران التعريف بالتنكير . ونتيجة الخَلْطة في هذه التعابير وامثالها هي التنكير ، أي أن لام التعريف عاطل عن العمل .. زائد لغوي .

ولدينا مثال حيّ آخر اعظم اهمية من هذا يرينا ان ضمير (ان) بذاته ما زال يستعمل في أول الاسم وفي آخره أداةَ تعريف واداة تنكير ! ونجد ذلك في لغة البدوي الذي ذكرنا انه يقول : (بيت أنعامر ، ورجّال أنزين ، وليل أنطويل) . فالذي يلوح لنا ان استقراء لغته يدل على انه يريد في واقع الامر ان يقول : (بيتن عامر ، و رجّالن زين ، و ليلن طويل) اي انه يقصد **التنوين** ، لكن الحضري يترجم كلامه الى (بيت العامر ، ورجّال الزين ، وليل الطويل) . وقد رأينا ان البدوي نفسه يستعمل (ان) للتعريف أيضاً وفي اول الاسم ، على لغة (عرج آنتين) ..

ولعل هذا يفسر لنا كيف انتقل النون من آخر الاسم الى أوله .

ظهور السين

ظهور السين في الضمائر حدث خطير يمثل بداية مرحلة توسعية في اللغة . ولا ندري ما سبب ذلك الانهماك به حتى تعددت وظائفه وتنوعت كأنما هو واحد من الضمائر البدائية الاصلية .

وكان اول ما لفت هذا السين نظرنا في الاسماء اللاتينية مثل : calamus (قصبة) ، و oceanus (بحر) . ثم عرفنا السين في الاسماء الاغريقية التي

وردت فيها هاتان الكلمتان بصيغة : kalamos و okeanos . وقد تطرق الى وهمنا أولاً ان الضمة التي تسبق السين في امثال هـــذه الالفاظ قد جاءت من الاكدية التي مرّ بنا القول ان الفاظها تنتهي بالضمة بوجه عام . لكن اذا كانت الضمة مقتبسة من الاكدية فكيف ظهر السين نفسه ؟ سؤال طالما تحيّرنا في جوابه .

وعندما تصدينا لدراسة الضمائر بهذه الطريقة الترسيسية المقارنة تبين لنا ان السين ايضاً من العربية ، ولو أن تأثيره التطوري في العربية ضعيف اذا هو قيس بتأثيره في الآريات وتكوين خصائصها وقواعد نحوها .

ونرجح ان هذا السين ليس بالحرف الاثيل مثل (آ ، نا، تا)، ولا هو بالحرف الزائد كالحاء في (نحن) ، وانما هو مُبْدَل من التاء ، اي أن (اوس — us) في اللاتينية = او (آ) + س (ت ، تا) . وبعبارة اوضح ان (اوس — us) أثلها (أوت) !

وإلصاق الضمائر بالالفاظ — تصديراً او تذييلاً — أمر لم يعد يحتاج فيما نظن الى برهان ، فهي ظاهرة قد عرفناها وألفناها بعد الذي رأينا من امثلة كثيرة . وقد رأينا ضمير (أت) يلتحق بالاسم أداةً للتأنيث ، و (آت) — بالمدّ — أداةً لجمع المؤنث السالم .

ومثل ذلك فعلوا بضمير (أوت) الذي ألحقوه ببعض الاسماء دلالة عـــلى المصدرية مثل : كهنوت ومَلَـكوت . ومن يدري ، لعل calamus و genius و camelus و gelidus في اللاتينية انمـــا هي من قول بعض العرب البائدة : جَمَلـُوت و جِنـّيُّوت (جِنـّي) وقلموت وجَاليِدوت .. بل لعلهم نطقوها جملوس وجنـّيُّوس وقـَلـَموس وجليدوس ، ايضاً .. ثم اندثروا واندثرت معهم لهجتهم لولا بقاؤها في اللاتينية والاغريقية .

وكما نجد ضمير (آت) في العربية مفتوح الهمزة في (أخَوَات) ومضمومها

(أوت) في (جبروت) نجده مكسورها (إيت) أيضاً في (عِفريت نِفريت) ، زادوه في (العِفر والنِفْر) توكيداً للمعنى وتقويةً لوقعه في النفس .

ان تبادل التاء والسين ليس بدعاً في العربية فمنه : التَهْو والسهو ، خات بالعهد وخاس ، الترتُّل في القراءة والترسُّل . . ومنه أيضاً : النات والناس ، والاكيات والاكياس (من الكياسة) على لغة بعض العرب. وقد قال شاعرهم :

لا بارك الله بني السعلاةِ
عمرو بن يربوع شرار النات
ليسوا بأخيار ولا أكيات !

ونزعة إبدال التاء سيناً تظهر في اللاتينية ايضاً ، بل هي قاعدة مطردة في بعض الحالات ، وقد انتقلت الى بعض اللغات الاوربية الحديثة ومن ذلك مثلاً nation التي تنطق تاؤها سيناً بالفرنسية وشيناً بالانكليزية .

يضاف الى ذلك أن ضمير (أتـّا – atta) الذي يعني بالاكدية (انت) يُنطـَق بالايطالية (اسّا – essa) بمعنى هي ، و (اسو – esso) بمعنى هو .

اس – us :

ولا نستغرب اذا وجدنا هذا الابدال بين الحرفين قد وقع في العربية نفسها قبل انتقال الضمير الى اللاتينية . فالواقع اننا نجد بعض الاسماء العربية قد زيد فيها (آس ، واوس ، وايس) مثل (القُسطاس) – بضم القاف او كسره : الميزان ، من القسط : العدل . . و (القُدموس) : القديم . . و (العِتريس) : الجبار الغضبان ، من العَتـْر : القوة والشدة . . وغيرهـا . تقابلها في اللاتينية اسماء اضيف اليها هذا الضمير بصوره الثلاث ، مثل : habitas (مقدرة) . . و justus (عادل ، وأثلها القُسطاس الآنفة الذكر) . . و carnis (لحم) .

ويطالعنا هذا الضمير في العربية بصيغه السينية الثلاث واضحاً صريحاً في كلمة واحدة هي (الاسّ) - بفتح الهمزة وضمها وكسرها ! - بمعنى الاصل والاساس . واستعماله بهذا المعنى لا يثير عجبنا لان اطلاق الضمير العام على الامور الجوهرية (الاساسية) مألوف في اللغات . وقد أطلق المتصوفة العرب مثلاً ضمير (هو) على ذات الله ، وطالما رددوا في اذكارهم : يا هو ، يا هو ..

وكذلك فعل الاكديون يوم أطلقوا ضمير (ايا — Ea) على (الماء العذب) أكبر آلهتهم ، ونفس الكلمة (ea) تعني باللاتينية ضمير الغائبة وتنطق بالعربية (هي) !.. وواضح ان اللفظة انما كانت قد أطلقت على الاله البابلي الكبير عندما كانت تعني عندهم الضمير العام ، او ضمير الغائب المذكّر كما في الانكليزية: (هي — he) : هو .

ومن صور (الاسّ) نجد في الايطالية ضمير essa (هي) و esso (هو) اللذين سبق ذكرهما . ومن صور (الاسّ) في اللاتينية (اسّه : esse) — بتشديد السين ايضاً — بمعنى يكون . ومنها في اللغات الاوربية الحديثة essence بمعنى يقارب المعنى العربي : الذات ، العنصر ، الخلاصة .

والحقيقة ان الكلمة تعني الضمير والكينونة والوجود بالعربية ايضاً في صورة (أيس) الباقية لدينا في (ليس) ! وما نقول هذا من عند نفسنا وانما هو أمر معروف عند أهل الصنعة ، وقديماً قال لغويّنا الكبير الفراهيدي — الخليل بن احمد — انّ (ليس) أصلها (لا أيس) مستشهداً بقول العرب « إئتني به من حيث أيس ولا أيس ، أي من حيث هو ولا هو » . وقوله « من حيث هو ولا هو » يدل على ان (ايس) ضمير فعلاً . يؤيد ذلك انه ورد في الفارسية بصورة (اش) ضميراً متصلاً بمعنى (هو) ايضاً . وجمعه (إيشان) .

وظائف السين :

ويتوزع السين على كثير من الالفاظ الاوربية ، يتصدرها حيناً من قبيل

(se) التي تسبق بعض الافعال في الفرنسية – وغيرها – بمعنى نفس او ذات ، مثل : se lever : يرفع نفسه (= ينهض) ، و s'appeler : ينـــادي نفسه (= يتسمّى ، يُدعَى) .. ويذيّلها حيناً كالسين الذي يلتحق بأواخر الاسماء علامةً للجمـــع في الفرنسية والانكليزية والاسبانية ... وسين الاضافة في الانكليزية (s') .

ويحتل السين مكانة خاصة غريبة في الجملة الانكليزية ، فهو يلتحق بالفاعل علامة جمع او بالفعل علامة إفراد ! المهم ان هذا السين لا بد منه في الجملة الفعلية المضارعة فان لم يظهر على الاسم ظهر على الفعل ليؤدي في كل من الحالتين وظيفة مناقضة للأخرى . تقول : The girls play : الصبايا يلعبن . فاذا أردت ان تقول : الصبيّة تلعب ، حيث لا يمكن استعمال السين للجمع اضطررت الى سحبه من آخر الاسم الى آخر الفعل فتقول: The girl plays . كذلك الحال في قولك: The girls have played : لعبت الصبـــايا ، و : The girl has played : لعبت الصبيّة . وكذلك الحـــال في الجملة الاسمية ايضاً حيث تقول : The girls are playing : الصبايا لاعبات ، و : The girl is playing : الصبية لاعبة .. كأنما السين هو ملح الارض بالنسبة الى الجملة الانكليزية لا غنى عنه في طعـــام سائغ ، أي عبارة سليمة .

وهذا الفعل المساعد (is) الذي يظهر في الجملة الانكليزية الاسمية يذكّرنا بنظيره (آس) في الفارسية الشيرازية الذي يؤدي نفس المعنى في الجملة الاسمية ، مثل : هَوَا سَرْدَ اسْ (= الهواء صَرْد ، أي : الجوّ بارد) .

فعل الكينونة

هنا تُطلّ علينا برأسها ظاهرة لغوية خطيرة تجيبنا على هذا السؤال الذي

طالما ألحّ على أذهان اللغويين فلم يجدوا له جواباً : كيف حدث ان اصبحت الجملة الاسمية في الآريات تعتمد على فعل الكينونة ، خلافاً للساميّات ؟

في الآريات لا يقولون : أنا هنا ، بل يقولون : أنا أكون هنا . ولا يقولون: الغائب معذور ، والمؤمنون اخوة، وأنتم الناس أيها الشعراء .. وانما هم يقولون: الغائب (يكون) معذوراً، والمؤمنون (يكونون) اخوة ، وأنتم (تكونون) الناس أيها الشعراء .

وبتعبير آخر لا توجد في الآريات جملة اسمية لانهم يُدخِلون في الجملة الاسمية هذا الذي يسمونه الفعل المساعد بمعنى (كائن) او (يكون) ليستقر التعبير ويستوي عندهم .

أفليس عجيباً جداً ان تكون هذه الخصلة التي تعتبر في طليعة الخصائص التي يذكرها علماء اللغة بين الخصال التي تتميّز بها اللغات الآرية عن العربية وبقية الساميات – أفليس عجيباً جداً ان تكون منحدرة من أرومة عربية صميمة ؟

اذا تحرينا فعل الكينونة للغائب في الآريات – الانكليزية والفرنسية والفارسية – وجدنا انه من (الاسّ) الذي مرّ بنا حديثه . وهو يطالعنا بصورة (est) في الفرنسية ، و (أست) في الفارسية ، و (أس) في فارسية شيراز ، و (is) في الانكليزية . وهذه الأخيرة علاقتها واضحة لفظاً ومعنى باللاتينية (esse) – يكون – ومن ثم بالعربية (ايس) و (اسّ) .

وأما صيغة (است) في الفارسية والفرنسية فيدهشنا ان نجدها في العربية ايضاً (الاست) بمعنى الاساس والاصل ، أي انها متطورة من (الاس) بنفس معناها . وبعبارة أخرى ان (است – est) في الفارسية والفرنسية ليست تطويراً آرياً لكلمة (الاس) وانما هي اقتباس مباشر من التطوير العربي ، وانّ كل ما فعلته الآريات هو انها تشبثت بهذه الكلمة بصيغتيها (الاس والاست)

حتى جملتها لازمة للجملة الاسمية مثل لزوم الشين الذي تشبثت به اللهجة المصرية والمغربية في حالات النفي .

ومهما يكن فاننا نجد الصيغتين (أس وأست) كلتيهما في الفارسية بمعنى الكينونة للغائب ، فهم يقولون (كتاب مفيد است) بالفارسية الرسمية ، و (كتاب مفيد اس) بلهجة شيراز . وكنا نظن لغة شيراز هذه عامية مخففة من الفصحى ، غير اننا صرنا لا نستبعد ان تكون لغة شيراز أثيلة مستقلة أي انها من (الاسّ) مثل (is) الانكليزية و (esse) اللاتينية ، كما ان (است) الفارسية ونظيرتها (est) الفرنسية أثلهما (الاست) .

وجدير بالذكر ان همزة (اس واست) تكون في الفارسية همزة وصل في مثـــل (كتاب مفيد اس ، او مفيد است) فانهم ينطقونها : مفيدَسْ ، ومفيدَسْتْ . وانما تكون همزة قطعٍ اذا سبقتها هاء ساكنة في مثل : (آن عمارت مدرسه أست) أي : تلك العمارة مدرسة .

واذا اتخذنا هذا منطلقاً لدراسة نشوء فعل الكينونة في الآريات نجد في هذه العبارة مثلاً ان (أس ، وأست) كانا ضميرين يلحقان بالألفاظ الفارسية بمعنى (هو) . ويؤكد ذلك لنا ان (أسْ) ما زال ضميراً متصلاً بهذا المعنى في الفارسية بصورة (أش) الذي قلنا ان أثله (أيس) العربي ، او (أسّ) .

لكن فعل الكينونة ، او ضمير الكينونة - والأفضل ان نسميه (أداة) الكينونة تسهيلاً للتعبير ودفعاً للالتباس - نعم ان أداة الكينونة تختلف صيغها باختلاف حالات الإفراد والجمع لكل من المتكلم والمخاطب والغائب ، أي ان كل واحد من الضمائر المنفصلة له أداة الكينونة الخاصة به، وهي في الفارسية نفس الضمائر المتصلة بالأفعال في مختلف تلك الحالات .

الكينونة في الفارسية :

ولعل الفارسية اقدر اللغات الآرية على ارشادنا الى كيفية نشوء ادوات الكينونة . وايضاحاً للفكرة ندرج فيما يلي الضمائر المنفصلة في الفارسية يلي كلاً منها نظيره المتصل (الذي هو في الجملة الفعلية ضمير متصل وفي الجملة الاسمية اداة كينونة) :

	الضمير المنفصل	المتصل (والكينونة)
أنا	مَن	أم
نحن	ما	إيم
انت	تو	إي
انتم	شُمَا	إيد
هو	أُو	أست (أس)
هم	إيشان	أند

ففي الجملة الفعلية نقول :

رَفْتَمْ ، رَفْتَه أمْ	ذهبتُ (انا)
رفتِيم ، رفتَه إيم	ذهبنا
رفتي ، رفتَه إي	ذهبتَ (المخاطب او المخاطبة)
رفتِيد ، رفتَه إيد	ذهبتم
رَفْتْ ، رفتَه أسْتْ	ذهب
رفتَنْد ، رفته أند	ذهبوا

وفي الجملة الاسمية نقول :

مُتَشَكِّرَمْ	شاكرٌ أنا
متشكريم	شاكرون نحن
متشكري	شاكر انت
متشكريد	شاكرون انتم
متشكر است	شاكر هو
متشكرَ نـْد	شاكرون هم

ويلاحظ ان الضمير المنفصل لا يستعمل عادة في الجملة الفعلية عند وجود الضمير المتصل الذي يؤدي معناه ، فلا يقال : نحن كتبنا ، وهم ذهبوا ، إلا في حالات التأكيد . وانما نقول عادة : كتبنا ، وذهبوا ، ورأيتا . .

وليس هـــذا قاصراً على العربية بل الامر كذلك في الفارسية واللاتينية وغيرهما من اللغات التي توجد فيها ضمائر واضحة متميزة ، متصلة بالافعال .

ان بعض اللغات لا توجد فيها ضمائر متصلة اصلاً كالانكليزية التي توجد كل الضمائر فيها منفصلة . اما العربية فقد أخذت بنظام وصل الضمائر بالافعال لتدل السامع على من يخبر عنه الفعل . لكن الضمائر لا تتصل بالاسماء في العربية . واما في الفارسية فتتصل الضمائر بالاسم ايضاً ، اي الصفة او ما هو في حكمها من التعابير ، وهو ما سماه النحاة العرب خبر المبتدأ — لتؤدي نفس الوظيفة ، أي لتدل السامع على الشخص او الشيء الذي تدل عليه الصفة كما رأينا في تعابير : متشكرم ، متشكريم ... (شاكر أنا ، شاكرون نحن ...) .

ومما يؤيد ان ادوات التكنين اصلها الضمائر ويزيد الامر وضوحاً هو أن

الضمير في التركية يعاد بنفسه في بعض الحالات لاداء معنى التكنين . مثال ذلك قولك : من الفائز بالجائزة ؟ فاذا كان الجواب : (انت) كرروا الضمير فقالوا: (سن سن – sen sen) ، واذا كان الجواب : (انتم) قالوا (سز سز – siz siz) . وفي كلتا الحالتين تؤدي اللفظة الاولى معنى الضمير وتعمل الثانية كأداة تكنين .

وكانت النتيجة ان الضمائر التصقت بالاسم – خبراً كان أو مبتدءاً – كما التصقت بالفعل ، واصبحت ضرورية لتركيب الجملة الاسمية ولو لم يكن المعنى بحاجـــة الى وجودها عند ذكر الشخص المقصود بها . اي انها فقدت وظيفتها واكتسبت وظيفة اخرى رمزية اشبه بوظيفة شين النفي الذي اصبح ضرورياً في الجملة المنفية . وبتعبير اوضح قليلاً ان اداة الكينونة بالنسبة الى المتكلم العربي ليست الا (زائداً لغوياً) بقي مستعملاً في الآريات بحكم العادة والاستمرارية . فنحن نقول (الكتاب مفيد) دون ان نشعر ان هذا التعبير ينقصه شيء ليتم أو يستوي . لكن المتكلم الايراني لا يشعر باستواء التعبير وراحة النفس ما لم يضف ضمير الكينونة (است) ، فعندها يقـــول (كتاب مفيد است) ويتنفس الصعداء .. شأن المصري الذي يشعر بعدم الارتياح اذا قال (مالي دعوه) وانما يستقر الامر في نصابه عندما يقول (ما ليش دعوه). وهذا شأن سائر الناطقين بالشين طبعاً من مغاربة وغيرهم ، ان كان هناك غيرهم .

حتى في العربية كثيراً ما تستعمل الضمائر حشواً لا ضرورة له في مثل قولنا: الجيش (هو) سياج الوطن، الاطفال (هم) رجال المستقبل، أمُّ الطفل (هي) مدرسته الاولى . وفي الاستفهام : من (هو) ابوه ، وما (هي) الاسماء الخمسة، ومن (هم) الشعراء الذين تفضلهم ؟ ومعلوم ان هذه الجمل تكون أفصح لو أسقِطت منها الضمائر .

وقد اخذ المحدثون يكثرون من إقحام هذه الضمائر دون داع بعد ان كادت

تنعدم في المأثورات العربية بدافع نزعة الايجاز ، إلا في حالات التوكيد ونحوه . فاذا تمادت الاجيال القادمة في استعمالها فلا يستبعد ان تصبح في العربية لازمة لتركيب الجملة الاسمية في المستقبل .. بحكم العادة والاستمرارية .. أي (أداة كينونة) !

فاذا كان القارىء الكريم يتفق معنا في القول بأن أدوات الكينونة انما هي ضمائر في الأثل – ونحسب الأدلة السالفة كافية لاقناعه بذلك – فلا بد ان ذلك يستتبع اتفاقه معنا كذلك على ان العبارات الآنفة: الغائب معذور، والمؤمنون اخوة ، وأنتم الناس .. لا تعني في الآريات : الغائب (يكون) معذوراً ، والمؤمنون (يكونون) اخوة، وأنتم (تكونون) الناس .. كالذي يظن نحاتهم ، وانما الصحيح ان معناها الحقيقي ، الأثلي : الغائب (هو) معذور ، والمؤمنون (هم) اخوة ، وأنتم (أنتم) الناس أيها الشعراء ..

وهذا يَصْدُق على الآريات الاوربية التي يقع فيها ضمير الكينونة بين المبتدأ والخبر ، أما في الفارسية التي يقع فيها ضمير الكينونة عادة بعد الخبر فتكون ترجمة العبارات المذكورة بالنسبة اليها هكذا : الغائب معذور هو ، المؤمنون اخوة هم ، أنتم الناس أنتم . وتكرار ضمير (أنتم) هنا يناظر تكراره في التركية آنفاً : siz siz .

وانما سموها أفعالاً في اللغات الأوربية كالانكليزية والفرنسية – لأنهم وجدوا لها صوراً للماضي غير صيغ المضارع والمستقبل فتوهموا ان اختلاف الصور نوع من الصرف . ومع هذا شعر نحاتهم – النحاة الانكليز مثلاً – انها ليست أفعالاً حقيقية بالمعنى الصحيح فسموها (**أفعالاً مساعدة**) .

وصفوة القول انها ضمائر انقلبت شبه أفعال. أي انها ضمائر فقدت ضميريتها، ثم اصبحت أفعالاً بلا فعلية .. لها من الفعل تصريفه الزمني وليست لها دلالته على عمل شيء .

ان أداة الكينونة شيء لا هو بالضمير حقيقة ولا هو بالفعل واقعياً –

خنثى – او هي شيء بين الفعل والضمير ، أشبه بالحيوان النباتي .. كالحيوان يتحرك ويصيد ، وكالنبات ثابت في الارض لا يملك انتقالاً من موضعه .

الكينونة في سائر الآريات :

على ان نشوء أدوات الكينونة من الضمائر في سائر الآريات ليس بمثل هذا الوضوح والاطّراد الذي شهدناه في الفارسية . فان أدوات الكينونة فيها – في الانكليزية والفرنسية والايطالية مثلاً – ليست هي الضمائر المتصلة نفسها ، وانما هي ضمائر أخرى اختيرت ، بطريق الانتخاب الطبيعي في التطور ، من الصيغ الكثيرة المتنوعة التي تَوالَّد بعضها من بعض بسبب تبلبل الألسنة واختلاف اللهجات .

وندرج فيما يلي أدوات الكينونة في الانكليزية المستعملة مع مختلف الضمائر :

أنا : am = آ + م ، ما ، نا .

نحن : are = آ + ر (زائدة ، او مبدلة من اللام : نا)

أنت : art = آ + ر (كذا) + ت ، تا

أنتم : are = (آنفاً)

هو / هي : is = إي ، آ + س ، ت ، تا

هم : are = (آنفاً)

وأما في الفرنسية فان أدوات الكينونة كما يلي :

أنا : suis = سو ، تو ، تا + إي ، آ + س ، ت ، تا

نحن : sommes = سو ، تو ، تا + م ، ن ، نا + إي ، آ + س ، ت ، تا

أنت : es = إي ، آ + س ، تا

أنتم : ettes = إي ، آ + ت ، تا + إي ، آ + س ، تا

هو / هي : est = است = آ + س ، ت ، تا + ت ، تا

هم : sont = سو ، تو ، تا + ن ، نا + ت ، تا

فعل التملك

ونضيف الى حديثنا هذا عن (أفعال) الكينونة كلمة عن (افعال) مساعدة اخرى شبيهة بها في الآريات وقد ترجموا اسمها الى العربية : (افعال التملك) ، لكننا نؤثر ان نسميها (ادوات العِنْدِيّة) لان ترجمة هذه الافعال ليست (انا املك ، انت تملك) .. ولكن (عندي ، عندك) ..

والآريون يضيفون هذه الادوات الى الفعل لتزمينه اي لتحديد زمنه . وهي على اختلافها في الآريات تنتمي أثلاً الى الضمائر أيضاً .

وادوات العندية – في الانكليزية والفرنسية مثلاً – ضمائر خاصة بوظيفة

تزمين الفعل ، وانما سموها افعالاً كأدوات الكينونة لان صيغها تختلف كذلك باختلاف زمان الفعل .

وندرج فيما يــــلي ادوات التزمين في الانكليزية مع مختلف الضمائر في حالة المضارع :

أنا ، نحن ، انتم ، هم : have = ها ، آ + و ، آ

أنت : hast = ها ، آ + س ، ت ، تا + ت ، تا

هو ، هي : has = ها ، آ + س ، تا

وأما في الفرنسية فأدوات التزمين للمضارع كما يلي :

أنا : ai = اى ، آ

نحن : avons = آ + وو ، آ + ن ، نا + س ، ت ، تا

أنت : as = آ + س ، ت ، تا

انتم : avez = آ + وي ، آ + ز ، ت ، تا

هو ، هي : a = آ

هم : ont = او ، آ + ن ، نا + ت ، تا

دور العربيــــة

والذي نتوهمه بعد كل الذي رأيناه من نشوء الضمائر وتطوراتها وهجراتها ان

ظاهرتي التزمين والتكنين هاتين ليستا من صنع الآريات وانما هما من نتاج المصهر اليعربي . ولا نقصد (أدوات) التزمين والتكنين نفسها ، فان هذه الادوات وغيرها قد فرغنا من إثبات عروبتها ، لكننا نقصد الآن عروبة ظاهرتي التزمين والتكنين كقاعدتين لغويتين .

لقد رأينا ان هذه الآريات انما تتفق في وجود هاتين القاعدتين فيها لكنها تتباين في الطريقة وتختلف في الادوات التي تستعملها لهذا الغرض — مما يدل على وحدة اصولها مع تعدد فروعها . أي ان الآريات قد استقت الفكرة (القاعدة) من منبع واحد . وما دامت الادوات نفسها عربية فلنا ان نظن ان هذا المنبع الواحد الذي صدرت عنه (القاعدة) هو العربية .

والظاهر ان الاعربين الأقدمين كانوا يستعملون أدوات التزمين والتكنين ، لكن كل طائفة منهم استعملت ضمائرها الخاصة بها .

وقد خضعت هذه الادوات التزمينية والتكنينية لما خضعت له سائر الضمائر والمفردات اللغوية من تشابه وتباين وتحريف لفظ وتحوير معنى بنتيجة تطورات الاختلاط والتنقل .

وقد هاجر من المعربة نفر من كل طائفة من تلك الطوائف، في أوقات مختلفة، وحملوا معهم آثاراً من كل ذلك بقي منها ما بقي في الآريات . أمـــا في المعربة نفسها فقد اندرس ما اندرس من تلك اللهجات ، إما لان اصحابها قد غادروا المعربة كلهم ، وإما لان من بقي منهم فيها قد اندمج في المجموعة اللغوية التي خلفتها لنا الاحقاب . ولا سيما ان نزعة الايجاز والتركيز أخذت تسيطر على العربية وتتمكن من ألسنة اصحابها فأسقطوا الادوات التوكثئية أي التي يتوكأ

عليها المتكلم في كلامه، ومن جراء ذلك سماها الانكليز وغيرهم بالافعال المساعدة (auxiliary verbs) كالذي قلنا .

ولعل حركات الاعراب التي رأينا آنفاً انها من بقايا الضمائر كانت قد استعملت في العربية أول الأمر للتزمين او التكنين او كليهما في حقبة ما ثم تغيرت وظيفتها. ويلاحظ ان حركات الاعراب داخلية في الجملة العربية ، أي انها توجد في داخل الجملة فقط ، أما اذا وقعت احداها في آخر الجملة فحكمها ان تحذف او تخفف ، وذلك بحذف حركة آخرها ان كانت متحركة وحذف النون منها مع الحركة التي تسبقه ان كانت منوّنة (عدا الفتحة التي تبقى بعد حذف النون) .

وما هذا الحذف إلا امتداد لنزعة الايجـــاز التي قضت على ادوات التزمين والتكنين وغيرهما في العربية على مـــا يظهر .. بينما اللغات الاخرى التي كانت تحرك أواخر الكلمات كانت تحتفظ بالحركة عادة حتى عند الوقف كالاكدية التي كانت تضم أواخر الألفاظ والأرَمية الغربية التي كانت (ترقفهـــا) والأرَمية الشرقية التي كانت تفتحها — كالذي مرّ بنا حديثه .

على ان بعض الاعربين كانوا قد اسقطوا حركات الإعراب ايضاً بوجه عام ، ثم صار ذلك شأن العرب أجمعين في لغاتهم الدارجة اليوم . وهذا امتداد آخر لنزعة الايجاز ، وقد ساعدت عليه مخالطة الأعاجم . ولولا الاسلام والقرآن وما جرى بسببهما من جمع وتدوين ووضع قواعد لمـــا عرفنا اليوم شيئاً عن هذه الفصحى التي ننفق ما ننفق من جهد في تعلم صرفها ونحوها ، بل لأنفقنا مثـــل هذا الجهد في تعلم الدارجة المحلية بدلاً منها، ولضاع علينا كل التراث الجاهلي وكل ما قام عليه من تراث .

ولئن كانت العربية قد تخلصت من هـــذه الرواسب اللغويه التطورية — التكنينية والترمينية — التي احتفظ بها ابناء عمومتنا الآريون ، فان حركات

الاعراب ليست هي الاخرى إلا رواسب تطورية مشابهة في العربية ، وما تزال آثار منها متخلفة في بعض اللغات الاوربية كما قلنا آنفاً كالالمانية والروسية وغيرهما .. لكن بدرجات متفاوتة وطرائق مختلفة .

والنتيجة النهائية التي حصلت بيدنا الآن هي ان بعض اللغات احتفظت بالتزمين والتكنين وتخلصت من الاعراب كالفارسية والانكليزية .. وبعضها احتفظت بالاعراب وتخلصت من التزمين والتكنين كفصحانا العربية .. وبعضها احتفظت بالتزمين والتكنين بالاضافة الى حركات الاعراب كالالمانية .. وبعضها تخلصت من هذه الرواسب جميعاً كلغاتنا الدارجة بوجه عام .

الفصحـــى

واذا سئلنا الآن أيها نفضّل ؟.. لم نتردد في ايثار فصحانا . ولا نحب الدخول في جدال طويل بهذا الشأن . فربما كان سبب ايثارنا اياها عاطفياً محتاً لانها لغتنا التي ألفنا القراءة والكتابة بها، ولسراوتها بالقياس الى مستوى العاميات. وربما كان سبب ايثارنا لها ما تمتاز به حقاً من رصانة وعمق ودقة ومرونة وتركيز .. مع ذخيرة هائلة من المفردات والتعابير .. عدا ما فيها من اسرار الاشتقاق وروائعه .

أما الاعراب فلا نعدّه من سيئات الفصحى ولا سيما ان الاقدمين قد خفّفوا وطأته لنا بالتخلي عنه في أواخر الكلام أي بالوقف على السكون . وأما وجود الحركات في داخل الجملة فالأغلب انه لا ينافي الاقتصاد في اللفظ لان الاوربيين أنفسهم لا يجدون مناصاً عند التقاء ساكنين من تحريـــك أولهما بكسرة خفيفة كالذي نفعله نحن في دارجاتنا .. حتى ان ضرورة التحريك هذه قد

جعلت بعض القدامى من اللغويين العرب يظنون ان حركات الاعراب انما نجمت من هذه الضرورة .

لكن هذا لا يمنعنا من القول ان بعض قواعد الاعراب والبناء بحاجة الى شيء من تعديل وتنسيق وتنقية من الشوائب والشواذّ ، من مخلفات الاعتباط التطوري وفوضى اختلاف القوم في نطق الالفاظ وتحديد معانيها وما الى ذلك من رواسب التطور اللغوي .

وقد حقق نُحاتُنا الرواد الاوائل من ذلك ما يستأهلون عليه الثناء والتقدير حين نفوا الكثير من بدوات اللهجات الخاصة ونبذوا بعض النواشز آخذين بالأعم الاغلب .

وأحسبنا الآن بحاجة الى اعادة الكرّة ليُتِمَّ نحاتُنا المعاصرون ما بدأه اسلافهم فيجاروا ضرورات العصر تنسيقاً وتعديلاً وتيسيراً ، فان تنوّع العلوم اليوم جعل وقت التلميذ أثمن من ان ينفقه في تعلم ما لم يستطع أحد ان يتعلمه كاملاً من قواعد الصرف والنحو على حالها الحاضرة ، التي يتطلب التخصص فيها من الزمن ما يكفي للتخصص في الطب او الذرة .

وعسى ألا يتوهم متوهم اننا بهذا نقضي على لغتنا او نهدم حياضها ، وانما تعقيد قواعدها وصعوبة تعلمها مع ضيق وقت التلميذ هو الذي سيُفضي الى انحلال العربية وضياعها كالذي اصاب اللاتينية وغيرها . وكلنا يرى الآن انفلات الكثيرين من قواعد اللغة وتهربهم من قيودها . فاذا لم يتدارك المتداركون هذه العربية فستنقلب فصحانا المشتركة بين أناس العالم العربي قريباً الى عامية مشتركة .. ولسوف يقيم ذلك سداً يحول بيننا وبين تراثنا التليد .

ولا سبيل لنا الى المحافظة على لغتنا وتراثها وانقاذ ما يمكن انقاذه منها إلا بنشر تعليمها ، ولا سبيل الى نشر تعليمها إلا بتيسيرها . وقد تحدث الكثيرون

فيما ينبغي نبذه او تعديله من قواعدها فلا حاجة بنا الى الافاضة فيه . لكن الذي نقوله الآن هو ان حَفَظَة اللغة ان لم يفعلوا من ذلك ما تدعو اليه ضرورة العصر على هدى وبصيرة ، فعل ناشئة الجيل منه ما شاؤا على نطاق اوسع وعلى غير هدى وبصيرة . فلنختر من الحالين أيتهما شئنا .

ايجـــاز العربية

نزعة التركيز والايجاز في العربية قد اعترضت مسيرتنا غير مرة في حديثنا هذا عن الضمائر واسرارها . فما مأتاها ؟

ما اكثر ما قرأنا من خطب الجاهلية والاسلام من رسائل الخلفاء الراشدين مثلاً ووصاياهم وبعضها يتطلب الايضاح والتفصيل كأوامرهم في خطط الحرب دفاعـــاً او هجوماً — قرأنا من كل ذلك وغيره ما هو ادخل في باب الرمز والاحاجي احياناً ، بالنسبة الينا، فلا يكاد يُفهم لفرط ايجازه ودقة بنائه . ومن هنا كانت البلاغة عندهم الايجاز . ومن هنا كان العربي يفهم بالايماءة واللمحة . وان كثرة الاخبار العربية في هذا الصدد لتنبىء بمبلغ اهتمامهم به ومقدار خطره عندهم .

هذا التركيز في المعاني الكبيرة يوعبونها العبارات الصغيرة كأنها حبوب الطعام المركّز للرحلات القطبية او الفضائية — يبدو أنه امتداد لنزعة عربية قديمة نسبياً ، نجد آثارها في إسقاطهم بعض ادوات الكلام التي تعتبر ضرورية في التعابير الاعجمية بوجه عام . من ذلك مثلاً قولك: لا احب الرجل يهزل وقت الجد (بدلاً من : لا احب الرجل الذي يهزل وقت الجد) .. وقولك : ذهبوا يجاهدون (بدلاً من : ذهبوا كي يجاهدوا) .. وقولك : شرعت أقرأ (بدلاً من : شرعت ان أقرأ) ...

ان إسقاط (الذي) و (كي) و (أن) يجعل الكلام في العربية أفصح وأوقع إلا انه لا يجوز في الانكليزية مثلاً .

فــلا عجب أن تَخلّى العرب عن ادوات التكنين والتزمين وهي أشبه بالزوائد اللغوية منها بأي شيء آخر .

والظاهر ان الجفاف وتحول الجنّة العربية الى صحراء قاحلة محترقة محرقة جيلاً بعد جيل، وما استتبع ذلك من قسوة الطبيعة ومشاكل العيش وأخطاره وغزواته ومفاجئاته جعلت القوم أميل الى الاقتصاد في الكلام ولا سيا في الحالات التي تتطلب المسارعة والمبادرة الى عمل أو قتال أو فرار.. وذلك شبيه باقتصادهم عند السفر في طعامهم وتركيز زادهم في سويق أو تمر أو قديد او نحو ذلك مما خفّ حمله وغلَت قيمته الغذائية .. كالذي قلناه عن اهل الرحلات البعيدة المنقطعة من معاصرينا ، لأن حياتهم – العرب – كلها رحلة وانتقال في تلك الفيافي ، المنقطعة غالباً .

لهذا نجد البدوي يتكلم نتلاً ، فاذا هو حدثك عن شيء مهما يكن تافهاً او بعيداً عن الإثارة كقوله مثلاً : شربت الماء ، او سأنام ، او طارت الجرادة ، او مات جدي قبل ستين سنة.. تلحظ أنه يقول ذلك بألفاظ قوية اللحن يقذفها من فمه قذف الحجارة من المقلاع ، وبنبرة اشبه بلهجة الأمر منها بلهجة الخبر ، كأنما هي الايعازات العسكرية الفورية في ساحة المعركة . وكأنما هو يقول لك: شبّ الحريق .. ها هو العدو .. إضرب .. إركب .. أسرِع ..

ومن اجل ذلك أسقطوا الحركات والنون من أواخر أفعال الأمر والنهي ، كالذي ذكرناه في أوانه .

هذا ما يعنّ لنا الآن في تعليل خصلة الايجاز التي تتّسم بها العربية ، نذكره بتحفظ ، وقد يكشف لنا البحث عن نواح اخرى فيه في المستقبل.. والله أعلم !

الضمائر الآريّـــة

جميع الضمائر ، نعم جميعها ، يمكن ارجاعهـــا في الفارسية والانكليزية والفرنسية والايطالية ، الى عناصرها الاولى من العربية . ومثل هذا يقال بشأن الكثير من الضمائر في لغات آريات اخريات ، وغير آريات ، بله الحاميّات والساميّات .

فأما في الفارسية فهي :

أنا : مَنْ = ما ، نا + ن ، نا

نحن : ما = ما ، نا

أنت : تو = تو ، تا

أنتم : شُما = شو ، تو ، تا + ما ، نا (وكأن « شُما » من التاء والميم في قولك بالعربية : نظرتُما)

هو ، هي (للعاقل) : أو = آ

هو ، هي (لغير العاقل) : آن = آ + ن ، نا

هم : آنان = آن (آ + نا) + آن (آ + نا)

هم : ايشان = إي ، آ + ش ، تا + آن (آ + نا)

هم (لغير العاقل) : آنها = آ + ن ، نا + ها ، آ

وأما في الانكليزية فهي :

أنا : I (آي) = آ

نحن : we (وِي) = إي ، آ

أنت : thou (ذاو ، أثلها السكسوني : ذو – thu) = ذو ، تو ، تا

أنتم : you (يو) = او ، آ

هو : he (هِي) = اي ، آ

هي : she (شِي) = تي ، تا

هو ، هي (لغير العاقل) : it = إي ، آ + ت ، تا

هم : they (ذَيْ) = تي ، تا

وأما في الفرنسية فهي :

أنا : je = يى ، اي ، آ

نحن : nous = نو ، نا + س ، ت ، تا

أنت : tu = تو ، تا

أنتم : vous = يو ، كالانكليزية ، او ، آ + س ، ت ، تا

هو : il = اي ، آ + ل ، ن ، نا (راجع لام التعريف آنفاً)

هي : elle = اي ، آ + ل ، ن ، نا

هم : ils = اي ، آ + ل ، ن ، نا + س ، ت ، تا

هن : elles = اي ، آ + ل ، ن ، نا + س ، ت ، تا

وهي في الايطالية :

أنا : io (إيُو) = اي ، آ + يو ، او ، آ

نحن : noi (نـُو ِيى) = نو ، نا + اي ، آ

أنت : tu = تو ، تا + او ، آ

أنتم : voi = يو ، آ + اي ، آ

هو : esso = إي ، آ + سو ، تو ، تا

هي : essa = اي ، آ + سا ، تا

هم : loro = لو ، نو ، نا + رو (لعل أثلها : لو ، نو ، نا)

الضمائر الصينية :

ولا نجد بأساً باضافة الضمائر الصينية الى ما تقدم ولو انها ليست من الآريات التي عليها مدار حديثنا :

أنا : وو (wo) = او ، آ

نحن : ومن (women) = او ، آ، + م ، نا + ن ، نا

أنت : ني (ni) = ني ، نا

أنتم : نيمن (nimen) = ني ، نا + م ، نا + ن ، نا

هو : تا (ta) = تا

هم : تامن (tamen) = تا + م ، تا + ن ، تا

ويلاحظ ان الضمائر البدائية (آ ، نا ، تا) مستعملة في الصينية، بسيطة دون تركيب ، للمفرد متكلماً ومخاطباً وغائباً ، وان ضمائر الجمع تتكون من اضافة أداة الجمع (من) الى كل منها .

لقد رأينا أهمية الضمائر في تكوين اللغة ، وسنرى فيما يلي من البحث مـــا يؤكد ذلك ويزيده وضوحاً ، ولا سيما حين نرى كيف انها استعملت في معانٍ مختلفة، بعضها بعيد عن معاني الضمائر ، مما ينبىء في جلاء يشبه اليقين ان الضمائر كانت صلب اللغة وهيكلها الذي ابتُنِي عليه كيانها. وان وجود الضمائر العربية في لغة ما يدل على أواصر سحيقة تكونت من هجرة أقوام بلغاتهم لا من مجرد اقتباس ألفاظ بنتيجة الاحتكاك عن طريق تبادل تجاري او نفوذ سياسي او غلبةٍ ثقافية أو حضارية .

فعـــلى هذا يمكن القول ان وجود هذه الضمائر البدائية الاساسية في اللغة الصينية يدل على صلات موغلة في القدم بين الشعبين العربي والصيني ، ولعله يعني ان الهجرات العربية الاولى قد امتدت بعيداً الى اقاصي آسيا وربما الى شواطىء المحيط الهادي ، وأن تلك المناطق كانت عديمة السكان عند نزول المهاجرين فيها فسكنها أولئك الاعربون ، أو قليلتهم فطغى عليهم الاعربون ، أو أن سكانها لم يكونوا قد اكتشفوا التخاطب بالكلام فأنطقتهم اللغة الأعربية .

ومن الغريب حقاً أننا وجدنا للعربية صلات بلغات اخرى غير الآرية كالتركية والمغولية . وربما كان اعجب من ذلك أننا وجدنا لهـــا صلة جديرة بالدرس باللغة الشُمَريّة (السومرية) التي يعدّها الباحثون لغة مستوحدة لا تمتُّ بنسب الى اية لغة معروفة . وعسى أن تساعدنا الظروف على درسها والكتابة عنها .

أسمـــاء الإشارة

قلنا ان (الهمزة) استعملت ضميراً عاماً واسم اشارة . وقد كان من جراء

استعمالها اداة تنبيه في العربية بصيغة (ها) أن فقدت معناها للاشارة، غير أنها لصقت ببعض اسماء الاشارة مثل : هذا ، هذه ، هؤلاء — فقلما يقول المحدثون : ذا ، ذه ، اولاء .. حتى في الفصحى .

وأما (النون) فلا نراه في العربية اسماً للاشارة أو جزءاً من اسماء الاشارة المتعارفة ، لكننا نجده في بعض الاسماء التي (تشير) الى الزمان او المكان مثل: هنا (= او + نا) ، ومنها في الانكليزية hence (= من هنا) ، ومثل : الآن (آ + نا) ، ومنها (الاوان) ، والفعل هو : آن أوناً (= تمهل) و : آن اينا (= حان) . وهي بالانكليزية now (مقلوب الأون) بمعنى : الآن . ولما كانوا في الانكليزية يسمون هذه المفردات اسماء (اشارة) فقد صاغوا من هذه المادة لفظة hint بمعنى (الاشارة والايماء) .

وانما يختص النون بمعنى الاشارة في الفارسية ، على هذا النحو :

اين (în) : هذا

آن : ذلك

إينان : هؤلاء (للعاقل)

إينها : هؤلاء (لغير العاقل)

آنان : اولئك (للعاقل)

آنها : اولئك (لغير العاقل)

غير أن (التاء) هي الضمير الخصب الذي اختص بمعنى الاشارة في صيغ شتى ولاسيا في العربية والانكليزية والفرنسية .

ونجدها في العربية بابسط صورها واقدمها (تا) بمعنى هذه ، ومنها (تى) بنفس المعنى . وتثنـّى على : تان ، و تـيـْن . ومنها : تيك ، و هاتيك ، ثم : تلك .

وقد أبدلت التاء ذالاً فنشأت صيغة (ذا) واختصت بالذكر ، و (ذي) واختصت بالانثى ، ومنها (ذه) بمعناها .

وتعتمد الانكليزية كل الاعتماد على هذه الاداة الاشارية الذالية فتصوغ منها سائر اسماء الاشارة فيها، مثل اعتماد الفارسية على الاداة النونية. يقول الانكليز:

this : هذا

that : ذاك

these : هؤلاء

those : اولئك

ومن ذلك صيغة so المتطورة من (ذا) بمعنى : كذا . وربما كانت في الانكليزية اسماء اخرى للاشارة لا تحضرنا الآن .

اما الفرنسية فقد اتخذت التاء مادة لاسماء الاشارة فيها كذلك لكن بعد ابدالها سيناً ، وهي : ça ، ce ، cette ، ces ... وهذا برهان آخر على ما سبق أن قلناه من ان (السين) في الضمائر الآرية يرجع في أثله الى (التاء) .
واما من الايطالية فنذكر صيغة cosi : كذا .

معان اخرى

جدّنا المعربي الذي بدأ مشروع بناء هذا الصرح الباذخ لأروع اللغات وأغناها

واقدرها على تصوير همسات الضمير وخلجات الذهن ـ كان هو نفسه يعاني فقراً لغوياً كبيراً ، فما اكتفى باستعمال كل واحد من الضمائر القليلة التي يملكها ضميراً عاماً واسم اشارة وانما استعملها بالاضافة الى ذلك في أشتات من المعاني الاخرى التي عـرَضَت له، على طريقة الراعي التي نوهنا بها ، في استعمال عصاه .

وقد دام ذلك احقاباً مديدة فيما يبدو ، لان تعدد المعاني التي استعملت فيها الصيغة الواحدة لم يقتصر على الضمائر البدائية العنصرية (آ ، نا ، تا) وانما شمل صيغها المتطورة ثم المركبة ، التي لا بد انها لم تنشأ إلا بعد مرور اجيال كثيرة . حتى ان ضمير (انت) الذي اعتبرناه اكمل صور تركيب الضمائر قد استعمل ضميراً عامـــاً كالضمائر البدائية ، ثم استعمل في معان اخرى غير الضمير والاشارة ، كما سنذكر بعد .. مما يدل على ان طفولة اللغة قد استغرقت دهراً طويلاً ، وأنها لم تتقدم إلا ببطء شديد .

وبعض هذه المعاني قريب من معاني الاشارة والضمير كالذي رأينا حتى الآن وبعضها بعيد عنها لا صلة له بها كالذي سنرى . وما كنا لنجازف بالقول ان هذه المعاني البعيدة ترجع في أثلها الى الضمائر لولا ان صيغها يقود بعضها الى بعض من حيث تطور المعنى او المبنى ، ولولا ما مرّ بنا من كثرة تخبطات الاعرب الأقدم التي تستدر الرثاء من جهة وتشبثاته الجريئة التي تستحق العطف والاعجاب من جهة اخرى .

ولا بد ان كثرة اخطائه في نطق الألفاظ على غير وجهها ، واستعمالها في غير معانيها ، وفهمها على غير ما قصد بهـــا قائلها ، قد سبّب له الكثير من سوء التفاهم وضرب الهراوات ، إلا ان لهذه الاخطاء المباركة فضلاً كبيراً في خلق صيغ جديدة ، ساعد التركيبُ اللغويُّ على تكثيرها ، فاستعملت في معان جديدة او تخصصت في معان قديمة .. كالذي مرّت بنا شواهد متنوعة منه .

وقد رأينـــا ان الهمزة استعملت للتنبيه أولاً ، ثم للنداء ، ثم للضمير ، ثم للاستفهام والايجـــاب . ومن الهمزة أيضاً (أيْ) – بفتح فسكون – التي استعملوها حرف تفسير بالاضافة الى النداء ، و (أيّ) – بتشديد الياء – ولها عدة معان .

العطـــف :

ومن توليدات الهمزة – عدا كل ذلك – واو العطف (و) الذي كان أول الأمر ينطق (أو) – بالضم – كما لا نزال ننطقه في دارجاتنا . ثم ظهرت صيغة (أوْ) – بالفتح – وكانت تعني عطف الجمع وعطف الشك معاً ، وما زالت . وما زال المعجم يذكر ذلك . ثم أخذت تتخصص بعطف الشك حتى قـــلّ استعمالها بمعنى عطف الجمع ، ونـَدَر أخيراً . وقد استفاد من ذلك شوقي في شعره فاستعمل (أوْ) مراراً بمعنى الواو كلما اضطره الوزن الى ذلك . ويوجد الواو بمعنى العطف في كل من الفارسية والتركية .

أما حرف العطف (أوْ) فينطق في الفارسية (يا) بمعنى عطف الشك ، وهو مستعمل في الدارجة العراقية في مثل : يا هذا يا هذا ، أي : هذا او هذا . وينطقها بعض العراقيين (لو) في مثل : تريد هذا لو هذا ؟

ومن واو العطف نشأت (الفاء) للترتيب والتعقيب . ولا عجب في قلب الواو فاءاً هنا ، فان لدينا مثالاً آخر انقلبت فيه الهمزة واواً أول الأمر ثم اصبحت فاءاً كالذي حدث هنا تماماً وبنفس الترتيب التطوري ، وهو كلمة (أين) التي صار ينطقها الكثيرون من العرب بالواو (وين) ثم انقلب واوها فاءاً عند المصريين والمغاربة فنطقوها (فين) .

الايجـــاب :

أما الهمزة المكسورة (إي) فتعني الايجاب (نعم) كما لا تزال تعني بالعراقية والسورية، ثم تخصصت بمعنى الايجاب مع القسم في الفصحى في مثل (إي والله). وهي تظهر بشكلها البدائي الاقدم في المصرية الدارجة بمعنى نعم : آ . .

أما المغاربة فينطقونها : ايّه (iyyah) . وربما منها نشأت الصيغة المصرية الاخرى : أيْوَه . ونذكر بالمناسبة انها تنطق بالأرمنية : آيو (aio) !..

الهمزة في الآريات :

فاذا انتقلنا الى الآريات وجدنا للهمزة صوراً كثيرة منها التالية :

a : قَـطّ ، أبداً – بالسكسونية (ومعان اخرى)

a : أداة تنكير تسبق الاسم – بالانكليزية

a : علامة تأنيث تلحق الاسم – بالايطالية (ولعلهـــا مخففة من تاء التأنيث العربية)

a : الى (حرف الجر) – بالايطالية

a : عنده (أداة تزمين) – بالايطالية والفرنسية

à : الى – بالفرنسية

aio : نعم – بالارمنية

aio : يقول نعم – باللاتينية

ay : نعم – بالانكليزية

ay : (أيْ) : يا (للنداء) – بالفارسية

e : أداة جمع الاناث – بالايطالية

e : واو العطف – بالايطالية

i : أداة جمع الذكور – بالايطالية

o : يا (للنداء) – بالانكليزية ، وغيرها

o : عندي – بالايطالية

o : علامة تذكير تلحق الاسم – بالايطالية

o : أوْ (حرف العطف) – بالايطالية

or : أوْ – بالانكليزية

ou : أوْ – بالفرنسية

ou ؟ : أين ؟ – بالفرنسية

oui (وِي) : نعم : بالفرنسية

النون

النفي والنهي :

نجد النون بصيغته البدائية (نا) في الفارسية بمعنى (لا) ، في مثــل : (نا مرئي) أي : لا مرئيّ ، غير منظور .. ومثل : نا معقول .. .

ولا يستغرب استعمال الضمير (نا) للنفي ولاسيما اذا تذكرنا ان ضمير الهمزة قد استعمل بمعنى الايجاب في عدة لغات ، وبمعنى النفي في السكسونية وربما في

غيرها أيضاً . كما اننا نقول : (آ .. آ .. آ ..) استنكاراً أو تحذيراً أو نهياً . ويؤيد ذلك ايضاً ان صيغة (إنْ) – بكسر فسكون – تعني النفي في العربية أيضاً مثل : إن هو إلا وحي يُوحَى .

ولعل معنى النفي قد اكتسبه النون تدريجياً حيث استعمل أولاً للتنبيه ثم للتحذير ثم للنهي فالنفي . مثل هذا التسلسل نلاحظه في تطور (الهاء) التي نستنبط من اختلاف معانيها أنها استعملت أولاً للتنبيه (ها) ، ثم للوعيد (هاه !) ، ثم للنفي بالدارجة (هِيء !) . ويخيل لنا ان (التاء) أيضاً قد استعملت للنفي ، وقد بقيت لنا منها صيغة (چُوءْ چُوءْ چُوءْ) للنفي والنهي بالدارجة أيضاً (مع ادخال الهواء في الفم عند نطقها – بدلاً من إخراجه عند نطق سائر الاصوات) . والاصوات (الدخولية) موجودة في بعض الألفاظ بالدارجة العربية وبعض الأعجميات .

وأداة النفي (نا) لهـــا في الفارسية صورة أخرى هي (نه) أي بفتحة قصيرة ، للنفي والنهي جميعاً ، وتقابلها في العربية (ما) النافية و (لا) الناهية النافية . والظاهر ان هاتين الصيغتين العربيتين متطورتان من صيغة (نا) التي اندرست في العربية بمعنى النفي والنهي وبقيت في الفــارسية بصيغتيها المديدة والقصيرة . لكننا نجد (ما) العربية في الأدب الفارسي القديم بصيغه (مَه) أي بفتحة قصيرة ، مثـــل : مَدِه (= لا تَـدِ ، لا تـؤَدِّ ، لا تـُعط) ، و : مَرُو (= لا تـَرُح ، لا تذهب) . لكنها اندثرت أخـــيراً في الفارسية الحديثة كما اندثرت (نه) قديماً في العربية .

أما برهاننا على أثالة (نه) في العروبة بالرغم من فقدانها في المعجم العربي فهو ان العرب صاغوا منها فعل : نَـهَى ينهى نهياً !

ويظهر نون النفي في بعض الآريات بصيغة : no و non ...

والعراقيون ينطقونها (مُو – mu) في نفي الاسماء والصفات ، مثل :

مو آني ، مو أحمد ، مو تعبان .. أي : ما أنا ، ليس أحمد ، غير تـَعِب . وهم ينطقونها (ما) في نفي الافعال مثل : ما عرفناه ، ما يخالف (أي : لا بأس) .

ومن الطريف ان (مو) العراقية هذه تستعمل في الصينية لجميـــع حالات النفي والنهي بصورة (بُو — bu) !

التـــاء

بالاضافة الى المعاني الضميرية والاشارية التي نشأت من (تا) كالذي سبق ذكره ، نشأت منها من الصيغ الأخرى صيغة (حَتّى) بمعنى : أيضاً ، الى ، كي .

وان خامر قارئنا العزيز شيء من الريب في أن (حتى) ما هي إلا (تا) قد فُثمت بالحاء فلا بد أنه ليس من المغاربة ، لأن (تا) بصيغتها الرسّية هذه تعني بلغة المغرب : إلى وأيضاً ، مثـــل (حتى) . فهم يقولون : تا تشوف (= الى أن ترى) ، و : تا أنا (= أنا أيضاً) .

غير أن الفرس يستعملون (تا) بالمعنيين : الى ، وكي (للتعليل) .

أما الانكليز فيستعملونها في صورتين هما : to (الى ، كي) ، و too (أيضاً) .

وقد استعملت التاء في العربية بمعنى الموصولية ، وعرّفوها باللام فصارت : التي (= ال + أ + تي) ، ومنها : اللتان ، واللتَيْن ، واللتيّا ، واللاتي .

ضمائر متطــــورة

ولنستعرض فيما يـــلي بعض الصيغ المتطورة من الضمائر ، التي استُعملت كذلك في غير معاني الضمائر وأسماء الاشارة ، لإعطاء فكرة اجمالية عن تعدد معانيها .

آن :

أراد غابيّ معربي من أهل الضمير (آن) ان يحدّث صـــاحبه عن الوقت الحاضر فلم يجد أنسب من هذه اللفظة التي كان يستعملها لمختلف المعاني فقال (آن) بمعنى : هذا الزمان ، كما تقدم بنا .

وقد استعملها بمعنى المكان ايضاً لكن صيغتها بمعنى المكان تطورت فظهرت لها بعض الصور بقي لنا منها في العربية (هُنا) : هذا المكان .. ثم (هُنّا) من وزن كُنّا ، و (هَنّا) من وزن حتى ، وكلتاهما تعني : هناك . وقد وردت كذلك بصيغة (هَنِي) من وزن أخي ، بمعنى : هنا .. ومنها ايضاً : هناك ، وهنالك ...

ومما يؤيد ان هذه الصيغ الهائية بمعنى المكان أثلها (آن) هو ان (الهِنْو) — زنة الصِنْو — يعني (الوقت) مثل صيغة (الآن) نفسها .

لكنها انما بقيت في العربية بصورتها الأولى (آن) هـــذه بمعنى الزمان ، ومنها : الآن و الأوان .

وقد قلبوا فعل (آن يئين) فصار (أنـى يأني) . وكذلك أبدلوا همزته حاءاً فصار (حان يحين) ومنها (الحِين) بكسر الحاء و (الحَيْن) بفتحها ، وقـــد تخصص الفتح بمعنى الأجل اي الهلاك . وتظهر في الانكليزية بصيغة

(wh en) : حينما ، حين . وهي من السكسونية (hawenne) — على قولهم .

ومن صيغة (آن أوناً) بمعنى التمهل في المشي نشأت صيغة (هان هوناً) ومنها (الهَوْن و الهُوَيْنا) أي التمهل في المشي ايضاً ... ومنها نشأت صيغ : الهوان ، والهيّن ، والهَن ، والهَنَة ...

ومن مخلفات عهود التخبط التطوري بقيت لنــا صيغة (أنـّى) — زنة حَتّـى — بثلاثة معان : الزمان (حينما) ، والمكان (حيثما) ، والنحو (كيفما) . وتستعمل كذلك للاستفهام بهذه المعاني : متى ، أين ، من أين ، كيف ؟ وصيغة (أنـّى) هذه تكاد تندثر الآن لقلة من يستعملها من المعاصرين .

وقد انشعبت منها (أين) للمكان خاصة ، و (أيّان) للزمان خاصة ، وقد كادت هذه الاخيرة تندرس هي الاخرى لشيوع صيغة (متى) .

وبينما استعمل اليمنيون القدامى صيغة (آن) في آخر الاسم للتعريف استعملها الانكليز بنفسها (an) في أول الاسم للتنكير !

ونشأت منها في العربية صيغتا (انّ) المشدّدة بفتح الهمزة او كسرها ، وصيغتا (انْ) المخففة الساكنة بفتح الهمزة او كسرها ايضاً .

ونلاحظ على صيغة (إنْ) المكسورة الساكنة ان لها معنيين : الشرط والنفي . وتأتي (إنْ) هذه زائداً لغوياً كما في قول شاعرهم: ما إن أتيت بذنب أنت تكرهه .

ولضمير (ان) على مختلف وجوه نطقه حالات لغوية ونحوية كثيرة لا نريد التوغل فيها وانما نكتفي باستلفات النظر اليها والتوصية بمراجعتها في المعــاجم للاطلاع على أفاعيل التطور اللغوي .

ومن استعمالات (آن) ايضاً انها ألحقت بالاسم توجيهاً لمعناه احياناً لتكسبه (١) معنى الفاعلية في مثل : عطشان ، إنسان ، رحمـــان ، سلطان .. او (٢) معنى المصدرية في مثل : شكران ، وبهتان ، وغفران ، وسلطان ايضاً .

وندرج فيما يلي بعض الصور التي تقمصها ضمير (آن) في الآريات :

an : حرف العطف (أو) – باللاتينية

ân : واحد – بالسكسونية

an : أداة تنكير تسبق الاسم المهموز الاول – بالانكليزية

en : في – بالفرنسية

in : في – بالايطالية

in : أداة نفي الصفة ، وهي تذكّرنا بنظيرتها العربية (إنْ) . ومنهـا : im و un – بالانكليزية ، وما يقارب ذلك بالفرنسية وغيرها ، (وهي تستعمل مثـــل : نا ، الفارسية) .. مثل inflexible لا ينثني ، و impossible : غير ممكن (مستحيل) .

on : على (حرف الجر) – بالانكليزية

ian : أداة نسبة الى الأمة او البلد مثـــل Arabian : عربي ، و Indian : هندي – بالانكليزية

ien : للذكر و ienne للانثى : أداة نسبة الى الأمة او البلد مثل indien : هندي و indienne : هندية – بالفرنسية .

one : واحد – بالانكليزية (وأثلها an السكسونية ، آنفاً)

un : للذكر و une للانثى : أداة تنكير تسبق الاسم ، وهما تعنيان كذلك الواحد والواحدة – بالفرنسية .

أثلها كما قلنا (تا) التي تعني : هذه . وقد اختصت صيغتا (تا، تي) بالانثى وكذلك (ذي) ومنها (ذه) . أما صيغة (ذا) فاختصت بالذكر ، وقد بقيت صيغةً جامدةً بهذا المعنى ، أي مبنيّة .

لكنها تكون معربة بمعنى صاحب ، أي انها تنطق (ذا، ذو، ذي) حسب موقعها من الاعراب مثل : ذا النون ، وذو النون ، وذي النون . وهي تطالعنا في اللاتينية واللغات المتفرعة منها بصيغ مختلفة مثل : de ، di ، do .. أداةً للاضافة ايضاً لكن بعكس المعنى ، أي ان (ذا يزن) يعني بالعربية صاحب يزن ، بينما (Jean d'Arc) تعني في الفرنسية جان التابعة لآرك ، أي ان (آرك) هو صاحب (جان) .

وقد أنّث العرب (ذا) فصار (ذات) وجمعها (ذوات) ، غير ان المثنى يأتي منها شاذاً بصيغة (ذواتان) وكأنه تثنية للجمع بدلاً من (ذاتان) . ومنها الآية : « ذواتا أفنان » .

و (ذات) هذه استعملوها كذلك كلمة واحدة بذالها وتائها ، أي باعتبار التاء جزءاً منها لا أداة تأنيث ، فصارت بهذه الصورة تعني النفس او الجوهر مثل : ذات الشيء ، ومنها (الذوات) باصطلاح المتأخرين : أعيان الناس والشخصيات البارزة منهم . غير ان تثنيتها (ذاتان) ، أي على القياس .

وقد استعملوا (ذو) بمعنى الموصولية ومنها القول المشهور : وبئري ذو حفرت وذو طويت . وليراجع القارىء الكريم تفصيلات معـــاني (ذو) واستعمالاتها في مظانها . ونكتفي هنا بالقول ان العرب عرّفوها باللام فنشأت صيغة : الذي (= ال + آ + ذي) . وصارت تجمع على (الذين) في مختلف حالات الاعراب إلا شذرات قليلة عدوها شاذة ، مثل لغة : نحن الذون صبّحوا

الصباحا . والظاهر انها كانت كغيرها من صيغ الجمع المذكر السالم ترفع بالواو وتنصب وتجرّ بالياء ، ثم غلبت الصيغة اليائية كالذي جرى لجميع صيغ جمع المذكر السالم في الدارجات العربية .

وتظهر (ذي) بصيغة (si) بمعنى (بَلـَى) في الفرنسية ، وبمعنى (بَلـَى) و (نـَعَم) في الايطالية .

وأما (اذا) فهي في الفرنسية (si) ايضاً ، وفي الايطالية (se) ، وهي في التركية أشبه بصورتها العربية (إيسه — ise) !

وأما في الانكليزية فعلاوة على صيغ الضمائر والاشارة التي وجدناها آنفاً وصيغة (the) كأداة تعريف نجد صورة : though و although بمعنى : ولو .

أنــت :

بالاضافة الى تطور هذه الصيغة في العربية بالمعاني الضميرية التي رأيناها ، وفي الفــارسية بمعنى الضمير وأداة التكنين بصيغة (أنـْد) ، وفي الفرنسية أداة تكنين بصيغة (sont) وأداة تزمين بصورة (ont) وضميراً متصلاً بصيغة (ent —) .. نجدها في الآريات بمعانٍ أخرى . منها :

ance : كاسعة تؤدي معنى المصدرية مثل importance : أهمية — بالانكليزية والفرنسية .

and : حرف العطف (و) — بالانكليزية .

ant : كاسعة تؤدي معنى الصفة او الفــاعلية مثل important : ومهم — بالانكليزية والفرنسية .

ante : أداة تسبق الاسم بمعنى : قبل او سابق ، مثل : antedeluvian : قبــل الطوفان و antecedent : سالف ، سَلـَف — بالفرنسية والانكليزية ، وهي أثلاً من اللاتينية .

anti : أداة تسبق الاسم بمعنى الضد او المعاكس مثل : antidote ضد السم (= ترياق) – بالفرنسية والانكليزية ، وهي من اللاتينية ايضاً .

بعض الصيغ

نحن مدينون للضمائر كذلك بالكثير من صيغ الافعال المزيدة واشتقاقاتها أي الصيغ المتفرعة منها للمصدر والفاعل والمفعول وغيرها ، نشأت من إلصاق بعض الضمائر بها ، في أولها تصديراً او في وسطها حشواً او في آخرها تذييلاً ، مثـــل :

إنفعل = إن + فعل

تفاعل = تا + فاعل

إفتعل = اي + ف + تا + عل

استفعل = است + فعل

أخرج = آ + خرج

فـُعْلـَى (مؤنث الأفعل ، مثل فـُضْلـَى) : = فـُعْل + آ

مفعول = ما + فعول

متفاعل = مو + تا + فاعل

رحمن = رحم + آن

غفران = غفر + آن

زيدون = زيد + أون

غسلين = غِسْل + اين

الصِفْتات = صِفت + آت (الجسيم الشديد)

جبروت = جبر + اوت

عفريت = عفر + إيت

نبراس = نبر + آس

قدموس = قدم + اوس

دردبيس = دردب + ايس

عربي = عرب + اي

عربية = عرب + إي + أت

روحاني = روح + آن + اي ... إلخ

ختام

هذا قليل حقاً من كثير جداً .

فعلى الرغم مما جاء في حديثنا هذا من تفصيلات لعل القارىء وجدها مسئمة ، وشواهد لا بد انه رآها كثيرة – نؤكد له اننـــا أهملنا تفصيلات ومقارنات وضمائر وألفاظاً من مولـّدات الضمائر كثيرة أخرى .. إما رغبةً في تخفيف الوطأة عن قارئنا العزيز وإما لتعذر عرضها قبل عرض ما ينبغي لها من شرح وبرهان مما يأتي دوره من الحديث في آخره .

ولايضاح هذه النقطة نقول اننا تكلمنا على (الضمير العـام) مثلاً في أول البحث لكي نتمكن من تفهم ما سيليه من الأمور القائمة عليه ، لكننا لم نستشهد من الضمائر العامة إلا بالهمزة وإلا بالقليل من حالاتها ، وتركنا الباقي الكثير من الشواهد اضطراراً لأننا لم نكن قد تقدمنا بعد في البحث الى الحدّ الذي يساعد على تفهمها وتقبّلها وهضمها . فمن أجل ذلك جاء كلامنا عن الضمير العام مبتسراً هزيلاً . وقس على ذلك .

أما حين تثبت دعائم دراسة الضمائر بهذه الطريقة ويقتنع الباحثون بهـا فسيمكن الدخول في الموضوع رأساً دون إضاعة وقت او كلام في البرهنة ومحاولة الاقناع ، كالذي فعلنا من السير مع صديقنا القارىء يداً بيد وخطوة بخطوة – مما تقتضيه جِدّة الموضوع على القارىء والكاتب جميعاً .

ونود ان نسجل بهذه المناسبة ان هذه التفسيرات والتخريجات التي مرّت بنا انما أزجيناها على انها بعض الاحتمالات الممكنة لا على انها فيصل الخطاب .

ان الذي أردنا اليه بالدرجة الأولى هو ان نبسط طريقة للبحث لا أن نقرر حقائق نهائية لا تقبل جدالاً . ذلك اننا أدرجنا من الاحتمالات المتعددة التي تتزاحم على المخيلة في كل مرحلة من مراحل البحث ما تراءى لنا أهمّ وأقوم او أقرب الى جادة المنطق من سواه .

واننا لندعو أخانا القارىء الى التمعن في هذه الضمائر وحالاتها وتفاعلاتها ، ونحن واثقون انه واجد بنفسه احتمالات أخرى ، ولعلها أقرب الى السداد من بعض هاته الاحتمالات والاستنباطات التي سقناها . وما نقول هذا مجاملة للقارىء او ظهوراً بالتواضع ، لاننا في الواقع كثيراً ما نصحح بعض آرائنا حين تعنّ لنا أفكار أخرى ، او نطّلع من الشواهد او الحقائق على جديد ، او نتذكر من الأمر منسياً .

غير ان الذي مرّ بنا – على اختصاره – يكفي لأن يرينا ان دراسة الضمائر قادرة على تغيير وجه اللغة واعطائها ملامح جديدة تثير الدهشة حقاً .

انها تغرق أرض اللغة غرقاً ، وتبتعث من احشائها ما لم يكن متوقعاً من دفائن ومجهولات .

ولا تقف دراسة الضمائر عند أهميتها الذاتية هذه ، فان لها كذلك لأهميةً مفتاحيةً في الدراسات اللغوية عموماً ، فهي خليقة بأن تعيننا على حلّ بعض المعضلات التي لا صلة لها بالضمائر . لان ما طرأ على الضمائر من تطورات وما رافقها من ملابسات وما تسرب منها مع الهجرات البشرية الى مختلف اللغات في مختلف الجهات – ينطبق على اللغة كلها، ومن ثم ينير لنا نهجاً جديداً في البحث اللغوي ويساعدنا على تصحيح نهوج قديمة .

لقد توفر اللغويون من عرب ومستعربين قديماً ، ومستشرقين وعرب حديثاً، على دراسة العربية ، وأفنوا أعماراً في اماطة الاقنعة عن أسرارها . وعلى الرغم من النتائج القيّمة التي ظفروا بها في بعض المجالات قديماً وحديثاً، صمدت أمامهم في العربية وغيرها طلاسم عنيدة استعصت على كل محاولة : التنوين، التعريف، الاعراب ، التثنية ، الجمع ، العطف ، النفي ... وأمثالها من الموضوعات التي حوّموا حولها ما حوّموا ، منذ ثلاثة عشر قرناً ، فاقتربوا من حقيقتها حيناً وابتعدوا حيناً ، ولم يصلوا أبداً .

فعليهم منذ اليوم بالضمائر . انها مفتاح الكثير من الاقفال اللغوية . أما (الترسيس) فهو من اللغة بابها الكبير .

وكما صنّفوا الكتب في العربية عن (الحروف) سوف يصنفون الكتب في العربية وغيرها عن (الضمائر) . وسيجدون في العربية وغيرها عدداً كبيراً من الحروف والموصولات والكواسع والرواسن ومختلف الروابط والادوات والاشتقاقات .. ترجع في أثلها البعيد او القريب الى الضمائر البدائية ... التي نبتت بذرتها الأولى وازدهرت في الغابة المعربية .

أول الفلكيين ؟

نعم ، انما نقصد أن نقول ان العرب (أول) الفلكيين في التاريخ الانساني – على ما يظهر – لا أعظمهم شأناً ولا أبعدهم صيتاً ، لأن بعد صيتهم وعظمة شأنهم في العلوم عامة وعلم الفلك خاصة ، خلال عهود الازدهار الاسلامية ، منقبة لم يعد يجهلها إلا جاهل . ومن بقايا تجوابهم واستكشافاتهم الاسلامية في القارة السماوية خلّفوا من آثار اقدامهم في اللغات الأوربية الحديثة عدداً كبيراً من الألفاظ العربية من أسماء النجوم ومصطلحات الفلك ، ومنها في الانكليزية مثلاً : Altair (الطائر) ، Aldaberan (الدَبَران) ، Algieba (الجبهة) ، Azha (أدْحَى النعام) ، Talitha (نجم الثالثة) ، Zaniah (الثانية من العواء) ، Algedi (الجديّ) ، Betelguese (مكب الجــوزاء) ، Phaet (الفاختة) ... Nadir (النظير) ، Zenith (السَمْت = سمت الراس) ، azimuth (السُموت = سمت السموت) ...

ولا نقصد كذلك بقولنا ان العرب أول الفلكيين حتى الأكديين العرب بالرغم من أن أبناء الرافدين هم الذين وصلتنا منهم أقدم المعارف الفلكية مدوّنة ومدروسة ، وهي أساس تقسيماتنا الزمنية الحاضرة للسنة والشهور والساعات .. بالاضافة الى معرفتهم سبعة كواكب سيارة ومن عددها هــذا قسموا الايام أسابيع ...

وشيء شبيه بذلك يمكن أن يقال عن قدامى أبناء النيل الذين اتضح من الدراسات الحديثة للغتهم أنهم ساميّون أي عرب .. بعد أن كان المظنون انهم حاميّون وهؤلاء أيضاً عرب كما نعلم لكنهم أبعد نسباً أي أقدم عهداً بمغادرة الجزيرة العربية .

غير ان الذي نقصده بقولنا ان العرب أول الفلكيين هو أن سكان المعربة قد كانوا على درجة فائقة من الاهتمام بمراقبة النجوم والعلم بحركاتها المعقدة ومواقيتها منذ العصور الحجرية المجهولة .. قبل عهد التدوين وقبل اختراع الكتابة وقبل أن يتحضر النيليُّون والرافدانيون بألوف السنين .. أي منذ نحو عشرة آلاف سنة .. إن لم نقل اكثر !

هذه الحقيقة المذهلة تخبرنا بها اللغة على كل حال .

قلنا ان لفظة (الآن) تعني الوقت ومنها (الأوان) . والفعل هو (آن أيْناً) أي حان الوقت ، و (آن أوْناً) أي تمهّلَ في المشي ، وأصل المعنى قضى وقتاً في المشي ، أي من معنى الوقت أيضاً .. ولا سيما ان (الأيْن) كذلك يعني التعب الذي يسبب التمهل في المشي .

وقد تطور (الأوْن) فصار يُنطَق مقلوباً (النَوْء) . ومما يؤيد أن (الأوْن) مشتقّ من (الآن) وأنه كان يعني الوقت قديماً هو أن مقلوبه المستحدث منه : (النَوْء) ما زال يعني (الآن) في الانكليزية بصورة (now) ! وبتعبير آخر ان (الاين) و (الاون) كانا مترادفين يعنيان كلاهما حلول الوقت والتمهل في المشي معاً .

وقد كان من معاني (النوء) عند العرب : (سقوط نجم من المنازل في المغرب وطلوع رقيبه وهو نجم يقابله من ساعته في المشرق في كل ليلة الى ثلاثة عشر يوماً . وهكذا كل نجم منها الى انقضاء السنة ما خلا الجبهة فأن لها أربعة عشر يوماً .. والانواء كانت عندهم ثمانية وعشرين معروفة المطالع في أزمنة السنة كلها يسقط منها في كل ثلاث عشرة ليلة [٦] نجم في المغرب مع طلوع الفجر ويطلع آخر يقابله في المشرق من ساعته وكلاهما معلوم مسمّى .

٦ – في الاصل : ثلاثة عشرة ليلة ، والظاهر انها من الاغلاط المطبعية .

وانقضاء هذه الثمانية وعشرين كلها مع انقضاء السنة ثم يرجع الامر الى النجم الاول . وكانت العرب في الجاهلية اذا سقط منها نجم وطلع آخر قالوا لا بد من أن يكون عند ذلك مطر أو رياح فينسبون كل غيث يكون عند ذلك الى ذلك النجم فيقولون : « مُطِرنا بنَوْء الثُريّا أو بنَوْء الدبَرَان » — (المنجد — مادة : نوء) .

وهذه المعرفة الدقيقة عن (الانواء) تدل على أن القوم كانت لهم معرفة دقيقة أوسع نطاقاً في شؤون فلكية أخرى ، وعلى أنهم كانوا يرقبون النجوم ويرصدون حركاتها ومواضعها خلال أيام الحول ويحددون العلاقات بين بعضها وبعضها في المكان من رقعة السماء وفي الزمان من مدار السنة .. بطريقة يسعنا مطمئنين أن نسميها (علمية) . وان كان في معلوماتهم هذه وغيرها شيء من خطأ فتلك سجية (العلم) دائماً ، وستأتي أجيال تجد في علم جيلنا هذا الكثير من الاخطاء والنواقص في الفلك وغيره .

ولسنا ندري الآن الى أي حد كانوا يستفيدون من هذه المعرفة الفلكية في حياتهم العملية بالاضافة الى اهتدائهم بها في أسفار البراري وملاحة البحار ، لكننا نعلم ان أمثال هذه المعلومات الفلكية ما زالت اليوم من المعارف العامة في مختلف أنحاء الجزيرة العربية حيث يتحدث حتى العامة من الناس عن حركات النجوم ومواعيدها ويقرنون بها المواسم المناخية والنباتية والحيوانية والتجارية والصحية ...

والأغلب ان هذا تراث موروث من الجاهلية .

لكن اصطلاح (الجاهلية) انما يعني العهد العربي الوثني القريب من عهد ظهور الاسلام . فالى أيّ أمد يمكننا أن ندفع هذه المعلومات الفلكية الثمينة الى وراء ؟ ألف عام ؟ ألفي عام ؟ ثلاثة آلاف ؟ ...

ثم مَن الذي يقول ان هـــذه المعرفة من استنباط العرب أنفسهم لا من مقتبساتهم عن جيرانهم المصريين والأكديين ؟

اللغة هي التي تقول ذلك . بل انها تزعم ما هو أدعى الى العجب والدهشة . تزعم ان المصريين والأكديين هم الذين اقتبسوا معارفهم الفلكية الأولى ، عن أبناء المعربة الأقدمين !

يظهر من القرائن الترسيسية أن العرب استعملوا كلمة (الآن) أيضاً بمعنى النوء . فمن معنى تمام السنة عند عودة النجم (النوء) الاول الى الظهور أطلقوا كلمة (الآن) على السنة . وان كان هذا المعنى قد ضاع من الكلمة بصورتها هذه في عربيتنا المعجمية الباقية فان صيغتها هذه (آن — an) بنفسها لا تزال تعني السنة في الفرنسية ! وهي باللاتينية (annus) ، وجذرها بقول المعجم (an) أيضاً . أما في العربية فقد صارت تنطق (عام) !

ومن معنى تجدد الأنواء استعملوا كلمة (النوء) بمعنى الجديد ، وهي باقية بهذا المعنى في الفارسية بصورة (نَوْ — naw) . ومنها (نَـوْرُوز) : اليوم الجديد ، أي راس السنة . وتنطق الكلمة في الانكليزية (**نيُو** — new) ويؤثلونها من السكسونية (neôwe) . وقد وردت قبل ذلك في الاغريقية بصيغة (**نيوس** — neos) وفي اللاتينية بصيغة (**نوفوس** — novus) ، وهي في الايطالية (**نوفه** — nove) وفي الفرنسية (**نوفوه** — nouveau) . ومعلوم أن حرف السين زائد في آخر الكلمتين الاغريقية واللاتينية يلحق بالاسماء عندهم ، وصلب الكلمة فيها الواو والنون فحسب .

ومن معنى الرياح والتغيّرات الجوية ظهرت في بعض الدارجات العربية صيغة (النَّوّ) — بتشديد الواو — بمعنى الحالة أو الطور او المزاج .

وظهرت كلمة (التنوُّع) تعبيراً عن كل ذلك فصار العرب ينطقون (النوء) بالعين (النوع) — على طريقة بعضهم في العنعنة — بمعنى الصنف ، على اعتبار

كل (نوع) جديداً أو مغايراً لسواه من الانواع ، ومن هنا كان (التنويع) يتضمن شيئاً من معنى التجديد والتغيير . وصيغة (النوع) تشبه (نوّ) — المشدّدة بالدارجة ، و (نَـوْ) — المخففة الساكنة — بالفارسية .

ومن هذا المعنى توجد في الانكليزية (novel) التي تعني الطريف والنادرة والقصة ، و (novelty) التي تعني البدعة والطرافة .. وكلتاهما من الفرنسية حيث تنطقان (nouvelle) و (nouveauté) . وهاتان الكلمتان من (nouveau) (جديد) المنحدرة من اللاتينية المذكورة آنفاً .

ومن معنى الامطار التي كانوا — قدامى العرب — يعتقدون انها تقترن بتبدل الأنواء صار (النوء) منذ العهد الجاهلي يعني المطر أيضاً . و (علم الانواء) يعني عندنا اليوم علم تعرّف الاحوال الجوية ، وله في كل قطر خبراء وديوان مخصوص يرتبط بالملاحة الجوية على الأخص .

ومن معنى الرياح والأمطار صار البحّارة العرب منذ القدم فيما يظهر يطلقون (النوء) على أعاصيرهم وتقلّب أجوائهم البحرية ، وهذا هو مفهوم الكلمة اليوم عندهم وعند سواد القراء ، مما يدل على أثالته . وأدلّ من ذلك على أثالة هـــذا المفهوم الملاحيّ البحريّ لكلمة (النوء) هـــو أنها تعني السفينة في الفارسية بصيغة (ناو) ! وهي في الاغريقية (naus) ، وفي اللاتينية (navis) ، وفي الايطالية (nave) وفي الفرنسية القديمة (navie) . ومنها في الانكليزية (navy) : أسطول أو قوة بحرية ، و (naval) : أسطوليّ او سفينيّ .

ومن معنى السفينة في العربية (النُوتيّ) : « مـــلاّح السفينة في البحر خاصة » .

وهذه الألفاظ بمعانيها المتطورة من لفظة (النوء) ومن معاني مجموعة الانواء وتجددها وارتباطها على قولهم بمناخ الارض — حديثة طبعاً بالنسبة الى (النوء) الذي استحدثت منه . ولا ندري كم من الأجيال انقضت حتى استحدثت هذه الألفاظ من النوء لكن الأغلب انها كانت أجيالاً طوالاً . وأقدم من (النوء)

كلمة (آن) التي تعني السنة في الفرنسية ، والتي من لفظها نشأت ألفاظ : العام ، والاون ، ثم النوء نفسه .

والذي نراه شخصياً كما قلنا في فصول سابقة ، بل الذي أرتنا إياه اللغة ، أن (الآريين) هم أوائل العرب المهاجرين الذين نزحوا من معربتهم منذ جعل يكتسحها الجفاف والمحل فانطلقوا الى العراق ومن ثم هاجر بعضهم الى ايران وما وراءها واستقر الباقون في العراق ، كما انطلق آخرون الى سورية حيث استقر من استقر واستمر في الهجرة من استمر غرباً الى مصر وما وراءها وشمالاً الى البر الاناضولي وما وراءه ، اي أوربا . فنحن لا نعتقد أن جميع الآريين الأوربيين قد قدموا أصلاً من الهند او أواسط آسيا فقط – على الرأي الدارج – بل لا بد ان الكثيرين منهم قدموا رأساً في موجات مختلفة عن طريق آسيا الصغرى وشمالي افريقيا ، ناهيك بالساحل السوري الذي أبحر منه الكنعانيون فيما بعد ، وربما سبقهم في ذلك أسلافهم أيضاً ، غرباً الى كل مكان .

ثم كانت هجرة (الحاميين) الى افريقيا شماليّها وشرقيّها .

ثم كانت هجرة (الساميين) الى الهلال الخصيب وشرقيّ افريقيا، فاستقروا مع من كان قد استقر من أسلافهم المهاجرين الأوائل – في العراق وسورية ومصر والحبشة .

ولا نستطيع الآن تحديد هذه الهجرات فهي متوالية ومختلطة ومتشابكة ومتعددة الأزمنة ومختلفة الاتجاهات ، تكدّس بعضها فوق بعض واندمج بعضها ببعض . إلا انه كان من نتيجة المخيض هذه المجموعات اللغوية الثلاث : الآرية والحامية والسامية ، التي يتضح مما تقدم أنها مجموعات مكانية أكثر منها زمانية ، تمثل لهجات عربية قُدْمَى امتزجت وتفاعلت على مدى الأجيال . وكل ما يسعنا ان نقوله ان تلك الهجرات بدأت منذ أخذ المحل يلتهم الجنة المعربية ، قبل اكثر من عشرة آلاف سنة .

وثمة حقيقة تاريخية خطيرة يمكننا الاستشهاد بها هنا لتؤيد لنا قدم الهجرات الاولى الى هذا الحد، وهي ان التحريات التنقيبية في العراق تنبىء ان هذا التاريخ يتفق مع بدايات عهد الاستقرار السّكنيّ في أرض الرافدين وبنـــاء المنازل المتقاربة في جماعات بشرية زراعية ، منذ نحو تسعة آلاف سنة . وذلك فيما يظهر أول عهد الانسان بانشاء القرية ، ثم المدينة .. أي بداية تأسيس الحضارة (مع احتساب الاحقاب التمهيدية التي لا بد ان يكون المهاجر العربي قضاها قبل أن ينتقل من طـــور الرعي والترحال الى حياة الزراعة والاستقرار .. والواقع ان اخلافاً له ما زالوا رعاة مترحلين يجوبون الفيافي على تخوم العراق ، ولم يستقروا حتى اليوم) .

وبتعبير آخر ان أولئك المؤسسين هم العرب الذين استوطنوا العراق بينما استمر شطر منهم في المسير شرقاً عبر بلاد فارس وشمالاً عبر الاناضول ، فكانوا أوائل الآريين . وكونهم شعبة من نفس القوم الذين أسسوا الحضارة الرافدانية الأولى يبرئهم – أي اخواننا الآريين – من وصمة العجز عن انشاء الحضارة ابتداءاً ، تلك الوصمة التي يلصقها بهم كونهم في الواقع قد اقتبسوا كل حضارة لهم قديمة في الشرق الآسيوي والغرب الأوربي من حضارة أشقّائهم في وادي الرافدين ، على ما يقول الباحثون .

فما دامت تلك الألفاظ البحرية والزمانية التي اعتبرناها حديثة بالنسبة الى كلمة (النوء) – موجودةً في اللغات الآرية فمعنى ذلك أن العرب قد عرفوا (الانواء) الفلكية .. لا نقول بتلك الدقة الجاهلية حتماً لكنهم عرفوا على كل حال شيئاً عن تعاقبها وعلاقاتها التي منها انبثقت تلك الألفاظ .. قبل أن ينسلخ الآريون من المجموعة العربية في المنطقة منذ عشر آلاف سنة ، او اكثر .

ولو وجدت هذه الألفاظ في الآريات الاوربية فقط لجاز القول انها قد تكون حديثة الاقتباس عن طريق الكنعانيين (الفنيقيين) مثلاً . لكن وجودها في نفس الوقت في الفارسية وهي لغة آرية أصيلة (وليست فرعاً من السنسكريتية

كما كان يعتقد سابقاً) يدل على قدم هذه الالفاظ ودخولها الآريات منذ عهد الهجرات الاولى . ولعلها موجودة في السنسكريتية ايضاً ، لكن فقدان المراجع لدينا في غربتنا الراهنة يحول دون تحققنا من ذلك .

فهل من غرابة ان ينبغ من أولئك الاعارب بعدهم ابناؤهم النجباء من النيليين والرافدانيين في هذا الفن – الفلك – نظرياً وتطبيقياً ، ويخلّفوا لنا أقدم قواعده المعروفة ، ويصبحوا روّاد البشرية واساتذتها فيه ؟

ولا غرابة من ثم ان يطلق الشُمَرِيُّون (السومريون) لفظة (آن) على قبة الفلك نفسها أي السماء وهي أعظم الآلهة (أبو الآلهة) عندهم وعند أخلافهم الأكديين الذين كانوا ينطقون الاسم (آنو) – بضم آخره على طريقتهم .

نقولها مرة أخرى : ان درس اللغة بوعي وتفهم أشبه بعلم التنقيب الآثاري قادر على أن يكشف لنا حتى ما لا يستطيع التنقيب الآثاري نفسه أن يكشفه من الحقائق التاريخية والأسرار المجهولة مما أفلت من ذاكرة التاريخ أو من عهود ما قبل التاريخ على الأخص – مما لم تبقَ لدينا وسيلة للتوصل اليه غير سجل اللغة . وما أكثر الأسرار والمجهولات التي خرجت عن متناول المنقب الآثاري ، إلا انها ما تزال في متناول اللغويّ وحده .. لأن أبناء الغابة المعربية لم يسجلوها في مسطورات لهم كتابية ولا نقوش جدارية ولا صور كهفية ولا شَقَف من الفخّار .. وإنما سجلوها تسجيلاً مفيداً عفوياً في لغتهم، وانصرفوا.

وهذا الامر الذي تقدم بنا حديثه يمثل واحدة من الحقائق التاريخية – بل القبتاريخية – الخطيرة التي أنعم علينا بها (الغوص) في (بحر) اللغة .

ليت المرحوم حافظ ابراهيم يعلم أية نبوأة إعجازية قذف في مسمع الدهر ساعة حكى لنا أن اللغة العربية ، دام عزها ، قالت ذات يوم :

أنا (البحر) .. في أحشائه الدُرُّ كامنٌ
فهل سألوا (الغوّاص) عن صدفاتي ؟

تتويج

اللغة العربية ليست أمَّ جميع اللغات ، لكنها تمتاز على جميع لغات أهل الارض بجملة خصال . أهمها :

أولاً : انها أم جميع اللغات الحضارية المهمة ، القديمة منها والحديثة ، الحية والميتة .. لا نستثني غير الصينية والشُمَرية (السومرية) .

أما الصينية فقد سبق ان وجدنا الضمائر فيها عربية الأثل . والضمائر كما قلنا تعتبر الأساس الكيانيّ الذي تُبتَنَى عليه اللغة . يضاف الى ذلك أن في الصينية ألفاظاً عربية أخرى ، غير الضمائر . ولعلها لو تيسّر درسها لثبتت أمومة العربية لها على نحو أكثر صراحة وأبعث للثقة .

وأما الشُمَرية فقد وجدنا شخصياً ان بعض ألفاظها التي سنحت لنا عرضاً في مطالعاتنا العامة – ترجع كذلك الى أثول عربية . وهذه اللغة بدورها بحاجة الى درس وتمحيص . ولا نشك انها إن لم تثبت عروبتها فلا بد أن تنكشف لها علاقة وثيقة بالعربية ، ولأصحابها الشمريين بالعرب .

ثانياً : ان العربية من ثَمَّ أعرق اللغات الراقية . وقد كانت لغة ثقافة وتدوين من عهد الاكديين على الأقل . وبها رُقِمت على ألواح الطين أقدم شريعة معروفة أي أشنُنّة Ashnunnah (وهي أقـــدم من شريعة حمورابي بنحو قرنين) ، وبها سُطرت كذلك أقدم اثنتين من الملاحم البشرية المعروفة وهما ملحمة الخليقة وملحمة قلقميش ، والكثير عدا ذلك من العلوم والفنون والآداب والمعاجم والموسوعات والاساطير والتواريخ .. ولا تبذّها في القِدم الحضاري

سوى اللغة الشمرية ، وهي منقرضة أولاً ومدينة للعربية كالذي قلنا ببعض مفرداتها ان لم نقل بوجودها ثانياً .

ثالثاً : ان العربية أغنى اللغات ، فمعجمها يكـــنز نحو مئة ألف كلمة مستقلة . ومعظم هذه الكلمات تولدت منها بالاشتقاق ألفاظ كثيرة بنفس المعاني أو بمعان مختلفة . وبعض الاشتقاقات ، كالتفاعل والتفعُّل والانفعال والافتعال والاستفعال والمفاعلة ... لا يمكن التعبير عنها في اللغات الاعجمية عادة إلا بلفظين او أكثر . ومن غزارة مادة العربية ووفرة مترادفاتها وتنوّع اشتقاقاتها ومرونة تراكيبها وإمكان الافصاح عن المعنى الواحد فيها بصيغ مختلفة ، صار بالامكان نظم القصائد المطولات بها من القافية الواحدة والوزن الواحد. مطولات من عشرات الأبيات ، وبعضها يتجاوز المئة بل المئتين . وهـــو شيء تمتاز به العربية على جميع اللغات فيما يظهر .

رابعاً : انها ما زالت تحتفظ بالألفاظ البدائية – الرسّيّة – الاولى الى جانب الألفاظ الراقية الحضارية المتفرعة منها ، فهي لذلك تمكّننا من إقامة علم « نشأة اللغة » على أركان وطيدة بالطريقة الترسيسية التي سبق شرحها . وهي وحدها تمدنا بمادة « علم الترسيس » بينما جميع بناتها الساميّات والحاميّات والآريات وغيرها من لغات بني آدم لا تكفي الا للتأثيل .

***

هذه الحقائق وغيرها مما ورد في هذا الكتاب سوف تشيع ذات يوم ويفشو أمرها لدى الغربيين على الأخص ، وعندها سيعرفون ان لغاتهم التي بها يتفاهمون ويترجمون عما يعتمل في سرائرهم من أحاسيس وهجسات وما يدور في أذهانهم من أفكار وخطرات ما هي إلا هبة عربية .

وطالما قالوا إنه لا فكر بلا كلام . فان صح ذلك – وهو فيما نعتقد صحيح

الى حد بعيد – فان أفكارهم نفسها وفلسفاتهم وعلومهم وآدابهم هبات من تلك الهبة العربية .

وفضل اللغة العربية يعني بالضرورة فضل العرب . فعلى هذا سيعلم الغربيون كذلك ان العرب اخوان لهم وأعمام وأخوال . وعندها لا بد أن يخفف بعض المتعالين منهم علينا من تعاليهم والمبغضين لنا من بغضائهم .

وفضل العرب يعني بالضرورة فضل الجزيرة العربية ، الشابة ابداً .. التي طفقت منذ القدم تقذف بالموجات من أبنائها المتلهبين نشاطاً وتطلعاً ، وقد حملوا في شرايينهم دماءاً تجيش تحفزاً للمغامرة والنضال ، وبين ضلوعهم نفوساً تفتش عن رؤى مجهولة ، في تعطش الى صنع حياة جديدة . وكلما وجدوا التربة الصالحة والماء الكافي أوجدوا الجنان الأرضية . أفليس ذلك ما فعلوه على ضفاف الرافدين والنيل والگنج ، وربما اليانگتسي ؟ فان وجدوا التربة ولم يجدوا الماء صنعوه بأيديهم ، كما فعلوا في اليمن مثلاً يوم أقاموا له السدود فاستدرجوه الى خدمتهم طائعاً مغتبطاً .

واذا بدراسة هذه اللغة التي مسّت ألسنة الشعوب بسحر الكلمة فأنطقتهم وقدحت في رؤوسهم شرارة الفكرة فأنشأتهم خلقاً جديداً – تفتح أعيننا المغمضة لترينا برهان الاخوة البشرية .

واذا بها تشيد للعرب أمجاداً لم يحلم بها الكِندي والمتنبي والمعرّي والفارابي وابن سينا وابن رشد وابن منظور وغيرهم من أعلام الكلمة العربية على اختلاف قومياتهم .. وتفتح للعرب أقطاراً لم تبلغها جيوش طارق ولا خيول قتيبة .

واذا بهذه اللغة العظيمة تفتح العالم للعرب في المكان الى أقاصي القارات الخمس اليوم ، وفي الزمان الى عشرة آلاف سنة خلت ...

ونحن العرب ، على اختلاف أمصارنا الآن ، نشعر بالحنين الوجداني الى أمنا

المشتركة – الجزيرة العربية . فكذلك سوف يشعر اخوان لنـــا من الآريين وغيرهم . وعندما يقول قائلهم (وطني) – أياً كان وطنه – سوف تتمثل له في أعماق خياله صورة الجزيرة العربية وراء صورة وطنه الحاضر . انها أمهم الاسطورية البعيدة .

بل ان العربي سيشعر حتى حين يقول بلغته (أنا) تعبـــيراً عن شخصه ووجوده – مهما تكن لغته الحاضرة – أن ذلك الغابيّ الأعربيّ ، الذي ابتدع له هذه الكلمة ، يشاركه من بعيد في شخصيته ووجوديته .

ولئن قيل انه لا فكر قبل الوجود فان (الأنا) الأم هذه ، بالنسبة إلينا جميعاً ، قد سبقت الفكر والوجود . انها تعطي الشخصية امتداداً نفسانياً حلمياً وحشياً لذيذاً ، في الماضي السحيق .. وتحمّله من ثمّ مسئولية الهمجية الانسانية منذ عهود الغاب .. في محـــاولاتها الوئيدة ، الدائبة .. للارتفاع ، والتفوق على ذاتها .

* * *

حقاً كانت العربية خير لغة أخرِجت للناس ..

وها نحن نقف ماثلين في حضرتها بكل اجلال .. وعن كل جدارة واستحقاق نتوجها علمياً باسم :

(ملكة اللغـات)

موضوعات الكتاب

صفحة

٧ عربي ، آرامي ، عبري

٢٥ لغة الجيل

٣٣ التطور الحي في اللغة العربية

٣٥ آثار حيوانية في اللغة

٦٥ اربطة البهائم في لغتنا الثقافية

٩٧ عودة الى (العربي والارامي والعبري)

١١٥ تأثير الاعاجم في لغة الأعارب

١٤٣ فنيقيا – ما اصل تسميتها ؟

١٥٥ تقديم الصفة على الموصوف

١٦٧ رؤى لغوية

١٧٣ فضل العربية على الحضارات القديمة

٢٠١ علم الترسيس

٢٤٥ اسرار الضمائر

٢٤٧ خطورة الموضوع

٢٤٨ عناصر الضمائر

٢٤٩ الهمزة : همزة التنبُّه والتنبيه ٢٥٠ – النداء ٢٩١

٢٥١ لغة الاشارات

٢٥٢ الضمير العام

٢٥٣ رواسب التنبيه والاشارة

٢٥٤ ضمائر الهمزة : هى ٢٥٦

٢٥٧ النون : نون الوقاية ٢٥٩ — ابدال النون ميماً ٢٦١

٢٦٣ التاء

٢٦٥ تركيب الضمائر : انت ٢٦٦ — نشوء التركيب ٢٦٦ — بواعث التركيب ٢٦٧

٢٧٠ تحليل الضمائر

٢٧٤ الضمائر المستترة

٢٧٤ تخصص الضمائر

٢٧٧ تباين الضمائر

٢٧٧ صيغ المجهول

٢٧٩ توحُّد الضمائر

٢٨٠ الضمائر المتصلة

٢٨٢ حركات الاعراب : الزائد اللغوي ٢٨٢ — شين النفي ٢٨٤ — الضمير الزائد ٢٨٥ — تدريس النحو ٢٩٢

٢٩٤ التثنية والجمع : قصة (نحن) ٢٩٤ — قصة الالف والنون ٢٩٦ — الجمع في الآريات ٣٠٠

٣٠١ التأنيث وجمعه

٣٠٣ التنوين

٣٠٥ التعريف

٣١٠ ظهور السين : أس us ٣١٢ – وظائف السين ٣١٣

٣١٤ فعل الكينونة : الكينونة في الفارسية ٣١٧ – الكينونة في سائر الآريات ٣٢١

٣٢٢ فعل التملك

٣٢٣ دور العربية

٣٢٦ الفصحى

٣٢٨ ايجاز العربية

٣٣٠ الضمائر الآرية

٣٣٣ اسماء الاشارة

٣٣٥ معانٍ اخرى : الهمزة ٣٣٧ – العطف ٣٣٧ – الايجاب ٣٣٨ – الهمزة في الآريات ٣٣٨ – النون ٣٣٩ – النفي والنهي ٣٣٩ – التاء ٣٤١

٣٤٢ ضمائر متطورة: آن ٣٤٢ – ذا ٣٤٥ – انت ٣٤٦

٣٤٧ بعض الصيغ

٣٤٩ ختام

٣٥٣ اول الفلكيين ؟

٣٦٣ تتويج

٣٦٩ موضوعات الكتاب

للمؤلف

مجنونان	الطبعة الاولى		الموصل ١٩٣٩
	الطبعة الثانية		بغداد ١٩٥٨
مزاح وما اشبه			الموصل ١٩٤٠
ثورة الخيام			
	الطبعة الاولى	لجنة التأليف والترجمة والنشر	القاهرة ١٩٥٢
	الطبعة الثانية	دار العلم للملايين	بيروت ١٩٦٨
حائرون			بغداد ١٩٥٨
طواغيت			بغداد ١٩٥٨
٤ نساء و ٣ ضفادع		دار العلم للملايين	بيروت ١٩٦٨

قريباً

هو الذي رأى

وقعت بعض الاخطاء في الطبع ندرج المهم منها فيما يلي :

ص	س	الخطــأ	الصواب
٧٦	١٩	الحصانة	الحصافة
١٢١	٥	الگجوفة	الكجوفة
١٣٦	(الاخير)	castella	castello
٢٢٥	١١	تعنى	يعنى
٢٢٦	١٥	الآن أيهما	أيهما
٢٢٧	١٩	أو جمعه	وجمعه
٢٨٧	١٠	Qalabu	Qalapu
٢٨٩	٤	hirota	hirouta
٢٩٣	٩	السكرانِ	السكرانُ
٣٠٤	٧	أنْ	أنْ
٣٠٤	٨	أنْ	أُنْ
٣٠٥	١٥	مع ادوات	أدوات
٣٠٥	١٦	الاسماء	مع الاسماء
٣١٤	١٨	(آس)	(أس)
٣٤٠	١٨	بصيغه	بصيغة
٣٤٤	(بعد السطر ٨ يضاف) :		in : في – بالانكليزية
٣٤٦	١٨	ومهم	مهم
٣٥٠	١٥	تغرق .. غرقا	تعزق .. عزقاً
٣٥٥	٩	مكب	منكب
٣٥٨	١٩	فيها الواو والنون	فيها النون والواو
٣٦٥	١٥	أشنُنّة	شريعة اشنُنَّة
٣٦٧	١١	الگنخ	الگنج
٣٦٨	٥	العربي	الغربي
٣٦٨	١٠	وتحمّله	وتحمّلها
٣٦٩	الاخير	٢٥٠	٢٤٩
٣٦٩	الاخير	٢٩١	٢٥٠